الجواب الكافي

لمن سأل عن الدواء الشافي

تأليف

الامام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد

شمس الدين أبى عبد الله محمد بن الشيخ أبى بكر

المعروف بابن قيم الجوزية رضى الله عنه

٦٩١ — ٧٥١ هـ

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده

بميدان الأزهر بمصر

مطبعة أنصار السنة المحمدية

٥ غيط النوبى

فهرس كتاب الجواب الكافى

تم فهرس الجواب الكافى

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل الشيخ الامام ، العالم العلامة المتقن ، الحافظ الناقد : شمس الدين ، أبو عبد الله : محمد بن الشيخ الصالح أبى بكر عرف « بابن قيم الجوزية » رضى الله عنه .

ماتقول السادة العلماء ، أئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين : فى رجل ابتلى ببلية ، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته ، وقد اجتهد فى دفعها عن نفسه بكل طريق ، فما يزداد إلا توقداً وشدة ، فما الحيلة فى دفعها ؟ وما الطريق إلى كشفها ؟ فرحم الله من أعان مبتلى . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . أفتونا مأجورين :ـ

فكتب الشيخ رضى الله عنه تحت السؤال : الجواب :ـ

الحمد لله (أما بعد) فقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » وفى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبدالله . قال قال رسول الله ﷺ « لكل داء دواء . فاذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله [1] » وفى مسند الامام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبى ﷺ قال « إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » وفى لفظ « إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، أو دواء ، إلا داء واحداً . قالوا : يارسول الله ماهو ؟ قال : الهرم » قال الترمذى : هذا حديث صحيح

---

(١) أى إذا كان الدواء مناسبا لمزاج المريض ولحالة مرضه ، ووافق الوقت الذى قدر الله نهاية المرض فيه برأ باذن الله

وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها ، وقد جعل النبي ﷺ الجهل داء ، وجعل دواءه سؤال العلماء . فروى أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال «خرجنا في سفر ، فأصاب رجلا منا حجر ، فشجّه في رأسه ، ثم احتلم . فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ قالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات . فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك . فقال: قتلوه ، قتلهم الله ، ألا سألوا ، إذ لم يعلموا ؟ فانما شفاء العيِّ السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر - أو يعصب - على جُرحه خرقة ، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده» فأخبر أن الجهل داء ، وأن شفاءه السؤال . وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء ، فقال تعالى (٤١:٤٤ ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ؟ أأعجمي وعربي ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) وقال (١٧:٨٢ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) و «من» هنا لبيان الجنس لا للتبعيض . فان القرآن كله شفاء ، كما قال في الآية المتقدمة . فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب [1] . فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعمّ ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن . وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال «انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها ، حتى نزلوا على حيّ

---

(١) وقال تعالى (١٠:٥٨ قل يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين) فالقرآن شفاء لشر الامراض وأضرها وهي أمراض القلب بالجهل والتقليد والشرك والشهوات والشبهات ، التي تفسد على المرء دينه ، ودنياه وآخرته وتقتله ، فيضل ويشقى ، وتكون معيشته ضنكا فان الروح الذي نفخ الله في الانسان من روحه سبحانه غذاؤها وشفاؤها من جنسها وهو كلام الله وهداه . أما دواء الامراض الجسمية فقد جعلها الله في الارض والنبات والماء الذي هو غذاء وحياة الاجسام التي خلقها الله وأخرجها من الأرض ، وفيها يعيدها ، ومنها يخرجها تارة أخرى .

من أحياء العرب فاستضافوهم ، فأبوا أن يُضيِّفوهم . فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء . فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء . فأتوهم ، فقالوا : يا أيها الرهط ، إن سيدنا لدغ ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه . فهل عند أحد منكم من شيء ؟ فقال بعضهم : نعم ، والله إنى لأرقى ، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا . فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جُعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم . فانطلق يتفُلُ عليه ويقرأ (الحمد لله رب العالمين) فكأنما نَشَطَ من عِقال ، فانطلق يمشى ، وما به من قَلَبَة [1] قال : فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقسموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى النبى ﷺ فنذكر له الذى كان ، فننظر ما يأمرنا . فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له . فقال : وما يدريك أنها رقية ؟ ثم قال : قد أصبتم . اقسموا واضربوا لى معكم سهماً . فضحك رسول الله ﷺ » فقد أثر هذا الدواء فى هذا الداء وأزاله ، حتى كأن لم يكن . وهو أسهل دواء وأيسره . ولو أحسن العبد التداوى بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً فى الشفاء . ومكثتُ بمكة مدة تعترينى أدواء ولا أجد طبيبا ولا دواء فكنت أعالج نفسى بالفاتحة ، فأرى لها تأثيراً عجيباً . فكنت أصف ذلك لمن يشتكى ألماً . وكان كثير منهم يبرأ سريعاً .

(١) فى النهاية : قلبة ـ بحركات ـ أى علة . وسميت بذلك لأن الذى تصيبه يتقلب من جنب إلى جنب . وقيل هو داء مأخوذ من القلاب يأخذ البعير ، فيشتكى منه قلبه ؛ فيموت من يومه . هذا وإنما كان لقراءة أبى سعيد رضى الله عنه هذا الأثر السريع ، لأن نفس اللديغ كانت متشوفة كل التشوف ومتهيئة ، إذ وقع عنده أبو سعيد فى سمته وهيبته الموقع الذى كان له هذا الأثر . وكثيراً ما يحصل هذا ولو لم يكن المداوى فى تقوى أبى سعيد ولا صلاحه ؛ ولكنه فى نظر المريض مهيب ، وله قوة نفسية وللمريض نفس ضعيفة سريعة الانفعال ، كما يحصل لمن يأتى العرافين والدجالين ، فيظن لغباوته أن ذلك من صلاح الدجال ، وما هو إلا من وهم المريض ، الذى كثيرا ما يكون مريضا بالوهم لا بالحقيقة ، وكثيرا ما يكون هذا التأثر أيضاً مع الدكاترة والأطباء ، بالثقة وعدمها .

ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له ، وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويُرقَى بها ، هي في نفسها ، وإن كانت نافعة شافية . ولكن تستدعي قبول المحل وقوة همة الفاعل وتأثيره . فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعل . أو لمانع قوي فيه ، يمنع أن ينجع فيه الدواء . كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية . فان عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء . وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره . فان الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول . فكذلك القلب إذا أخذ الرُّقَى والتعاويذ بقبول تام ، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء .

وكذلك الدعاء ، فانه من أقوى الأسباب في دفع المكروه ، وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف عنه أثره ، إما لضعفه في نفسه ، بأن يكون دعاء لا يحبه الله . لما فيه من العدوان ، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء ، فيكون بمنزلة القوس الرِّخو جدا . فان السهم يخرج منه خروجا ضعيفا . وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام ورَين الذنوب (١) على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها . كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة . واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهٍ » فهذا [الدعاء] دواء نافع مزيل للداء . ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته ، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها ، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ « أيها الناس ، إن الله طيب ، لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :

---

(١) الرين : ما يلحق القلب من الذنوب ويطبع عليه من الدنس . يقال : ران على قلبه ، أي طبع عليه وغلب ، وفي قوله تعالى (٨٣ : ١٤ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) هو الذنب يترك نكتة سوداء على القلب ، ثم لا يتداركه غسل الندم والتوبة ، فيستدعي ذنبا آخر ، ولا يزال يلحقه الذنب والذنب حتى يسود ويظلم ويقسو

(٢٣ :٥١ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم) وقال: (٢: ١٧٢ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيلُ السفر أشعثَ أغبرَ ، يمدُّ يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومَطْعمه حرام ، ومَشْربه حرام. وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام ، فأنَّى يستجاب لذلك ؟ » وذكر عبدالله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه « أصاب بني إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجا ، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم : أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة ، وترفعون إليَّ أكفًّا قد سفكتم بها الدماء ، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم[1] ؟ لن تزدادوا مني إلا بعداً » وقال أبو ذر : يكفي من الدعاء البرأة[2] ما يكفي الطعام من الملح.

فصل

والدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء ، يدافعه ويعالجه ، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل . وهو سلاح المؤمن ، كما روى الحاكم في مستدركه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ « الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض »

وله مع البلاء ثلاث مقامات .

أحدها : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثاني : أن يكون أضعف من البلاء ، فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد ، ولكن قد يخففه ، وإن كان ضعيفاً .

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه . وقد روى الحاكم في

---

(١) أي ، الآن تدعونني حين اشتد غضبي عليكم بما ارتكبتم ، لن تزدادوا بهذا الدعاء إلا بعدا

(٢) البرأة : كالجرعة : القليل

مستدركه . من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت: قال رسول الله ﷺ « لا يُغنى حَذَرٌ من قدر . والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل . و إن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة » وفيه أيضا من حديث ابن عمر عن النبى ﷺ قال « الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل . فعليكم عبادَ الله بالدعاء » وفيه أيضا من حديث ثوبان عن النبى « لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البِرّ . و إن الرجل ليُحْرَم الرزق بالذنب يصيبه »

فصل

ومن أنفع الأدوية : الإلحاح فى الدعاء . وقد روى ابن ماجه فى سننه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « من لم يسأل الله يغضب عليه » وفى مستدرك الحاكم من حديث أنس عن النبى ﷺ « لا تعجزوا فى الدعاء ، فانه لا يهلك مع الدعاء أحد » وذكر الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها : قالت قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب الملحِّين فى الدعاء » وفى كتاب الزهد للامام أحمد عن قتادة قال : قال مُوَرِّق « ماوجدت للمؤمن مثلا إلا رجلا فى البحر على خشبة ، فهو يدعو : يارب يارب ، لعل الله عز وجل أن ينجيه »

فصل

ومن الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه : أن يستعجل العبد و يستبطىء الإجابة فيستحسر [1] ويدع الدعاء . وهو بمنزلة من بذر بَذْراً أو غرس غرسا ، فجعل يتعاهده و يسقيه ، فلما استبطأ كماله و إدراكه تركه وأهمله . وفى البخارى من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يستجاب لأحدكم مالم يَعْجَل ، يقول دعوت فلم يستجب لى » وفى صحيح مسلم عنه « لا يزال يستجاب للعبد ، مالم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم ، مالم يستعجل . قيل : يارسول الله ما الاستعجال ؟ قال : يقول

---

(١) الاستحسار : الانكفاف عن ملل واعياء

قد دعوت وقد دعوت ، فلم أر يُستجاب لى، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » وفى مسند أحمد من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ « لا يزال العبد بخير مالم يستعجل . قالوا : يارسول الله ، كيف يستعجل ؟ قال : يقول : قد دعوت ربى فلم يستجب لى »

فصل

وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب . وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة . وهي : الثلث الأخير من الليل . وعند الأذان . وبين الأذان والاقامة . وأدبار الصلوات المكتوبات . وعند صعود الامام يوم الجمعة على المنبر ، حتى تقضى الصلاة . وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم ، وصادف خشوعاً فى القلب . وانكساراً بين يدى الرب، وذلاً له وتضرعاً ورِقَّة . واستقبل الداعى القبلة . وكان على طهارة . ورفع يديه إلى الله وبدأ بحمد الله والثناء عليه . ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ . ثم قدم بين يدى حاجته التوبة والاستغفار . ثم دخل على الله ، وألح عليه فى المسئلة ، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة . وتوسل اليه بأسمائه وصفاته وتوحيده ، وقدم بين يدى دعائه صدقة . فان هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً . ولا سيما إن صادف الأدعية التى أخبر النبى ﷺ أنها مظنة الاجابة . أو أنها متضمنة للاسم الاعظم (١)

فمنها ما فى السنن وفى صحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بُريدة عن أبيه أن

---

(١) أى الاسم الجامع لمعانى الكبرياء والعظمة للرب ، والذى يناسب حاجته وضرورته . وكان الداعى مضطرا ، يفزع إلى الله فى شدة حاجة أيقظت قلبه ، فعلم أن لا كاشف لضره إلا الله قال تعالى (٢٧ : ٦٢ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟) وسورة الأنبياء تعرف المؤمن : ما يستجاب به الدعاء ، إذا تدبرها وعرف مالقى الأنبياء من شدائد لجئوا فيها إلى ربهم فاستجاب لهم لأنهم (٢١ : ٩٠ كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين)

رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول « اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إلَه إلا أنت ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال : لقد سأل الله بالاسم الذى إذا سئل به أعطى ، و إذا دُعى به أجاب » وفى لفظ « لقد سألت الله باسمه الاعظم »

وفى السنن وصحيح أبى حاتم بن حبان أيضاً . من حديث أنس بن مالك « أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلى. ثم دعا فقال : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان. بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والاكرام ياحى ياقيوم . فقال النبى ﷺ : لقد دعا الله باسمه العظيم ، الذى إذا دُعى به أجاب ، و إذا سئل به أعطى » . وأخرج الحديثين أحمد فى مسنده

وفى جامع الترمذى، من حديث أسماء بنت يزيد أن النبى ﷺ قال «اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين (٢ : ١٦٣ و إلهكم إله واحدلا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وفاتحة آل عمران (الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحى القيوم » قال الترمذى : هذا حديث صحيح

وفى مسند أحمد ومستدرك الحاكم من حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبى ﷺ أنه قال « أَلِظُّوا بياذا الجلال والاكرام » يعنى تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها

وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة «أن النبى ﷺ كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء . و إذا اجتهد فى الدعاء قال : ياحى ياقيوم »

وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك . قال «كان النبى ﷺ إذا كَرَبه أمر قال : ياحى ياقيوم ، برحمتك أستغيث »

وفى مستدرك الحاكم من حديث أبى أمامة عن النبى ﷺ قال« اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن : البقرة : وآل عمران . وطه » قال القاسم ، فالتمستها فاذا هى آية (الحى القيوم)

وفى جامع الترمذى ومستدرك الحاكم من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ قال « دعوة ذى النون ، إذ دعا وهو فى بطن الحوت(٢١ : ٨٧ لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إنى كنت من الظالمين) إنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » قال الترمذى : حديث صحيح

وفى مستدرك الحاكم أيضا من حديث سعد عن النبى ﷺ « ألا أخبركم بشىء إذا نزل برجل منكم أمر مُهِمٌّ فدعا به يُفَرِّج الله عنه ؟ دعاء ذى النون »

وفيه أيضاً عنه أنه سمع النبى ﷺ وهو يقول « هل أدلكم على اسم الله الأعظم ؟ دعاء يونس . فقال رجل : يارسول الله ،هل كان ليونس خاصة ؟ فقال: ألا تسمع قوله تعالى (٢١ : ٨٨ فاستجبنا له ونَجَّيناه من الغَمِّ . وكذلك نُنْجِى المؤمنين) فأيُّما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة فمات فى مرضه ذلك أُعطىَ أجر شهيد ، وإن بَرِىء برىء مغفوراً له »

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ،لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم »

وفى مسند الامام أحمد من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « علمنى رسول الله ﷺ إذا نزل بى كرب أن أقول : لا إله إلا الله الحليم الكريم . سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم . والحمد لله رب العالمين »

وفى مسنده أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود . قال: قال رسول الله ﷺ « ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حزن ، فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمَتك . ناصيتى بيدك . ماضٍ فىَّ حُكمك . عَدْلٌ فىَّ قضاؤك . أسألك اللهم بكل اسم هُوَ لك ، سَمَّيتَ به نفسك . أوعلمته أحداً من خلقك . أو أنزلته فى كتابك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم رَبيع قلبى ، ونور صدرى ، وجِلاء حزنى ، وذهاب همى . إلا أذهب الله همه وحزنه . وأبدله مكانه

فرحا ، فقيل : يارسول الله ، ألا نتعلمها؟ قال : بل ، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها »

وقال ابن مسعود « ما كرب نبى من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح »

وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب المجانين[١] فى الدعاء عن الحسن قال « كان رجل من أصحاب النبى ﷺ من الأنصار . يكنى أبا مغلق ، وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره ، يضرب به فى الآفاق . وكان ناسكا ورعاً ، فخرج مرة فلقيه لص مُقَنَّع فى السلاح . فقال له : ضع ما معك ، فانى قاتلك . قال : فما تريد إلا دمى ؟ فشأنك والمال . قال : أما المال فلى ، ولست أريد إلا دمك . قال : أما إذ أبيت فذرنى أصلى أربع ركعات . قال : صل مابدا لك . فتوضأ ثم صلى أربع ركعات . فكان من دعائه فى آخر سجدة أن قال : يا ودود . ياذا العرش المجيد . يا فعال لما تريد . أسألك بعزك الذى لا يُرام . و بملكك الذى لا يضام . و بنورك الذى ملأ أركان عرشك: أن تكفينى شر هذا اللص . يامغيث أغثني . يامغيث أغثنى . ثلاث مرات . فاذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه . فلما بصُر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله . ثم أقبل إليه فقال : قم . فقال : من أنت بأبى أنت وأمى ؟ فقد أغاثنى الله بك اليوم . فقال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت بدعائك فسمعت لأبواب السماء قعقعة . ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعت لأهل السماء ضجة . ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لى : دعاء مكروب . فسألت الله أن يولينى قتله . قال الحسن : فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهـذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب[٢]

---

(١) كذا بالأصل : وليحرر (٢) هذه حكاية من كتاب المجانين ، لا حجة فيها ، وليس فى الصحابة من يدعى بأبى مغلق . وبموت رسول الله ﷺ قد انقطع نزول الملائكة التى تكلم الناس، وعفا الله عن الشيخ فى مثل هذه الحكايات

فصل

وكثيراً مانجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله ، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته ، أو صادف الدعاء وقت اجابة . ونحوذلك.فأجيبت دعوته. فيظن الظان أن السرّ فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا فى الوقت الذى ينبغى ، فانتفع به ، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء مجرداً كاف فى حصول المطلوب فانه يكون بذلك غالطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس. ومن هذا قديتفق من يدعو دعاء باضطرار عند قبر فيجاب له ، فيظن الجاهل أن السر فى القبر ، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فاذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله كان أفضل وأحبّ إلى الله

فصل

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح . والسلاح بضاربه ، لا بحده فقط . فمتى كان السلاح سلاحا تاما لا آفة به ، والساعد ساعداً قويا ، والمانع مفقوداً . حصلت به النكاية فى العدو . ومتى تخلّف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير . فان كان الدعاء فى نفسه غير صالح. أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه فى الدعاء ، أو كان ثَمّ مانع من الاجابة، لم يحصل الأثر

فصل

وههنا سؤال مشهور . وهو : أن المدعو به إن كان قد قُدِّر ، لم يكن بد من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدع . وإن لم يكن قد قدر ، لم يقع ، سواء سأله العبد أو لم يسأله . فظنت طائفة صحة هذا السؤال . فتركت الدعاء . وقالت : لافائدة فيه . وهؤلاء — مع فرط جهلهم وضلالهم — متناقضون . فلو اطّرد مذهبهم لوجب تعطيل جميع الأسباب . فيقال لأحدهم : إن كان الشبع والرى قد قدرا لك . فلابد

من وقوعهما ، أكلت أولم تأكل . وإن لم يقدرا لك لم يقعا ، أكلت أو لم تأكل . وإن كان الولد قد قدر لك . فلا بد منه ، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأهما . وإن لم يقدر لم يكن . فلا حاجة إلى التزوج والتسرى . وهلم جرا . فهل يقول هذا عاقل أو آدمى ؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التى بها قوامه وحياته . فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالانعام ، بل هم أضل سبيلا

وتكايس بعضهم [1] وقال : الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض. يثيب الله عليه الداعى ، من غير أن يكون له تأثير فى المطلوب بوجه ما ، ولا فرق عند هذا المتكايس بين الدعاء والإمساك عنه بالقلب واللسان فى التأثير فى حصول المطلوب . وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ، ولا فرق .

وقالت طائفة أخرى ، أكيس من هؤلاء : بل الدعاء علامة مجردة ، نصبها الله سبحانه أمارة على قضاء الحاجة . فمتى وفّق العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد قضيت . وهذا كما إذا رأيت غَيْماً أسود بارداً فى زمن الشتاء . فان ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر . قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب . والكفر والمعاصى مع العقاب ، هى أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لا أنها أسباب له . وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار . والحرق مع الاحراق . والإزهاق مع القتل . ليس شىء من ذلك سبباً ألبتة ، ولا ارتباط بينه و بين مايترتب عليه ، إلا مجرد الاقتران العادى ، لا التأثير السببى . وخالفوا بذلك الحس والعقل ، والشرع والفطرة ، وسائر طوائف العقلاء . بل أضحكوا عليهم العقلاء

والصواب : أن ههنا قسما ثالثا ، غير ماذكره السائل . وهو أن هذا المقدور قُدِّر بأسباب . ومن أسبابه : الدعاء . فلم يقدر مجرداً عن سببه ، ولكن قُدر بسببه فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور . ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور . وهذا كما قدر الشبع والرى بالأكل والشرب . وقدر الولد بالوطء . وقدر حصول الزرع

---

(١) تكايس ادعى الكيس وتكلفه . وهو الحزم ، والفطانة

بالبذر . وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه . وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال . ودخول النار بالأعمال . وهذا القسم هو الحق. وهذا الذى حُرمه السائل ولم يوفق له. وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب. فاذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال : لافائدة فى الدعاء ، كما لايقال : لافائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال . وليس شىء من الأسباب أنفع من الدعاء ، ولا أبلغ فى حصول المطلوب

ولما كان الصحابة رضى الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله ، وأفقههم فى دينه . كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه ، وآدابه من غيرهم . وكان عمر رضى الله عنه يستنصر به على عدوه .وكان أعظم جنده . وكان يقول للصحابة «لستم تنصرون بكثرة،و إنما تنصرون من السماء»وكان يقول « إنى لا أحمل هَمَّ الإجابة. ولكن أحمل هَمَّ الدعاء . فاذا أُلهمت الدعاء فان الاجابة معه » وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه ، فقال :

لو لم ترد نَيل ما أرجو وأطلبه   من جود كفيك ما علمتنى الطلبا

فمن أُلهم الدعاء فقد أريد به الاجابة . فان الله سبحانه يقول : (٤٠ : ٦٠ ادعونى أستجب لكم) وقال (٢ : ١٨٦ و إذا سألك عبادى عنى فانى قريب * أجيب دعوة الداع إذا دعان) .

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة . قال قال رسول الله ﷺ « من لم يسأل الله يغضب عليه » وهذا يدل على أن رضاه فى سؤاله وطاعته . وإذا رضى الرب تبارك وتعالى فكل خير فى رضاه . كما أن كل بلاء ومصيبة فى غضبه. وقد ذكر الامام أحمد فى كتاب الزهد أثراً « أنا الله ، لا إله إلا أنا ، إذا رضيت باركت،وليس لبركتى منتهى.وإذا غضبت لعنت، ولعنتى تبلغ السابع من الولد »

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر والاحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر .فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمه بمثل طاعته ،والتقرب إليه ، والاحسان إلى خلقه

وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة وحصول السرور فى الدنيا والآخرة فى كتابه على الأعمال، ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة والمسبب على السبب. وهذا فى القرآن يزيد على ألف موضع، فتارة يرتب الحكم الخبرى الكونى والأمر الشرعى على الوصف المناسب له . كقوله تعالى (٧:١٦٦ فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وقوله (٤٣:٥٥ فلما آسفونا انتقمنا منهم) وقوله (٥ : ٣٨ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا) وقوله (٣٣:٣٥ إن المسلمين والمسلمات — إلى قوله — والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وهذا كثير جدا، وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى (٨:٢٩ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم) وقوله (٧٢:١٦ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) وقوله (٩:١١ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين) ونظائره . وتارة يأتي بلام التعليل كقوله (٣٨:٢٩ ليدبروا آيته وليتذكر أولوا الألباب) وقوله (٢:١٤٣ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وتارة يأتي بأداة « كى » التى للتعليل . كقوله (٥٩:٧ كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) وتارة يأتى بباء السببية كقوله تعالى (٣:١٨٢ ذلك بما قدمت أيديكم) وقوله (١٠:٤ بما كانوا يكفرون) و (١٠:٨ بما كانوا يكسبون) وقوله (٣:١١٣ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) وتارة يأتى بالمفعول لأجله ظاهراً أو محذوفا ، كقوله تعالى (٢ : ٢٨٢ فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل[1] إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) وكقوله تعالى (٧ : ١٢٧ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) وقوله (٦ : ١٥٦ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) أى كراهة أن تقولوا ، وتارة يأتي بفاء السببية ، كقوله (٩١ : ١٤، ١٥ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) وقوله (٦٩ : ١٠ فعصوا رسول ربهم فأخذهم

(١) أى تخطىء لعدم ضبطها وقلة عنايتها ، لأن الشهادة ليست من شأنها

أخذة رابية) وقوله (٢٣ : ٤٨ فكذبوهما فكانوا من المهلكين) ونظائره . وتارة يأتى بأداة «لما» الدالة على الجزاء كقوله (٤٣: ٥٥ فلما آسفونا انتقمنا منهم) ونظائره وتارة يأتى بأنَّ وما عملت فيه . كقوله (٢١ : ٩٠ إنهم كانوا قوم سَوء فأغرقناهم أجمعين) وتارة يأتى بأداة « لولا » الدالة على ارتباط ماقبلها بما بعدها . كقوله (٣٧ : ١٤٣،١٤٤ فلولا أنه كان من المسبِّحين للبثَ فى بطنه إلى يوم يبعثون) وتارة يأتى بلو الدالة على الشرط . كقوله (٤:٦٦ ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيراً لهم)

وبالجملة : فالقرآن من أوله إلى آخره صريح فى ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب . بل فى ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال .

ومن تفقه فى هذه المسألة وتأملها حقَّ التأمل انتفع بها غاية النفع ، ولم يتَّكل على القدر جهلا منه ، وعجزاً وتفريطا وإضاعة . فيكون توكله عجزاً ، وعجزه توكلا . بل الفقيه كل الفقيه الذى يردُّ القدر بالقدر . ويدفع القدر بالقدر . ويعارض القدر بالقدر ، بل لايمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك . فان الجوع والعطش والبرد ، وأنواع المخاوف والمحاذير هى من القدر . والخلق كلهم ساعون فى دفع هذا القدر بالقدر ، وهكذا من وفقه الله وألهمه رُشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة . فهذا هو القدر المخوف فى الدنيا وما يُضادُّه . فربُّ الدارين واحد ، وحكمته واحدة . لا يناقض بعضها بعضا . ولا يبطل بعضها بعضا . فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ، ورعاها حق رعايتها ، والله المستعان

لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه

أحدهما : أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير . ويكون له بصيرة فى ذلك بما شهده فى العالم . وما جرَّبه فى نفسه وغيره . وما سمعه من أخبار الامم قديما وحديثا . ومن أنفع ذلك : تدبر القرآن ، فانه كفيل بذلك على أكمل الوجوه . وفيه أسباب الخير والشر جميعا مفصلة مبينة . ثم السنة ، فانها شقيقة القرآن . وهى

الوحى الثـانى . ومن صرف إليهما عنايته اكتفى عن غيرهما . وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما ، حتى كأنك تعاين ذلك عيانا . وبعد ذلك . فاذا تأملت أخبار الامم وأيام الله فى أهل طاعته وأهل معصيته . طابق ذلك ماعلمته من القرآن والسنة ورأيته بتفـاصيل ماأخبر الله به ووعد به ، وعلمت من آياته فى الآفاق مايدلك على أن القرآن حق . وأن الرسول حق . وأن الله ينجز وعده لامحالة . فالتاريخ تفصيل لجزئيات ماعرّفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر .

فصل

الأمر الثانى : أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب . وهذا من أهم الأمور فان العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له فى دنياه وآخرته ، ولابد. ولـكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة ، وبالتسويف بالتوبة والاستغفار باللسان تارة ، وبفعل المندوبات تارة ، وبالعلم تارة[1] وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء تارة، وبالاقتداء بالأكابر تارة أخرى[2]

---

(١) أى بما تعلم وعلم من علم يظن معه أنه ذو منزلة لا تلحقه معها تبعة، وأنه بذلك التعليم مغفور له كل مايأتى ومايذر (٢) أى الأكابر المفتونين بحب الرئاسة والجاه، الذين يختارون الدنيا بالدين والذين قال الله فيهم (١٧ : ١٦ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا) فكم جر هذا الغرور بالكبراء والسادة والرؤساء إلى كفر وفسوق وعصيان، زعما أن هؤلاء إنما يفعلون عن دليل ، أو اتكالا على أن الله يعذر الضعفاء ، لأنهم تابعون للمستكبرين ، كما قال فيهم (١٤ : ٢١ وبرزوا لله جميعا . فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لـكم تبعا، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، مالنا من محيص) وقال (٤٠ : ٤٧، ٤٨ وإذ يتحاجون فى النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لـكم تبعا . فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد) وقال (٣٣ : ٦٦ ، ٦٧ يوم تقلب وجوههم فى النار ، يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا)

وكثير من النـاس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال : أستغفر الله ، زال الذنب ، وراح هذا بهذا . وقال لى رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ماأفعل ثم أقول : سبحان الله وبحمده مائة مرة ، وقد غفر ذلك أجمعه . كما صح عن النبى ﷺ أنه قال « من قال فى يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة حُطَّت خطاياه ولو كانت مثل زَبَد البحر » وقال آخر من أهل مكة : نحن أحدنا إذا فعل مافعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعا قد محى عنه ذلك . وقال لى آخر : قد صح عن النبى ﷺ أنه قال «أذنب عبد ذنباً فقال : أى ربِّ أصبت ذنباً فاغفر لى، فغفر الله ذنبه . ثم مكث ماشاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر ، فقال : أى رب ، أصبت ذنباً فاغفر لى، فقال الله عز وجل:علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به،قد غفرت لعبدى ، فليصنع ماشاء »وقال :أنا لاأشك أن لى رباً يغفر الذنب ويأخذ به .وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء ، واتكل عليها، وتعلق بها بكلتا يديه . وإذا عوتب على الخطـايا والانهماك فيها سرد لك مايحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء . وللجهال من هذا الضرب من الناس فى هذا الباب غرائب وعجائب ، كقول بعضهم :

وكثر ما استطعت من الخطايا   إذا كان القدوم على كريم

وقول بعضهم : التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله . وقال الآخر : ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار لهـا . وقال محمد بن حزم : رأيت من بعض هؤلاء من يقول فى دعائه : اللهم إنى أعوذ بك من العصمة .

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر. وأن العبد لافعل له ألبتة ولااختيار. وإنما هو مجبور على فعل المعاصى . ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء . وأن الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان ، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل . ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين ، وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع اليهم ، والاستشفاع بهم والتوسل

إلى الله بهم . وسؤاله بحقهم عليه ، وحرمتهم عنده (١) ، ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه . وأن لهم عند الله مكانة وصلاحا ، فلا يدعون أن يخلصوه . كما يشاهد في حضرة الملوك . فان الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم . وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلصه وأبوه أوجده بجاهه ومنزلته . ومنهم من يغتر بأن الله عزوجل غني عن عذابه ، وعذابه لايزيد في ملكه شيئاً . ورحمته له لاتنقص من ملكه شيئاً . فيقول : أنا مضطر إلى رحمته ، وهو أغنى الأغنياء . ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً إلى شربة ماء عند من في داره شط نهر يجرى لما منعه منها ، فالله أكرم وأوسع . فالمغفرة لاتنقصه شيئاً . والعقوبة لاتزيد في ملكه شيئاً . ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة . فاتكلوا عليه ، كاتكال بعضهم على قوله تعالى (٩٣ : ٥ ولسوف يعطيك ربك فترضى) قال : وهو ﷺ لايرضى أن يكون في النار أحد من أمته . وهذا من أقبح الجهل ، وأبين الكذب على الله ورسوله . فانه ﷺ يرضى بما يرضى به ربه عزوجل والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر . فحاشا رسوله أن يرضى بما لايرضى به ربه تبارك وتعالى . وكاتكال بعضهم على قوله تعالى (٣٩ : ٩٣ إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وهذا أيضا من أقبح الجهل . فان الشرك داخل في هذه الآية وهو رأس الذنوب وأساسها . ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين (٢) . فانه يغفر ذنب كل تائب أي ذنب كان . ولو كانت الآية

---

(١) وأخبث من هؤلاء وألعن من يزعم أنه محسوب على أولئك الأولياء . وأنهم سيكفونه كل ما أهمه في الآخرة ، كما أنه يعتقد أنهم يكفونه كل ماأهمه من أمور دنياه . ولذلك يلجأ إليهم في كل أمر أهمه ويعطى السدنة من ماله ما يطلبون . والحمد لله الذى عافانا وهدانا لاخلاص التوحيد له وحده (٢) لأنه سبحانه قال بعدها (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون ، واتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم=

فى حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها . وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أُتى صاحبه من قلة علمه وفهمه. فانه سبحانه ههنا عمم وأطلق ، فعلم أنه أراد التائبين . وفى سورة النساء خصص وقيد فقال (٤ : ٤٨ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فأخبر الله سبحانه أنه لايغفر الشرك ، وأخبر أنه يغفر مادونه ، ولو كان هذا فى حق التائب، لم يفرق بين الشرك وغيره . وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى (٨٢ : ٦ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم) فيقول : كرمه، وقديقول بعضهم : إنه لقَّن المغتر حجته . وهذا جهل قبيح ؛ وإنما غرره به الغَرور ، وهو الشيطان ، ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه . وأتى سبحانه بلفظ « الكريم » وهو السيد العظيم المطاع الذى لا ينبغى الاغترار به ولا إهمال حقه . فوضع هذا المغتر الغرور فى غير موضعه . واغتر بمن لاينبغى الاغترار به . وكاغترار بعضهم بقوله تعالى فى النار (٩٢ : ١٥، ١٦ لايصلاها [1] إلا الأشقى الذى كذب وتولى) وقوله (٢ : ٢٤ أُعدت للكافرين) ولم يدر هذا المغتر أن قوله (٩٢ : ١٤ فأنذرتكم ناراً تلظَّى [2]) هى نار مخصوصة من جملة دركات جهنم . ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لايدخلها ، بل قال (لايصلاها إلا الأشقى) ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها . فان الصلى أخص من الدخول ، ونفى الأخص لايستلزم نفى الأعم

= لاتشعرون الآيات إلى قوله (ثم ينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولاهم يحزنون) والتوبة : إنما هى الرجوع من طريق غضب الله الذى كان يسعى فيه مع عدوه إلى صراط الله المستقيم ، ولا يكون ذلك إلا عن علم وإيمان بعاقبة كل من الطريقين ، ثم العمل على إصلاح ما أفسد من سنن الله وآياته ونعمه . وذلك قوله تعالى (٢٥ : ٧٠ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما)

(١) صليت الهم وغيره — من باب رمى — شويته (٢) تتلظى : أى تتلهب تلهبا خالصا .

ثم هذا المغتر لو تأمل الآيات التى بعدها [١] لعلم أنه غير داخل فيها فلا يكون مضمونا له أن يُجنَبها

وأما قوله فى النار (أعدت للكافرين) فقد قال فى الجنة (٣: ١٣٣ أُعِدَّت للمتقين) ولا ينافى إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة. ولا ينافى إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ولم يعمل خيراً قط

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء، أو يوم عرفة، حتى يقول بعضهم: يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة فى الأجر ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء [٢] وهى إنما تكفر ما بينها إذا اجتنبت الكبائر. فرمضان

---

(١) وهى قوله سبحانه (الذى كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى) والمنهمك فى المعاصى والفسوق: لا شك مكذب بآيات الله ووعده ووعيده، وهو بلا شك معرض عن ربه أشد الاعراض، وفار منه. قد ألقى نفسه وقلمه فى قبضة عدوه يورده موارد الهلكة، ويخدعه شر الأخاديع ونسأل الله العافية.

(٢) وهو كاذب فى صيامه، حتى ولو صام رمضان كذلك أيضا. لأن الصيام: إنما هو حبس النفس مع ربها وبارئها المنعم المتفضل عليها بكل خير ورحمة، وذلك يورث العبد قوة يقدر معها أن يتقى كل ما يخاف ويكره مما يغضب ربه ويسخطه عليه، والفاسق لا يبالى بغضب ربه، لأنه غافل عنه، قد صرف قلبه عنه بالعدو الذى أغواه وشغله بالأمانى الكاذبة، فهو لا بد غير مصدق بوعده ولا بوعيده ولا بآياته ولا كلامه الحق. وذلك من سوء ظنه بربه العليم الحكيم، إذ ظن أنه خلقه وسواه ونفخ فيه من روحه وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض واستخلفه فى الأرض سدى، أو ليفسد ويفسق، ويكفر نعم ربه ويسىء استعمالها، والله سبحانه يقول (٣٨: ٢٧، ٢٨ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا. ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار؟) ولو أنه صلى وصام إيمانا واحتسابا ما كان مصرا أبدا على ما يفسد عليه عمله الذى هو رأس ماله لأربح تجارة تسعده فى دنياه وآخرته

والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها. فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر. فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مُصِرٌّ عليها، غير تائب منها؟ هذا محال. على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفر لجميع ذنوب العام على عمومه. ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع. ويكون إصراره على الكبائر مانعا من التكفير. فاذا لم يُصِرَّ على الكبائر تساعد الصوم وعدم الاصرار. وتعاونا على عموم التكفير. كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال (٤: ٣١ إن تجتنبوا كبائر ما تُنْهَوْنَ عنه نُكَفِّرْ عنكم سيئاتكم) فعلم أن جعل الشيء سببا للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما. وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل. وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ حاكيا عن ربه «أنا عند حسن ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء» يعني ما كان في ظنه فأنا فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الاحسان، فان المحسن حَسَّن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه وأنه لا يخلف وعده، وأنه يقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فان وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في المشاهدة. فان العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به. ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدا. فان المسيء مستوحش بقدر إساءته وأحسن الناس ظناً بربه: أطوعهم له. كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل. وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

فكيف يكون حَسَن الظن بربه من هو شارد عنه، حالٌّ مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه؟ وكيف يكون حسن الظن به من بارزه بالمحاربة. وعادى أولياءه

ووالى أعداءه وجحد صفات كماله ، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر ؟ وكيف يكون حسن الظن به من يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب. وقد قال الله فى حق من شك فى تعلق سمعه ببعض الجزئيات ، وهو السر من القول(١) (٤١ : ٢٣ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون: كان هذا إساءة لظنهم بربهم ، فأرداهم ذلك الظن. وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله . ووصفه بما لا يليق به . فاذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه . وتسويلا من الشيطان . لا إحسان ظن بربه

فتأمل هذا الموضع ، وتأمل شدة الحاجة إليه. وكيف يجتمع فى قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه . ويعلم سره وعلانيته. ولا يخفى عليه خافية من أمره . وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل. وهو مقيم على مساخطه مُضيِّع لأوامره ، معطل لحقوقه . وهو مع هذا يحسن الظن به ، وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأمانى ؟ وقد قال أبو أمامة سهل بنُ حنيفٌ «دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضى الله عنها فقالت : لو رأيتما رسول الله ﷺ فى مرض له ، وكانت عندى ستة دنانير ، أو سبعة ، فأمرنى رسول الله ﷺ أن أفرقها . قالت : فشغلنى وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله ، ثم سألنى عنها فقال : ما فعلت ؟ أكنت فرقت الستة الدنانير ؟ فقلت : لا والله ، لقد كان شغلنى وجعك . قالت : فدعا بها فوضعها فى كفه . فقال : ما ظن نبى الله لو لقى الله وهذه عنده ؟ » وفى لفظ « ما ظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده »

---

(١) وذلك قوله سبحانه (٤١ : ١٩ — ٢٤ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون — إلى قوله — وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولـكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما كنتم تعملون)

فيالله ماظنُّ أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم . فان كان ينفعهم قولهم : حَسَّنا ظنونا بك فلن يعذب ظالم ولا فاسق . فليصنع العبد ما شاء . وليرتكب كل مانهاه الله عنه . وليحسن ظنه بالله ، فان النار لا تمسه . فسبحان الله ؟ ! مايبلغ الغرور بالعبد . وقد قال إبراهيم لقومه (٣٧ : ٨٦ أإفكا آلهة دون الله دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟) أى ماظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه . فان العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه . فالذى حمله على العمل حسن الظن . فكلما حسن ظنه حسن عمله ، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز كما فى الترمذى والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبى ﷺ قال « الكيِّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها . وتمنى على الله [1] »

وبالجملة : فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة . وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن

فان قيل : بل يتأتى ذلك . ويكون مستند حسن الظن سَعة مغفرة الله ورحمته ، وعفوه ، وجوده . وأن رحمته سبقت غضبه . وأنه لاتنفعه العقوبة ، ولا يضره العفو .

قيل : الأمر هكذا . والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم . ولكن إنما يضع ذلك فى محله اللائق به . فانه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام ، وشدة البطش ، وعقوبة من يستحق العقوبة . فلو كان مُعَوَّلُ حَسَنِ الظن على

---

(١) الكيس بفتح الكاف وبتشديد الياء ــ الفطن الحاذق المعد لكل أمر ما يناسبه ، وهو من الكيس ــ بوزن الكيل ــ ضد الحمق ، والعاجز : الأحمق الذى انسلخ مما آتاه الله من القوى فخرج فى كل أمره واهنا عاجزا

مجرد صفاته تعالى وأسمائه لاشترك فى ذلك البَرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه . فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه وتعرض للعنته . ووقع فى محارمه، وانتهك حرماته، بل حُسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلَع، وبدَّل السيئة بالحسنة . واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة . ثم أحسن الظن فهذا هو حسن ظن؛ والاول غرور . والله المستعان

ولا تستطل هذا الفصل، فان الحاجة إليه لكل أحد . ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به: قال الله تعالى (٢:٢١٨ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يَرْجُون رحمة الله) فجعل هؤلاء أهلَ الرجاء لا الظالمين ولا الفاسقين : وقال تعالى (١٦:١١٩ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا، إن ربك من بعدها لغفور رحيم) فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها · فالعالم يضع الرجاء مواضعه . والجاهل المغتر يضعه فى غير مواضعه

فصل

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، فضيعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب . وأنه لا يُرَدّ بأسُه عن القوم المجرمين . ومن اعتمد على العفو مع الاصرار على الذنب، فهو كالمعاند . وقال معروف : رجاؤك لرحمة من لاتطيعه من الخذلان والحمق . وقال بعض العلماء : من قطع عضواً منك فى الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته فى الآخرة على نحو هذا

وقيل للحسن : نراك طويل البكاء . فقال : أخاف أن يطرحنى فى النار ولا يبالى . وسأل رجل الحسن فقال . يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تنقطع ؟ فقال : والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أسامة بن زيد . قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « يُجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتندلِقُ أقتابه [١] فيدور فى النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطوف به أهل النار ، فيقولون : يافلان ، ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه »

وذكر الامام أحمد من حديث أبى رافع قال : « مر رسول الله ﷺ بالبقيع . فقال : أفٍّ لك أف لك . فظننت أنه يريدنى . قال : لا ، ولكن هذا قبر فلان . بعثته ساعياً إلى آل فلان ، فغَلَّ نَمِرة [٢] فَدُرِّع الآن مثلها من نار » وفى مسنده أيضاً من حديث أنس بن مالك . قال: قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أُسرى بي على قوم تُقرَض شفاهم بمقاريض من نار . فقلت : من هؤلاء ؟ قالوا : خطباء من أمتك من أهل الدنيا ، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، أفلا يعقلون ؟ » وفيه أيضا من حديثه . قال : قال رسول الله ﷺ «لما عُرِج بى ، مررت بقوم لهم أظفار من نُحاس يَخمِشون بها وجوههم وصدورهم . فقلت من هؤلاء ياجبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم»

وفيه أيضا عنه . قال : « كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : يامُقلِّب القلوب والأبصار ثَبِّتْ قلبى على دينك ، فقلنا : يارسول الله ، آمنا بك وبما جئت به : فهل يخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف يشاء »

---

(١) الأقتاب : الأمعاء ، واحدها قتب — بكسر القاف وسكون التاء المثناة — والاندلاق : خروج الماء ونحوه دفعة واحدة

(٢) غل من المغنم ، ومن الصدقة خان ، وسرق منها ، والنمرة : بردة من صوف تلبسها الأعراب ، ودرع مثلها : ألبس ، ودرع المرأة : مثل القميص : ما تلبسه على جزئها الأعلى ، ودرع الحرب : ما يلبس من الحديد على الجزء الأعلى من الجسم

وفيه أيضا عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل « مالى لم أر ميكائيل ضاحكا قط ؟ قال : ماضحك منذ خلقت النار »

وفى صحيح مسلم عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ، فيُصبَغ [1] فى النار صَبغة . ثم يقال له : يا ابن آدم ؟ هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا ، والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا فى الدنيا من أهل الجنة . فيصبغ فى الجنة صبغة . فيقال له : يا ابن آدم ؟ هل رأيت بؤساً قط ، هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا ، والله يارب . ما مر بى بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط »

وفى المسند من حديث البراء بن عازب . قال « خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار . فانتهينا إلى القبر ، ولما يُلحَدْ . فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله ، كأن على رؤسنا الطير . وفى يده عود ينكتُ به فى الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر — مرتين أو ثلاثا — ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان أهل الجنة . وحَنوط [2] من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر . ثم يجىء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه . فيقول : اخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان . فتخرج ، تسيل كما تسيل القَطْرة من فى السقاء [2] فيأخذها . فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طَرْفة عين . حتى يأخذوها ، فيجعلوها فى ذلك الكفن ، وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها . فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان . بأحسن

---

(١) أى يغمس غمسة ، يخرج بها مصطبغا منها

(٢) الحنوط . ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة (٢) من فم السقاء . والسقاء الوعاء يكون من الجلد للبن والماء والقربة تكون للماء فقط

أسمائه التي كانوا يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا . فيستفتحون له ، فيفتح له ، فَيُشَيِّعُهُ من كل سماء مُقَرَّبوها إلى السماء التى تليها ،حتى ينتهى به إلى السماء السابعة،فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين. وأعيدوه إلى الأرض، فانى منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان ،فيجلسانه، فيقولان له: من ربك ؟ فيقول : ربى الله عز وجل فيقولان له : مادينك ؟ فيقول : دينى الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو محمد رسول الله . فيقولان له : وما عِلْمُك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله عز وجل، فآمنت به وصدقت ،فينادى مناد من السماء : أنْ صدَق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة . قال : فيأتيه من رُوحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره . قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت تُوعد . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح فيقول: ربِّ أقم الساعة ، ثم رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهل ومالى . قال : و إن العبد الكافر ، إذا كان فى انقطاع من الدنيا و إقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ، سود الوجوه ، معهم المسوح (١) ، فيجلسون منه مَدَّ البصر ، ثم يجىء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سَخَط من الله وغضب . قال : فتفرَّق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفُّود (٢) من الصوف المبتلّ ، فيأخذها . فاذا أخذها ، لم يدعوها فى يده طَرْفة عين ، حتى يجعلوها

---

(١) جمع ـ مسح ـ بكسر الميم وسكون السين ـ وهو ثوب من الشعر غليظ

(٢) السفود ـ بوزن التنور ـ حديدة مدببة ينظم فيها اللحم ليشوى ، وهو الذى يعرف بالسيخ

فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ (٧ : ٤٠ لا تفتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يَلِجَ الجملُ فى سَمِّ الخِياط) فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سِجِّين ، فى الأرض السفلى . فتطرح روحه طرحاً . ثم قرأ (٢٢ : ٣١ ومَن يُشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتَخْطَفُه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سَحيق) فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : مَن ربك ؟ فيقول : هاه ، هاه ، لا أدرى . فيقولان له : مادينك ؟ فيقول هاه هاه ، لا أدرى ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدرى ، فينادى مناد من السماء : أن كذب عبدى ، فافرشوا له من النار (١) ، وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرِّها وسَمومها ، ويُضيَّق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه (٢) ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب منتن الريح . فيقول : أبشر بالذى يسوءك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : ومن أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجيء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث : فيقول : رب لا تقم الساعة » وفى لفظ لأحمد أيضاً « ثم يُقيَّض له أعمى أصم أبكم ، فى يده مرزَبة ، لو ضرب بها جبلا كان ترابا ، فيضرب به ضربة فيصير ترابا ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضرب به ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين » قال البراء « ثم يفتح له باب إلى النار ، ويمهَّد له فُرُش من النار »

وفى المسند أيضا عنه قال « بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة

---

(١) وفى نسخة « فى النار »

(٢) وفى نسخة « تختلف أضلاعه »

فقال : علام اجتمع هؤلاء ؟ فقيل : على قبر يحفرونه . ففزع رسول الله ﷺ ، فبدر بين يدى أصحابه مسرعاً،حتى انتهى إلى القبر ، فجثا على ركبتيه ، فاستقبلته من بين يديه لأنظر مايصنع ؟ فبكى حتى بلَّ الثرَّى من دموعه . ثم أقبل علينا فقال : أى إخواني ، لمثل هذا اليوم فأعدوا »

وفى المسند من حديث بُريدة قال« خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما ، فنادى ثلاث مرات : ياأيها الناس ، أتدرون مامثلى ومثلكم ؟ قالوا . الله ورسوله أعلم . فقال . إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوًّا يأتيهم ، فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فأبصروا العدو ، فأقبل ليُنذِرهم ، وخشى أن يُدركه العدو قبل أن ينذر قومه ،فأهوى بثوبه : أيها الناس أُتيتم ـ ثلاث مرات »

وفى صحيح مسلم من حديث جابر قال : قال رسول الله « كل ماأسكر حرام ، وإنَّ على الله عز وجل عقداً لمن شرب المسكر : أن يسقيه من طينة الخبال .قيل: وما طينه الخبال ؟ قال : عَرَق أهل النار ، أو عُصارة أهل النار »

وفى المسند أيضا من حديث أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « إنى أرى مالا ترون ، وأسمع مالا تسمعون ، أطَّت (١) السماء ، وحُقَّ لها أن تئِط ، مافيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك يسبح الله ساجداً . لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلاولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش ، ولخرجتم إلى الصعدات (٢) تجأرون إلى الله تعالى . قال أبو ذر : والله لوددت أنى شَجرَةٌ تُعضَد (٣) »

---

(١) الاطيط : صوت الرحل الجديد يثقل عليه الحمل أو الراكب . وأطيط الجمال صوتها وحنينها . أى إن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلهـا حتى أطت (٢) الصعدات هى الطرق . وهي فناء الدار وممر الناس (٣) عضد الشجرة : قطعها .

وفى المسند أيضا من حديث حذيفة قال « كنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة ، فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه ، فجعل يُردِّد بصره فيه ، ثم قال : يضغط المؤمن فيه ضَغْطة تزول منها حمائله ، و يملأ على الكافر ناراً » والحمائل عروق الانثيين[(١)]

وفى المسند أيضا من حديث جابر قال « خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفى ، فلما صلى عليه رسول الله ﷺ ووُضع فى قبره ، وسُوِّى عليه ، سبح رسول الله ﷺ ، فسبحنا طويلا . ثم كبر فكبرنا . فقيل : يارسول الله ، لم سبحت ، ثم كبرت ؟ فقال : لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرَّج الله عنه »

وفى صحيح البخارى من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « إذا وضعت الجنازة ، واحتملها الرجال على أعناقهم ، فان كانت صالحة قالت : قَدِّمونى قدموني ، و إن كانت غير صالحة قالت : ياويلها ، أين تذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الانسان لصُعق »

وفى مسند أحمد من حديث أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر مِيل ، و يُزاد فى حرها كذا و كذا . تَغْلى منها الرءوس ، كما تغلى القدور ، و يعرقون فيها على قدر خطاياهم . منهم من يبلغ إلى كعبه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يُلجمه العرق »

وفيه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا »

وفى المسند أيضاً عن ابن عمر يرفعه « من تَعظَّم فى نفسه أو اختال فى مِشيته ، لقى الله وهو عليه غضبان »

وفى الصحيحين عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن المصورين يعذبون يوم القيامة ، و يقال لهم : أحيوا ما خلقتم »

---

(١) وقيل : مواضع حمائل السيف ، أى عواتقه وصدره وأضلاعه

وفيهما أيضاً عنه عن النبي ﷺ « إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده من الغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة . وإن كان من أهل النار فمن أهل النار . فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة »

وفيهما أيضاً عنه عن النبي ﷺ « إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار جيء بالموت ، حتى يُوقَف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة ، خلود ولا موت . ويا أهل النار ، خلود ولا موت . فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم . ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم »

وفي المسند عنه قال « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله صلاته ما دام عليه »(١) ثم أدخل إصبعيه في أذنيه ثم قال . صُمَّتَا(٢) إن لم أكن سمعت النبي ﷺ يقوله

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال « من ترك الصلاة سكراً مرة واحدة ، فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسُلِبها . ومن ترك الصلاة سكراً أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال . قيل : وما طينة الخبال ، يا رسول الله ؟ قال : عُصارة أهل جهنم »

وفيه أيضاً عنه مرفوعاً « من شرب الخمر شربة لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً. فان تاب تاب الله عليه – فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة – قال: فان عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من رَدْغَة(٣) الخبال يوم القيامة »

وفي المسند أيضاً من حديث أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ « من مات مدمناً للخمر سقاه الله من نهر الغُوطة . قيل : وما نهر الغوطة ؟ قال : نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن »

---

(١) هذا الحديث ذكره الحافظ الذهبي في الميزان والحافظ ابن حجر في اللسان في ترجمة عبد الله بن أيوب بن أبي علاج. وقالا : هو كذاب (٢) أي أصيبتا بالصمم
(٣) الردغة الطين والوحل المجتمع

وفيه أيضا عنه قال قال رسول الله ﷺ « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات . فأما عرضتان : فجدال ومعاذير . وأما الثالثة : فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى ، فآخذٌ بيمينه ، وآخذٌ بشماله »

وفى المسند أيضا من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « إياكم ومحقَّرات الذنوب (١) ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهلكنه . وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلا ، كمثل قوم نزلوا أرض فَلاة ، فحضر صنيع القوم (٢) فجعل الرجل ينطلق ، فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالبَعْرة ، حتى جمعوا سواداً (٣) وأججوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها »

وفى الصحيح من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « يُضرب الجسر على جهنم ، فأكون أولَ من يجوز . ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وعلى حافتيه كلاليب مثل شوك السَّعدان تختطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموثَّق بعمله ، ومنهم المخدوش ثم ينجو ، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوه ، فيعرفونه بعلامة أثر السجود ، وقد حرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود ، فيخرجونهم وقد امتُحشوا (٣) فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة ، فينبتون نبات الحِبة (٤) فى حميل السيل »

وفى صحيح مسلم عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . فقال : ماعملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى قتلت . قال : كذبت ، ولكن قاتلت ليقال : هو جرىء

---

(١) ما يراه الانسان صغيرا حقيرا فيستهين به (٢) الصنيع : الطعام يجتمع عليه الرفقاء (٣) السواد : الكوم العظيم من الحطب (٤) أى احترقوا . والمحش : احتراق الجلد وظهور العظم (٥) الحبة — بكسر الحاء — بزور البقل وحب الرياحين ، وقيل : هو نبت صغير ينبت فى الحشيش . فأما الحبة بالفتح فهى الحنطة والشعير ونحوهما

فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ماعملت فيها ؟ قال : تعلمت فيك العلم وعلمته ،وقرأت فيك القرآن . فقال: كذبت. ولكنك تعلمت ليقال: هو عالم. فقد قيل وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه رزقه، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأُتى به فعرفه نعمهُ، فعرفها فقال : ماعملت فيها ؟ فقال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هو جواد. فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، وفى لفظ فهؤلاء أول خلق الله تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة » .

وسمعت شيخ الاسلام يقول : كما أن خير الناس الأنبياء فشرُّ الناس من تشبه بهم من الكذابين ، وادعى أنه منهم وليس منهم . فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصدِّيقون والمخلصون . وشر الناس من تشبه بهم، يوهم أنه منهم وليس منهم .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ « من كانت عنده لأخيه مظلمة فى مال أو عرض فليأته، فليَسْتَحِلْهَا منه قبل أن يُؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم . فان كانت له حسنات أُخذ من حسناته فأعطيها هذا وإلا أُخذ من سيئات هذا فطُرحت عليه ثم طُرح فى النار »

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة عنه ﷺ قال « من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »

وفى الصحيحين عنه قال قال رسول الله ﷺ « ناركم هذه التى توقدون ، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قالوا والله إن كانت لكافية . قال : فانها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها »

وفى المسند عن معاذ قال « أوصانى رسول الله ﷺ فقال : لا تشرك

بالله شيئا ، وإن قُتلت أو حرقت . ولا تعقن والديك ، وإن أمراك أن تخرج من مالك وأهلك ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا ، فان من ترك صلاة مكتوبة متعمداً، فقد برئت منه ذمة الله . ولا تشربن خمرا ، فانه رأس كل فاحشة . وإياك والمعصية ، فان المعصية تُحلّ سَخط الله »

والأحاديث فى هذا الباب أضعاف أضعاف ماذكرنا . فلا ينبغى لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها، ويرسل نفسه فى المعاصى ،ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن . قال أبو الوفاء ابن عقيل : احذر ولا تغتر ، فإنه قطع اليد فى ثلاثة دراهم ، وجلد الحد فى مثل رأس الابرة من الخمر ، وقد دخلت امرأة النار فى هرّة . واشتعلت الشملة نارا على من غلّها . وقد قتل شهيدا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال «دخل رجل الجنة فى ذباب ، ودخل رجل النار فى ذباب . قالوا : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم لايجوزه أحد حتى يقرّب له شيئا . فقالوا لأحدهما : قرّب . فقال : ليس عندى شىء . قالوا : قرب ولو ذبابا ، فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب . فقال ما كنت لأقرب شيئا من دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة » وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

وربما اتكل بعض المغترين على مايرى من نعم الله عليه فى الدنيا وأنه يعتنى به ويظن أن ذلك من محبة الله له وأنه سيعطيه فى الآخرة أفضل من ذلك . فهذا من الغرور . قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حَرملة بن عمران التّجيبى عن عُقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد من الدنيا على معاصيه مايحب ، فانما هو استدراج» ثم تلا قوله عز وجل (٦ : ٤٤ فلما نسوا ماذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء

حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مُبْلِسون[١]) وقال بعض السلف: إذا رأيت الله عز وجل يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره ، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به . وقد قال تعالى (٤٣:٣٣-٣٥ ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارج عليها يَظْهرون . ولبيوتهم أبوابا وسُرراً عليها يَتّكئون وزُخْرفا . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا. والآخرة عند ربك للمتقين) وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله (٨٩:١٥-١٧ فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول: ربى أكرمنْ . وأما أذا ما ابتلاه فقدَر عليه رزقه فيقول: ربى أهاننى ، كلا) أى ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته . وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته ، بل أبتلى هذا بالنعم ،وأكرم هذا بالابتلاء . وفى جامع الترمذى عنه ﷺ «إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب» وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه ، وهو لا يعلم . ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم ، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم .

فصل

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها ، فآثرها على الآخرة . ورضى بها بديلا من الآخرة ، حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد ، والآخرة نسيئة. والنقد أنفع من النسيئة . ويقول بعضهم: ذَرَّة منقودة ، ولا دُرَّة موعودة . ويقول آخر منهم: لذّات الدنيا متيقنة ، ولذات الآخرة مشكوك فيها ، ولا أدع اليقين للشك وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله . والبهائم العُجْم أعقل من هؤلاء . فإن

---

(١) المبلس الذى ألجم الخوف لسانه . والا بلاس الحيرة من شدة ماوقع به من الهموم والأحزان

البهيمة إذا خافت مَضرَّة شيء لم تقدم عليه ولو ضُربت ، وهؤلاء يُقدِم أحدهم على ما فيه عَطَبُه ، وهو ينظر إليه ، وهو بين مصدق ومكذب . فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء ، فهو من أعظم الناس حسرة ؛ لأنه أقدم على علم [1] وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعِدْ به .

وقول هذا القائل : النقد خير من النسيئة . فجوابه : إنه إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير . وإن تفاوتا ، وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير . فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفَسٍ واحد من أنفاس الآخرة ، كما في مسند أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال : قال رسول الله ﷺ « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخل أحدكم إصبعه في اليمّ ، فلينظر بما يرجع ؟ » فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل . وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة ، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة ؟ فأيما أولى بالعاقل ؟ إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة ، وحرمان الخير الدائم في الآخرة ؟ أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب ، ليأخذ ما لا قيمة له ولا خطرَ له ولا نهاية لعدده ، ولا غاية لأمده ؟

وأما قول الآخر : لا أترك متيقنا لمشكوك فيه . فيقال له : إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله ، أو تكون على يقين من ذلك . فإن كنت

---

(١) يريد الشيخ رحمه الله : أن زعم هذا الضرب من الناس بلسانه : أنه مؤمن بالله ورسوله ولقائه وجزائه هو دعوى لسانية لم يقم عليها دليل عقدي ولا عملي ، كما هو شأن أكثر المنتسبين إلى الدين . فإنهم يقولون ذلك تقليدا لمن لقنوهم من الآباء والشيوخ ، لا علما امتزج بقلوبهم وخالط نفوسهم وأرواحهم . فإن هذا العلم الذي يثمر العقيدة الصحيحة والعمل الصالح لا يكون إلا عن تفكر وتأمل في سنن الله وآياته وتدبر لكتاب الله وسنن رسوله ﷺ . وعندئذ يؤمن العالم بالله واليوم الآخر الإيمان الذي يبعثه على كل عقيدة صحيحة وعمل صالح

على يقين فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانيـة عن قرب ، لأمر ميتقن لا شك فيه ولا انقطاع له. و إن كنت على شك فتأمل آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ، ووحدانيته ، وصدق رسله فيما أخبروا به عنه ، وتجرد وقُم لله. ناظراً أو مناظراً ، حتى يتبين لك أن ماجاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذى لاشك فيه ، وأن خالق هذا العالم هو رب السموات والأرض ، يتعالى و يتقدس و يتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه . ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه ، وأنكر ربوبيته وملكه . إذ من المحال الممتنع عند كل ذى فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزاً أو جاهلا ، لايعلم شيئاً ، ولايسمع ، ولا يبصر ،ولا يتكلم ، ولايأمر ، ولاينهى ، ولايثيب ، ولايعاقب ، ولا يُعزُّ من يشاء ،ولا يُذِلُّ من يشاء ، ولايرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها ، ولايعتنى بأحوال رعيته بل يتركهم سُدًى ويُخليهم هَمَلاً . وهذا يقدح فى ملك آحاد ملوك البشر ولايليق به . فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه ؟

و إذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى حين كماله واستوائه تبين له أن من عُنى به هذه العناية ونقَّله إلى هذه الأحوال ،وصرَّفه فى هذه الأطوار لايليق به أن يهمله ويتركه سُدًى ، لايأمره ولاينهاه ولا يعرف بحقوقه عليه ، ولايثيبه ولايعاقبه . ولو تأمل العبـد حق التأمل لكان كلٌّ مايبصره ومالايبصره دليلا له على التوحيد والنبوة والمعاد ، وأن القرآن كلامه . وقدذكرنا وجه الاستدلال بذلك فى كتاب أيمان القرآن عندقوله (٦٩ : ٣٨ : ٤٠ فلا أقسم بماتبصرون ومالا تبصرون إنه لقول رسول كريم) وذكرناطرفا من ذلك عند قوله (٥١ : ٢١ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟) وأن الانسان دليل نفسه على وجود خالقه وتوحيده ، وصدق رسله ، و إثبات صفات كماله

فقد بان أن المضيع مغرور على التقديرين : تقدير تصديقه و يقينه ، وتقدير تكذيبه وشكه

فان قلت : كيف يجتمع التصديق الجازم الذى لاشك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟ وهل فى الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدى بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة . ويبيت ساهيا غافلا، لايتذكر موقفه بين يدى الملك، ولا يستعدّ له ، ولا يأخذ له أهبته

قيل : هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر هذا الخلق · واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء ، وهذا التخلف له عدة أسباب .

أحدها : ضعف العلم ونقصان اليقين ، ومن ظن أن العلم لايتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها .

وقد سأل إبراهيم الخليل ربّه أن يريه إحياء الموت عيانا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ، ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيبا شهادة .

وقد روى أحمد فى مسنده عن النبى ﷺ أنه قال « ليس الخبر كالمعاينة »

فاذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره، أو غيبته عن القلب كثيرا من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بمايضاده وانضم إلى ذلك تقاضى الطبع ، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة وتسويل النفس وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد ، وطول الأمل ورقدة الغفلة ، وحب العاجلة ، ورُخص التأويل ، وإلف العوائد فهناك لايمسك الايمان فى القلب إلا الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا . وبهذا السبب يتفاوت الناس فى الايمان والأعمال ، حتى ينتهى إلى أدنى مثقال ذرة فى القلب .

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر . ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين ، وجعلهم أئمة فى الدين فقال تعالى(٣٢: ٢٤وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون[١])

---

(١) والحاصل من كلام الله لمن فهمه وتدبره : أنه لا يمكن اجتماع اليقين الجازم بلقاء الله مع الاصرار على الفسوق والعصيان ، ومتابعة السير فى سبيل الغى والآثام .

فصل

وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساعده وساق اليه فهو صحيح ، وإن دعا إلى البطالة والانهماك فى المعاصى فهو غرور ، وحسن الظن هو الرجاء . فمن كان رجاؤه جاذبا له إلى الطاعة ، زاجراً له عن المعصية · فهو رجاء صحيح . ومن كانت بطالته رجاء ، ورجاؤه بطالة وتفريطاً . فهو المغرور . ولو أن رجلا كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مَغَلِّها ما ينفعه ، فأهملها ولم يبذرها ، ولم يحرثها ، وأحسن ظنه بأنه يأتى من مغلها مايأتى من غير حَرْث ولا بذر ولاسقى ولا تعاهد للأرض لعَدَّه الناس من أسفه السفهاء . وكذلك لو حسُن ظنه وقوىَ رجاؤه بأنه يجيئه ولد من غير جماع ، أو يصير أعلم أهل زمانه منْ غير طَلَب للعلم وحرص تام عليه . وأمثال ذلك . فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه فى الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم ، من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . و بالله التوفيق .

وقد قال الله تعالى (٢ : ٢١٨ ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) فتأمل كيف جعل رجاءهم باتيانهم بهذه الطاعات . وقال المغترون : إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره ، الباغين على عباده ، المتجرئين على محارمه، أولئك يرجون رحمة الله .

وسر المسئلة : أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الاتيان بالأسباب التى اقتضتها حكمة الله فى شرعه ، وقدره ، وثوابه وكرامته ، فيأتى العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ، و يرجوه أن لايكله إليها ، وأن يجعلها موصلة إلى ماينفعه، وأن يصرف عنه ما يعرضها للحبوط و يبطل أثرها

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور : أحدها : محبته ما يرجوه . الثاني : خوفه من فواته . الثالث : سعيه فى تحصيله بحسب الامكان . وأما رجاء لايقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني . والرجاء شيء والأمانى شيء آخر . فكل راج خائف . والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات . وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « من خاف أدلج [1] ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة ، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة ، فعُلِم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل . قال الله تعالى (٢٣ : ٥٧ ـ ٦١ أن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لايشركون . والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) وقد روى الترمذى فى جامعه عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ، فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ فقال : لا ، يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، ويخافون أن لا يتقبل منهم . أولئك يسارعون فى الخيرات » وقد روى من حديث أبى هريرة أيضاً .

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالاحسان مع الخوف ، ووصف الأشقياء بالاساءة مع الأمن . ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم فى غاية الجد فى العمل مع غاية الخوف . ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن . فهذا الصديق رضى الله عنه يقول : وددت أنى شعرة فى جنب عبد مؤمن . ذكره أحمد

---

(١) الادلاج : السير بالليل

عنه . وذكر عنه أيضاً : أنه كان يمسك بلسانه و يقول : هذا الذى أوردني الموارد[1] وكان يبكى كثيراً ، ويقول : ابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا . وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود[2] من خشية الله عز وجل . وأُتي بطائر، فأخذ يقلبه ثم قال : ما صيد مَن صِيد، ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح . ولما احتضر قال لعائشة : يابنية إنى أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحِلاب[3] وهذا العبد ، فأسرعى به إلى ابن الخطاب . وقال : والله لوددت أنى كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد . وقال قتادة : بلغنى أن أبا بكر قال : ليتنى خَضِرة تأكلنى الدواب

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله (إن عذاب ربك لواقع) فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه . وقال لابنه وهو فى سِياق الموت : وَيحك ضع خدِّى على الارض ، عساه أن يرحمنى ثم قال : ويل أمى ، إن لم يغفر الله لى ثلاثا ، ثم قضى . وكان يمر بالآية فى وِرده بالليـل فتخنقه العبرة ، فيبقى فى البيت أياما و يعاد ، يحسبونه مريضا ، وكان فى وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من البكاء . وقال له ابن عباس : مَصَّر الله بك الأمصار ، وفتح بك الفتوح ، وفعل وفعل . فقال : وددت أنى أنجو لا أجر ولا وزر

وهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكى حتى تَبتلَّ لحيته . وقال : لو أننى بين الجنة والنار لا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى ، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير

وهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه و بكاؤه وخوفه . وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى ، قال : فأما طول الأمل فينسى الآخرة . وأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق . ألا و إن الدنيا قد ولَّت مدبرة ، والآخرة قد أسرعت

---

(١) أى موارد الهلاك (٢) أى كالعود فى مهب الريح من الارتجاف
(٣) الحلاب إناء يحلب فيه اللبن

مقبلة . ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا . فان اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل

وهذا أبو الدرداء رضى الله عنه كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسى يوم القيامة أن يقال لى : يا أبا الدرداء ، قد علمت ، فكيف عملت فيما علمت ؟ وكان يقول : لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة ، ولا شربتم شرابا على شهوة ولا دخلتم بيتا تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم ، وتبكون على أنفسكم . ولو ددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل

وهذا عبدالله بن عباس رضى الله عنهما كان أسفل عينيه مثل الشراك البالى من الدموع .

وكان أبوذر يقول: ياليتنى كنت شجرة تعضد ، وددت أنى لم أخلق . وعرضت عليه النفقة فقال : عندنا عَنز نحلبها وحُمُر تنقل عليها ومُحرر يخدمنا ، وفضل عباءة . وإنى أخاف الحساب فيها . وقرأ تميم الدارى ليلة سورة الجاثية ، فلما أتى على هذه الآية (٤٥ : ٢١ أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أنْ نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟) جعل يرددها ويبكى حتى أصبح وقال أبو عُبيدة عامر بن الجرّاح : وددت أنى كبش فذبحنى أهلى وأكلوا لحمى وحسوا مرقى [1]

---

(١) قد تساهل المؤلف رحمه الله فى نقل هذه الآثار . وأغلب ماجاء فى ذلك لا يروى إلا فى كتب الزهد والرقائق من كتب الصوفية التى لا يقام لها وزن عند علماء الحديث ، مثل كتاب الاحياء للغزالى والقوت لأبى طالب والحلية لأبى نعيم . وكثير من الآثار التى فى هذه الكتب لا تطمئن النفس إليه من الوجهة العلمية ولا الحديثية مثل ما حكى أن عمر كان يبكي لقراءة آية حتى ينقطع فى بيته ويعاد . وما كان من هدى رسول الله ، هذا الانقطاع والتمارض وكان أبو بكر وعمر وغيرهما من الصحابة (رض) أشد الناس تمسكا بهدى رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ما حكى من أن بكاء عمر ترك فى خديه خطان أسودان . والدموع =

وهذا باب يطول تتبعه . قال البخارى فى صحيحه « باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر . وقال ابراهيم التيمى : ما عرضت قولى على عملى إلا خشيت أن أكون مكذبا . وقال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : انه على إيمان جبريل وميكائيل . ويذكر عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن وما أمنه الا منافق . وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة : « أنشدك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ ، يعنى فى المنافقين ؟ فيقول : لا . ولا أزكى بعدك أحداً »

فسمعت شيخنا يقول: ليس مراده انى لا أبرىء غيرك من النفاق، بل المراد انى لا أفتح على نفسى هذا الباب فكل من سألنى هل سماني لك رسول الله ﷺ فأزكيه

قلت : وقريب من هذا قول النبى ﷺ للذى سأله يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب « سبقك بها عُكّاشة » ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب . وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم . فكان الامساك أولى . والله أعلم

فصل

فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر دواء الداء الذى إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته

فمما ينبغى أن يعلم : أن الذنوب والمعاصى تضر ، ولا شك أن ضررها فى القلوب كضرر السموم فى الابدان ، على اختلاف درجاتها فى الضرر وهل

= لا يعقل أن تترك مثل هذا . وكذلك ماحكى عن ابن عباس . وقد يكون عذر ابن القيم فى ذلك أنها فى الترغيب فى الحرص على صالح العمل . ولكن من مثل هذا الباب دخل كثير من الشر والبدع الضالة فى العبادات والعقائد . فليت علماء السلف رضى الله عنهم أقفلوا هذا الباب ودققوا فى رواية مثل هذه الآثار ، كما كانوا يدققون فى أحاديث الصلاة والزكاة وغيرهما

فى الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصى؟ فما الذى أخرج الوالدين من الجنة ، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور ، إلى دار الآلام والاحزان والمصائب؟ وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره و باطنه فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها ، و باطنه أقبح من صورته وأشنع ، و بُدل بالقرب بعداً ، و بالرحمة لعنة ، و بالجمال قبحاً ، و بالجنة ناراً تلظى ، و بالايمان كفراً و بموالاة الولى الحميد أعظم عدواة ومشاقة . و بزجل [1] التسبيح والتقديس والتهليل زجر الكفر والشرك والكذب والزور والفحش . و بلباس الايمان لباس الكفر والفسوق والعصيان . فهان على الله غاية الهوان . وسقط من رحمته غاية السقوط . وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه . ومقته أكبر المقت فأرداه . فصار قوّادا لكل فاسق ومجرم . رضى لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة . فعياذاً بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك .

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال ؟ وما الذى سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم ، حتى صاروا عبرة للامم إلى يوم القيامة ؟ وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟ وما الذى رفع قرى اللوطية [2] حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها

---

(١) الزجل بفتحتين الصوت الحسن الجميل

(٢) شاع على الألسنة استعمال كلمة « اللوطية » فى الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء . وهذا الاستعمال خطأ . لأن « لوطى » نسبة إلى لوط لا إلى قوم لوط والله سبحانه إنما سماهم « قوم لوط » و « الذين يأتون الذكران من العالمين » و « الذين يأتون الفاحشة ماسبقهم بها من أحد من العالمين » . وهذا الخطأ نشأ من تقليد المتأخر للمتقدم بدون تفكير ولا وزن لما يقول ، وطالما أوقع هذا التقليد فى شر و فساد كبير . فينبغى التنبه والتفطن لكل ما تقول و تكتب و تعمل . لتسلم

سافلها ، فأهلكهم جميعاً ، ثم أتبعهم حجارة من سجِّيل السماء[١] أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ، ولإخوانهم أمثالها ، وما هى من الظالمين ببعيد ؟ وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل . فلما صار فوق رؤسهم أمطر عليهم ناراً تلظى؟ وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم . فالأجساد للغرق ، والأرواح للحرق ؟ وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟ وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرا ؟ وما الذى أهلك قوم صاحب يس بالصيحة ، حتى خمدوا عن آخرهم ؟ وما الذى بعث على بنى إسرائيل قوما أولى بأس شديد، فجاسوا خلال الديار[٢] وقتلوا الرجال ، وسبوا الذرارى والنساء ، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ماقدروا عليه وَتَبَّرُوا[٣] ماعلوا تتبيرا وما الذى سلط عليهم بأنواع العذاب والعقوبات، مرة بالقتل والسبى وخراب البلاد ومرة بجور الملوك ، ومرة بمسخهم قِرَدَة وخنازير ، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى (٧:١٦٧ ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب)

قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو حدثنى عبد الرحمن بن جُبير بن نُفير عن أبيه قال« لما فتحت قُبرص فُرِّق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض . فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكى ، فقلت : يا أبا الدرداء مايبكيك، فى يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله ؟ فقال : ويحك ياجبير ما أهون الخلق على الله عز وجل ؛ إذا أضاعوا أمره ، بينما هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ماترى »

---

(١) هى حجارة من طين طبخت بنار جهنم

(٢) أى تخللوها فطلبوا مافيها كما يجوس الرجل الأخبار أى يطلبها

(٣) تبره — بشد الباء وتخفيفها ، تبرا ، وتتبيراً ، أفسده وأهلكه

وقال على بن الجعد : حدثنا شعبة عن عمرو بن مُرَّة قال : قال سمعت أبا البخْتَرى يقول : أخبرنى من سمع النبى ﷺ يقول « لن يهلِكَ الناس حتى يُعْذِروا من أنفسهم (١) »

وفى مسند أحمد من حديث أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا ظهرت المعاصى فى أمتى عمَّهم الله بعذاب من عنده . فقلت : يارسول الله ، أما فيهم يومئذ أناس صالحون ؟ قال : بلى . قلت : كيف يصنع بأولئك ؟ قال : يصيبهم ماأصاب الناس (٢) ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضون »

وفى مراسيل الحسن عن النبى ﷺ « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفى كنفه (٣) مالم يمالىء قرَّاؤها أمراءها (٤) وما لم يُزكِّ صلحاؤها فجارها ، وما لم

---

(١) يقال : أعذر فلان من نفسه : إذا أمكن منها . يعنى أنهم لا يهلكون حتى تكثر ذنوبهم وتشتهر مخازيهم وعيوبهم ، فيستوجبون العقوبة . ويكون لمن يعذبهم عذر . كأنهم هم الذين قاموا بعذره . ويروى بفتح ياء المضارعة من عذرته ، أو هو بمعناه اهـ من النهاية (٢) ذلك لأنهم لم يأمروا بالمعروف ، ولم ينهوا عن المنكر . والله تعالى يقول (٨:٢٥ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهى المعصية التى ظهرت ولم تغير (٣) أى فى حوطه وصيانته (٤) أى ساعدوهم على الباطل فكانوا منفذين له أو تاركين لما أخذ عليهم من العهد والميثاق فى بيان الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ولقد كثر هذا الصنف فى زمننا هذا ، لا كثرهم الله . فاصبح أولئك المراءون يحلون للأمراء والرؤساء من الباطل ، فى العقائد والعبادات والشرائع والأحكام والآداب ، ما شاعت به الفاحشة . حتى اعتقدوا أن التحاكم إلى الطاغوت خير وأصلح لهم من الحكم بما أنزل الله . كل ذلك والقراء والعلماء يساعدون الرؤساء على هذا الباطل ويمهدون لهم من سبله شيئا كثيرا ، حتى ذهبت حرمة العلم والدين من القلوب ، وحقرت قيمة رجال العلم فى نظر الناس بما اوقعوا أنفسهم فيه من ذلك الجرم الفظيع . وأخذ الناس يسلقونهم بالسنة الهزء والسخرية . إلا من كان من العلماء المؤمنين المحسنين القائمين على الحق بالحق الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم . فما تزال طائفة من أهل الحق قائمة عليه تذكر الناس به وتدعوهم إليه . وما تزال حرمة أولئك مستقرة فى النفوس بتوقير الله لهم

يهن خيارها شرارها . فاذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ، ثم سلط عليهم جبابرتهم فيسومونهم سوء العذاب ، ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر »

وفى المسند من حديث ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »

وفيه أيضاً عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يوشك أن تداعَى عليكم الأمم [١] من كل أفق ، كما تداعى الأكلة على قصعتها . قلنا : يارسول الله، أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير . ولكنكم غُثاء [٢] كغثاء السيل . تنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل فى قلوبكم الوهَن . قالوا . وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهة الموت »

وفى المسند من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ « لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم . فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ فقال :هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، و يقعون فى أعراضهم»

وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « يخرج فى آخر الزمان قوم يَختِلون الدنيا بالدين [٣] ويلبسون للناس مُسوك الضأن [٤] من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب .يقول الله عز وجل: أبى تغترون ؟ أم على تجترئون ؟ فبي حلفت ، لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيرانا »

---

(١) أى تجتمع مسرعة ويدعو بعضها بعضا كما هو الحاصل اليوم للامم الاسلامية من أمم اليهود والنصارى والملحدين أعاذنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ومن مكر عدونا بنا

(٢) الغثاء : ما يحمله السيل في طريقه من القش والزبد والأشياء الضعيفة الحقيرة التى لا تقوى على التماسك أمام تيار السيل .

(٣) الختل : الخداع والأخذ خفية فى سرعة والمعنى يجعلون الدين حرفة وصناعة ، وسبيلا للدنيا وطريقاً إليها ، لا يقصدون به الآخرة (٤) جمع مسك — بفتح الميم وسكون السين — وهو الجلد

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال على « يأتى على الناس زمان لا يبقى من الاسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم يومئذ عامرة ، وهى خراب من الهدى . علماؤهم أشر مَنْ تحت أديم السماء . منهم خرجت الفتنة ، وفيهم تعود »

وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه « إذا ظهر الربا والزنا فى قرية أُذن الله عز وجل بهلاكها »

وفى مراسيل الحسن « إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل، وتحابوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب ، وتقاطعوا بالأرحام . لعنهم الله عز وجل عند ذلك ، فأصمهم وأعمى أبصارهم »

وفى سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب « كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال : يامعشر المهاجرين ، خمس خصال ، أعوذ بالله أن تدركوهن : ما ظهرت الفاحشة فى قوم ، حتى أعلنوا بها إلا ابتُلُوا بالطواعين والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا . ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشِدَّة المؤْنة وجوْر السلطان . وما منع قوم زكاة أموالهم إلا مُنعوا القَطْر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا . ولا خَفَرَ قوم العهد [1] إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم ، فأخذوا بعض مافى أيديهم . وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله فى كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم » .

وفى المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبى الجعد عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهى تعذيراً . فقال : ياهذا

---

(١) خفر العهد : نقضه . ونكث ما كان قد أبرمه

اتق الله. فاذا كان من الغدِ جالسه وواكله وشار به، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس. فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض؛ ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. والذى نفس محمد بيده، لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر ولتأخذُنَّ على يد السَّفيه ولتأطرُنه على الحق أطراً [1] أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم يلعنكم كما لعنهم»

وذكر ابن أبى الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعانى قال «أوحى الله إلى يُوشَع ابن نون: إنى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم، وستين ألفا من شرارهم. قال: يارب، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبى، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم»

وذكر أبو عمر ابن عبد البر عن أبى عمران قال «بعث الله عز وجل ملكين إلى قرية: أن دَمِّراها بمن فيها. فوجدا فيها رجلا قائما يصلى فى مسجد، فقالا: يارب، إن فيها عبدك فلانا يصلى، فقال الله عز وجل: دمراها ودَمِّراه معهم، فانه ماتمعَّر وجهه [2] فىَّ قط» وذكر الحميدى عن سفيان بن عُيينة قال: حدثنى سفيان بن سعيد عن مِسعر «أن ملكا أمر أن يخسف قرية. فقال يارب، إن فيها فلانا العابد. فأوحى الله إليه: إن به فابدأ. فانه لم يتمعَّر وجهه فىَّ ساعة قط».

وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه «لما أصاب داود الخطيئة قال: يارب اغفرلى. قال: قد غفرت لك، وألزمت عارها بنى اسرائيل، قال: يارب، كيف وأنت الحكم العدل لا تظلم أحدا. أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيرى؟ فأوحى

---

(١) أطره على الأمر: عطفه عليه وأماله إليه، وحبسه عليه بشدة وعنف

(٢) فى نسخة «لم يتمعر» والتمعر: التغير من شدة الغيظ والغضب، حتى يذهب مافى الوجه من إشراق وسرور

الله إليه : إنك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالإنكار [١] »

وذكر ابن أبى الدنيا عن أنس بن مالك « أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر، فقال لها الرجل : يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة [٢] فقالت : إذا استباحوا الزنا ، وشربوا الخمور وضربوا بالمعازف.غار الله عز وجل فى سمائه . فقال للأرض : تزلزلى بهم ؛ فان تابوا ونزعوا ، وإلا أهدمها عليهم . قال : يا أم المؤمنين ، أعذابا لهم؟ قالت : بلى موعظة ورحمة للمؤمنين . ونكالا وعذاباً وسخطاً على الكافرين . قال أنس : ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحا منى بهذا الحديث » .

وذكر ابن أبى الدنيا حديثاً مرسلا « أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله ﷺ فوضع يده عليها ، ثم قال : اسكنى ، فانه لم يَأْنِ لك بعدُ . ثم التفت إلى أصحابه ، فقال : إن ربكم ليستعتبكم فأعتبوه [٣] ثم تزلزلت على عهد عمر بن الخطاب فقال : أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا عن شىء أحدثتموه ،والذى نفسى بيده لَئِن عادت لاأساكنكم فيها أبداً »

وفى مناقب عمر لابن أبى الدنيا « أن الأرض تزلزلت على عهد عمر ، فضرب يده [٤] عليها . وقال : مالك ؟ مالك ؟ أما إنها لو كانت القيامة لحَدَّثت

---

(١) هذا من إسرائيليات وهب التى أفسد بها هو وكعب الأحبار كثيرا من العقول والعقائد . وما كانت خطيئة داود ذا الأيد الأواب عليه السلام : إلا أنه احتبس فى محرابه يتعبد لربه . ولم يكن وقته له . وإنما كان للرعية ، لأنه كان الملك الذى يتحاكم إليه المتخاصمون . وليس للخصام وقت ، بل فى كل وقت يحدث : ففتنه الله بقصة صاحبى النعاج . وأما قصة أوريا وزوجته فهى من إفك اليهود وقصدهم إلى تحقير أنبياء الله ورسله (٢) فى نسخة « كلام فى سبب الزلزلة »
(٣) أى يطلب منكم الرجوع عن الاساءة فارجعوا (٤) فى نسخة « بيده »

أخبارَها . سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق »

وذكر الامام أحمد عن صَفِيَّة قالت « زلزلت [1] المدينة على عهد عمر فقال: يا أيها الناس ، ما هذا ؟ ما أسرع ما أحدثتم . لئن عادت لاتجدونى فيها » وقال كعب « إنما زلزلة الأرض إذا عمل فيها بالمعاصى فترعد [2] فَرَقا من الرب عز وجل أن يطلع عليها »

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الامصار « أما بعد فان هذا الرَّجْف شيء يعاتب [3] الله عز وجل به العباد ، وقد كتبت إلى سائر الامصار أن يخرجوا فى يوم كذا . فمن كان عنده شيء فليتصدق به فان الله عز وجل قال(٨٧: ١٤ ، ١٥ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى) وقولوا كما قال آدم (٧ : ٢٣ ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين) وقولوا كما قال نوح (١١: ٤٧ وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين)وقولوا كما قال يونس (٢١: ٨٧ لا إله إلا أنت ، سبحانك إنى كنت من الظالمين)

وقال الامام أحمد : حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الاعمش عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عمر قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعِينة [4] واتَّبَعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد فى سبيل الله أنزل الله بهم بلاء ، فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » ورواه أبو داود باسناد حسن .

---

(١) فى نسخة « تزلزلت » (٢) فى نسخة « فزعة » (٣) فى نسخة « يعاقب »

(٤) العينة : أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى لايتكافأ مع الثمن ثم يشتريها بأقل من الثمن الأول حيلة لأخذ الربا. وهى من أعمال اليهود الذين كانوا يتخذون دينهم هزؤا ولعبا يحتالون على تحليل محارم الله والوقوع فى منهياته ويخادعون الله ويمكرون به ، كما ذكر الله فى قصة الذين اعتدوا فى السبت

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر قال « لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم . ولقد سمعت رسـول الله ﷺ يقول: إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم ، وتبـايعوا بالعينة ، وتركوا الجهاد فى سبيل الله ، وأخذوا أذناب البقر . أنزل الله عليهم من السماء بلاء . فلا يرفعـه عنهم حتى يراجعوا دينهم » .

وقال الحسن « إن العينة والله ما هى إلا عقوبة من الله عز وجل على الناس » .

ونظر بعض أنبياء بنى إسرائيل إلى ما يصنع بهم بُخْتُنَصَّر فقال « بما كسبت أيدينا سَلَّطْتَ علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا » .

وقال بختنصر لدانيال : ما الذى سلطنى على قومك ؟ قال « عظم خطيئتك وظلم قومى أنفسهم » .

وذكر ابن ابى الدنيـا من حديث عمار بن ياسر وحذيفـة عن النبى ﷺ قال « إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الاطفال وأعقم أرحام النساء ، فتنزل النقمة ، وليس فيهم مرحوم » وذكر عن مالك بن دينار قال : قرأت[1] فى الحكمة : يقول الله عز وجل « أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدى . فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، ولكن توبوا إلىَّ أعطفهم عليكم » وفى مراسيل الحسن « إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم إلى حلمائهم ، وفَيئهم عند سُمحائهم[2] وإذا أراد بقوم شراً جعل أمرهم إلى سفهائهم ، وفَيئهم عند بخلائهم » .

---

(١) نسخة رأيت (٢) أى ثروتهم وأموالهم عند السمحاء فلا يمسكونها ويمنعون حق الله فيها

وذكر الامام أحمد وغيره عن قتادة قال يونس « يارب ، أنت فى السماء ، ونحن فى الأرض ، فما علامة غضبك من رضاك ؟ قال : إذا استعملت عليكم خياركم فهو من علامة رضائى عليكم ، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو من علامة سخطى عليكم »

وذكر ابن أبى الدنيا عن الفضيل بن عياض قال « أوحى الله إلى بعض الأنبياء إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى » وذكر أيضاً من حديث ابن عمر يرفعه « والذى نفسى بيده ، لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ، ووزراء فجرة ، وأعوانا خونة ، وعرفاء [1] ظلمة، وقراء فسقة ، سيماهم سيما الرهبان ، وقلوبهم أنتن من الجيف ، أهواؤهم مختلفة ؛ فيتيح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهوكون فيها [2] والذى نفس محمد بيده لينقضن الإسلام عروة عروة ، حتى لا يقال الله الله . لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم . لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم »

وفى معجم الطبرانى وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « ما طفف [3] قوم كيلا ، ولا بخسوا ميزانا إلا منعهم الله

---

(١) العرفاء : جمع عريف وهو القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس يلى أمورهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم (٢) أى يقعون فيها من غير مبالاة (٣) العروة من الحبل : ما يستمسك به . يشبه شرائع الاسلام بالعرى ، لضمان من استمسك بها السلامة والنجاة مادام مستمسكا بها على بينة ونور . وعن عمر رضى الله عنه قال « إنما تنقض عرى الاسلام عروة عروة إذا نشأ فى الاسلام من لا يعرف الجاهلية » يعنى فيخدعه شياطين الجن والأنس ويزينون له الوثنية والعبادات والأخلاق والعادات الجاهلية باسم الاسلام ، لأنها موروثة عن الآباء والشيوخ ورضيها السواد الأعظم ، كما هو شأن جمهرة المسلمين اليوم ولا حول ولا قوة إلا بالله

عز وجل القَطْرَ [1] وما ظهر فى قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت ، وما ظهر فى قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون ، ولا ظهر فى قوم القتل ، يقتل بعضهم بعضا . إلا سلط الله عليهم عدوهم . ولا ظهر فى قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف . وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم » ورواه ابن أبى الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه سعيد به .

وفى المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت « دخل علىّ رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس [2] فعرفت فى وجهه أن قد حفزه شىء . فما تكلم حتى توضأ ، وخرج ، فلصقت بالحجرة . فصعد المنبر . فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال: يا أيها الناس . اتقوا ربكم . إن الله عز وجل يقول لكم : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعونى فلا أجيبكم . وتستنصرونى فلا أنصركم . وتسألونى فلا أعطيكم »

وقال العمرى الزاهد : إن من غفلتك عن نفسك ، وإعراضك عن الله : أن ترى مايسخط الله فتتجاوزه ، ولا تأمر فيه ولا تنهى عنه ، خوفا ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا

وقال : من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مخافة المخلوقين نزعت منه الطاعة ، ولو أمر ولدَه أو بعضَ مواليه لاستُخفَّ بحقه .

وذكر الامام أحمد فى مسنده من حديث قيس بن أبى حازم قال : قال أبو بكر الصديق « يا أيها الناس ، إنكم تتلون هذه الآية ، وإنكم تضعونها على غير مواضعها [ولا تدرون ماهى] [3] (٥:١٠٥ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضلَّ إذا اهتديتم) وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا

---

(١) القطر ـ بفتح القاف وسكون الطاء ـ المطر (٢) الحفز : الحث والاستعجال
(٣) زيادة من تفسير ابن كثير

الظالم . فلم يأخذوا على يده ـ وفى لفظ : إذا رأوا المنكر فلم يغيرُوه ـ أوشك الله أن يعُمَّهم الله بعقاب من عنده [١] »

وذكر الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أخفيت الخطيئة فلا تضر إلا صاحبها و إذا ظهرت فلم تغير تضر العامة »

وذكر الامام أحمد عن عمر بن الخطاب « توشك القرى أن تخرب ، وهى عامرة ؟ قال : إذا علا فجارها على أبرارها ، وساد القبيلة منافوها »

وذكر الأوزاعى عن حسّان بن عطيـة أن النبى ﷺ قال « سيظهر شرار أمتى على خيارها ، حتى يستخفى المؤمن فيهم ، كما يستخفى المنافق فينا اليوم »

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال « يأتى زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح فى الماء ، قيل : بم ذاك يارسول الله ؟ قال : بما يرى من المنكر لايستطيع تغييره »

وذكر الامام أحمد من حديث جرير أن النبى ﷺ قال « ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصى ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، فلم يغيروه ، إلاعمهم الله بعقاب »

وفى صحيـح البخارى عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتندلق أقتابه فى النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع عليه أهل النار ، فيقولون : أىْ فلانُ ، ما شأنك ؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيـه . وأنهاكم عن المنكر وآتيه »

وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال « كان حَبر من أحبار بنى إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء ، فيعظهم ويُذكّرهم بأيام الله ، فرأى بعض بنيه يوماً يغمز النساء ، فقال : مَهلاً يابنى ، مهلا يابنى . فسقط من سريره ، فانقطع نُخاعه . وأسقطت امرأته ، وقتل بنوه . فأوحى الله إلى نبيهم : أن أخـبر فلاناً الحبر : أنى

لأخرج من صلبك صدِّيقاً أبداً . ما كان غضبك لى إلا أن قلت : مهلا يابنى ، مهلا يابنى ؟ »

وذكر الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « إياكم ومُحقَّرات الذنوب ، فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ؛ وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلا . كمثل القوم نزلوا أرض فَلاة ، فحضر صَنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالبَعرَة ، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً ، وأنضجوا ماقذفوا فيها »

وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال « إنكم لتعملون أعمالا هى أدقّ فى أعينكم من الشعر ، وإن كنا لنعدها على زمن رسول الله ﷺ من الموبقات »

وفى الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال « عُذِّبت امرأة فى هرَّة ، سجنتها حتى ماتت ، فدخلت النار ، لا هى أطعمتها ، ولاسقتها ولاهى تركتها تأكل من خشاش الأرض (١) »

وفى الحلية لأبى نعيم عن حُذيفةُ أنه قيل له : فى يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشىء تركوه ، وإذا نهوا عن شىء فعلوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه »

ومن ههنا قال بعض السلف : المعاصى بريد الكفر، كما أن القُبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا ، والنظر بريد العشق ، والمرض بريد الموت

وفى الحلية أيضاً عن ابن عباس أنه قال « ياصاحب الذنب لا تأمن فتنة الذنب وسوء عاقبة الذنب، ولَتتبُّعُك الذنب أعظم من الذنب إذا عملته، وقلَّةُ حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال، وأنت على الذنب أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لم تدر ما الله صانع بك أعظم من الذنب. وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم ، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب . ويحك

(١) خشاش الأرض : هوامها وحشراتها

هل تدرى ماكان ذنب أيوب عليه السلام فابتلاه الله بالبلاء فى جسده وذهاب ماله؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه، فلم يغثه ولم ينه الظالم عن ظلمه فابتلاه الله»

وقال الامام أحمد: حدثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعى يقول: سمعت هلال بن سعد يقول «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت. وقال الفضيل بن عياض: بقدر مايصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر مايعظم عندك يصغر عند الله. وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى، يا موسى إن أول من مات من خلقى إبليس، وذلك لأنه أول من عصانى، وإنما أعدُّ من عصانى من الأموات

وفى المسند وجامع الترمذى من حديث أبى صالح عن أبى هريرة قال. قال رسول الله ﷺ «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت فى قلبه نكتة سوداء (١) فاذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه. وإن زاد زادت، حتى تعلو قلبه. فذلك الران الذى ذكره الله عز وجل (٨٣: ١٤ كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون)» قال الترمذى هذا حديث صحيح

وقال حذيفة «إذا أذنب العبد ذنباً نكت فى قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرَّمداء» (٢)

وقال الامام أحمد: حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن صالح عن ابن شهاب حدثنى عبدالله بن عبيد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «أما بعد يامعشر قريش، فانكم أهل لهذا الأمر مالم تعصوا الله، فاذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحَي (٣) هذا القضيب، والقضيب فى يده، ثم لحى قضيبه فاذا هو أبيض يَصْلِد»

وذكر الامام أحمد عن وهب قال: إن الرب عز وجل قال فى بعض ما يقول لبنى إسرائيل «إنى إذا أُطعت رضيت، وإذا رضيت باركت وليس لبركتى نهاية، وإذا عصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتى تبلغ السابع من الولد»

---

(١) النكتة: الأثر يكون بعد الحرق، أو من المجل، أو من النخس بابرة أو نحوها من كل محدد (٢) أى غبراء فيها كدورة كلون الرماد (٣) لحوت العود: أزلت لحاءه. وهو قشرته

وذكر أيضا عن وكيع حدثنا زكريا عن عامر قال : كتبت عائشة إلى معاوية « أما بعد فان العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًا »

وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبى الجَعْد عن أبى الدرداء قال « ليَحذر امرُؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لايشعر . ثم قال : أتدرى مم هذا ؟ قلت : لا قال : إن العبد يخلو بمعاصى الله ، فيُلقى الله بغضبه فى قلوب المؤمنين من حيث لايشعر »

وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين : أنه لما ركبه الدين اغتم لذلك . فقال : إنى لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة

وهاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس فى أمر الذنب . وهى أنهم لايرون تأثيره فى الحال . وقد يتأخر تأثيره فينسى . ويظن العبد أنه لايغير بعد ذلك . وأن الأمر كما قال القائل :

إذا لم يغبر حائط فى وقوعه   فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله ! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق ؟ وكم أزالت من نعمة ؟ وكم جلبت من نقمة ؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء . فضلا عن الجهال . ولم يعلم المغترُّ أن الذنب يَنقضُ . ولو بعد حين . كما ينقض السهم وكما ينقض الُجرح المنـدَمِل على الغِشِّ والدَّغَل (١) وقد ذكر الإمام أحمد عن أبى الدرداء « اعبدوا الله كأنكم ترونه . وعدوا أنفسكم فى الموتى . واعلموا أن قليلا يكفيكم خير من كثير يُلهيكم . واعلموا أن البرَّ لايبلىَ . وأن الإثم لا يُنسى »

ونظر بعض العُبَّاد إلى صبى . فتأمل محاسنه . فأُتى فى منامه وقيل له : لتجدن غِبها بعد أربعين سنة .

هذا مع أن الذنب نقداً معجلا لايتأخر عنه . قال سليمان التيمى : إن الرجل ليصيب الذنب فى السرِّ فيصبح وعليه مَذَلَّته .

وقال يحيى بن مُعـاذ الرازى : عجبت من ذى عقل يقول فى دعائه : اللهم لا تُشمت بى الأعداء . ثم هو يشمت بنفسه كل عدوله . قيل : وكيف ذلك ؟

---

(١) أى الفساد المختفى . وأصل الدغل الشجر الملتف الذى يكمن فيه أهل الفساد

قال : يعصى الله فيشمت به فى القيامة . قال ذو النون : من خان الله فى السر هتك الله ستره فى العلانية

فصل

وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة . المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله

فمنها : حرمان العلم ، فان العلم نور يقذفه الله فى القلب . والمعصية تطفىء ذلك النور . ولما جلس الإمام الشافعى بين يدى مالك . وقرأ عليه . أعجبه مارأى من وُفور فطنته . وتوقُّد ذكائه . وكمال فهمه . فقال : إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً . فلا تطفئه بظلمة المعصية . وقال الشافعى :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وقال : اعلم بأن العلم فضل ... وفضل الله لايؤتاه عاصى (1)

ومنها: حرمان الرزق . وفى المسند «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقد تقدم . كما أن تقوى الله مجلبة للرزق . فترك التقوى مَجْلَبة للفقر . فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصى .

ومنها: وحشة يجدها العاصى فى قلبه بينه وبين الله لايوازنها ولا يقارنها لذة أصلا . ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة . وهذا أمر لايحس به إلا من فى قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ، فلولم يكن ترك الذنوب إلا حزراً من وقوع تلك الوحشة ، لكان العاقل حَرِيًّا بتركها . وشكى رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها فى نفسه فقال له : إذا كنت قد أوحشتك الذنوب ، فدعها إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب . فالله المستعان

ومنها الوحشة التى تحصل بينه وبين الناس ، ولا سيما أهل الخير منهم ، فانه يجد وحشة

---

(1) وفى رواية :

... بأن العلم نور ... ونور الله لايهدى لعاصى

بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم، وحرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه وبينه وبين نفسه ، فتراه مستوحشاً من نفسه. وقال بعض السلف : إنى لأعصى الله فأرى ذلك فى خُلق دابتى وامرأتى

ومنها تعسير أموره فلا يتوجه لأمر إلا ويجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه ، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يُسْراً فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسراً ويالله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى ؟

ومنها: ظلمة يجدها فى قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلَهَمّ ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فان الطاعة نور ، والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتى يقع فى البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج فى ظلمة الليل يمشى وحده . وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه ، وتصير سواداً فى الوجه ، حتى يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس «إن للحسنة ضياء فى الوجه ونوراً فى القلب ، وسعة فى الرزق ، وقوة فى البدن، ومحبة فى قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً فى الوجه، وظلمة فى القبر والقلب، ووَهَناً فى البدن ، ونقصا فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق »

ومنها: أن المعاصى توهن القلب والبدن . أما وَهَنها للقلب: فأمر ظاهر، بل لا تزال تُوهِنه حتى تزيل حياته بالكلية

وأما وهنها للبدن : فان المؤمن قوَّته من قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه . وأما الفاجر فانه ـ وإن كان قوى البدن ـ فهو أضعف شىء عند الحاجة ، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه . فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم ؟

ومنها: حرمان الطاعة ، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أنه يصد عن طاعة تكون بدله، ويقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه طريق ثالثة ، ثم رابعة وهلم جرا، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة ، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل

أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها. والله المستعان

ومنها: أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولابد، فإن البر كما يزيد في العمر فالفجور ينقصه. وقد اختلف الناس في هذا الموضع

فقالت طائفة: نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه. وهذا حق، وهو بعض تأثير المعاصي.

وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة، كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيده، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده

قالوا: ولا تمنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق والآجال، والسعادة والشقاوة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء الله عز وجل فهو يقضي مايشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة وهي حياة القلب، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتا غير حي، كما قال تعالى (أموات غير أحياء[1]) فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الانسان مدة حياته فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواه

وبالجملة إذا أعرض العبد عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غِبَّ إضاعتها يوم يقول (٨٩ : ٢٤ ياليتني قدّمت لحياتي) فلا يخلو، إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا. فإن لم يكن له تطلع

(١) الآية وصف لأوليائهم الذين يدعونهم من دون الله. وكان الأولى الاستدلال بقوله تعالى (٨ : ٢٤ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) أو بقوله في شأن المقلدين الكافرين بالله وآياته وسننه وكتابه (٢٧ : ٨٠ إنك لا تسمع الموتى، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين - إلى قوله لرسوله - إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)

إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله ، وذهبت حياته باطلا . وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق ، وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها ، وذلك نقصان حقيق من عمره .

وسر المسألة : أن عمر الانسان مدة حياته، ولا حياة له إلا باقباله على ربه والتنعم بحبه وذكره ، وإيثار مرضاته

فصل

ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضا، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها ، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة: السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة: الحسنة بعدها ، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها : اعملني أيضاً ، فاذا عملها قالت الثانية كذلك، وهلم جرا ، فيتضاعف الربح ، وتتزايد الحسنات، وكذلك كانت السيئات أيضاً، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة، وملكات ثابتة. فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأحسَّ من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها ، فتسكن نفسه وتقر عينه. ولو عطل المجرم المعصية ، وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره وأعيت عليه مذاهبه ، حتى يعاودها ، حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها ، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ (١) حيث يقول:

وكأس شربت على لذة * وأخرى تداويت منها بها

وقال الآخر:

وكانت دوائي ، وهي دائي بعينه * كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه

---

(١) هو أبو نواس الشاعر المشهور بمجونه وخمرياته واستهتاره

وتعالى برحمته عليه الملائكة تَؤُزُّه إليها أزًّا (١) وتحرضه عليها ، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها ، ولا يزال يألف المعاصى ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله إليه الشياطين فتؤزه إليها أزًّا . فالأول قوّى جند الطاعة بالمدد ، فكانوا من أعوانه . والآخر قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه

فصل

ومنها : — وهو من أخوفها على العبد — أنها تضعف القلب عن إرادته ، فتقوى فيه إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً ، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية . فلو مات نصفه لما تاب إلى الله ، فيأتى بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشىء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية مصر عليها ، عازم على مواقعتها متى أمكنته . وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك

فصل

ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة ، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه. وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدث بها من لم يكن يعلم أنه عملها. فيقول: يا فلان عملت كذا وكذا. وهذا الضرب من الناس لا يُعافَون، وتسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها فى الغالب. كما قال النبى ﷺ «كل أمتى معافى إلا المجاهرون، وإن من الإجهار : أن يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ، ويقول : يا فلان عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيهتك نفسه ، وقد بات يستره ربه »

— ومنها : أن كل معصية من المعاصى فهى ميراث عن أمة من الأمم التى أهلكها الله عز وجل . فاللوطية (٢) ميراث عن قوم لوط . وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص

---

(١) أزه إلى الأمر : دفعه إليه وحمله عليه ، وحركه وأزعجه

(٢) الأولى أن يقول : فعل قوم لوط .

ميراث عن قوم شعب . والعلو فى الأرض بالفساد: ميراث عن فرعون وقوم فرعون والتكبر والتجبر : ميراث عن قوم هود فالعاصى لابس ثياب بعض هذه الأمم، وهم أعداء الله

وقد روى عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك: لاتدخلوا مداخل أعدائى ولاتلبسوا ملابس أعدائى ولا تركبوا مراكب أعدائى ولاتطعموا مطاعم أعدائي فتكونوا أعدائى كما هم أعدائى »

وفى مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ قال « بعثت بالسيف بين يدى الساعة ، حتى يعبد الله وحده لاشريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى . ومن تشبه بقوم فهو منهم »

فصل

ومنها : أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه · قال الحسن البصرى : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزوا عليه لعصمهم · وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد ، كما قال الله تعالى (٢٢ : ١٨ ومن يهن الله فماله من مكرم) وإن عظمهم الناس فى الظاهر لحاجتهم إليهم، أوخوفا من شرهم، فهم فى قلوبهم أحقر شيء وأهونه

ومنها : أن العبد لايزال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه وتصغر فى قلبه. وذلك علامة الهلاك · فان الذنب كلما صغر فى عين العبد عظم عند الله . وقد ذكر البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود قال« ان المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار»

فصل

ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه ،فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم . قال أبو هريرة : إن الحبارى [1] لتموت فى وكرها من ظلم

(١) طير صغير معروف

الظالم . وقال مجاهد : إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السنة، وأمسك المطر. وتقول : هذا بشؤم معصية ابن آدم . وقال عكرمة : دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون : منعنا القطر بذنوب بنى آدم

فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له

فصل

ومنها : أن المعصية تورث الذل ولابد ، فان العز كل العز فى طاعة الله تعالى قال تعالى (٣٥ : ١٠ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) أى فليطلبها بطاعة الله فانه لايجدها إلا فى طاعة الله . وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزنى بطاعتك ، ولا تذلنى بمعصيتك . وقال الحسن البصرى : إنهم إن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين[1] فإن ذلّ المعصية لايفارق قلوبهم . أبى الله إلا أن يُذل من عصاه

وقال عبد الله بن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلو ب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلو ب ، وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملو كُ وأحبار سوء ورهبانها ؟

فصل

ومنها : أن المعاصى تفسد العقل . فإن للعقل نوراً والمعصية تطفىء نور العقل ولا بد ، وإذا طفىء نوره ضعف ونقص . وقال بعض السلف : ماعصى

(١) الطقطقة : حكاية صوت وقع حوافر البغال ، والهملجة سير سريع خاص بمثله البراذين فاذا مشت أسرعت فى تبختر ، يريد أنهم وإن اختالوا وعلوا فى عيون الناس بركوب المراكب الفارهة ، وظهروا بالبزة الحسنة ، وتعاظموا فى أعين الدهماء والعامة بوجاهة الدنيا ورياساتها ، فذل المعصية لازم لهم لا يفارقهم .

الله أحد حتى يغيب عقله ، وهذا ظاهر . فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى ، وتحت قَهْره ، وهو مطلع عليه ، وفى داره على بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه ؟ وواعظ القرآن ينهاه ، وواعظ الإيمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعافَ أضعافِ مايحصل له من السرور واللذة بها . فهل يُقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟؟

فصل

ومنها : أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها ، فكان من الغافلين كما قال بعض السلف فى قوله تعالى (٨٣ : ١٤ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) قال : هو الذنب بعد الذنب . وقال الحسن : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب . وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم .

وأصل هذا : أن القلب يَصْدَأ ، من المعصية فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رَاناً . ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختما ، فيصير القلب فى غشاوة وغلاف فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتُكِس فصار أعلاه أسفله ، فحينئذ يتولاه عدوه و يسوقه حيث أراد .

فصل

ومنها : أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ ، فانه لعن على معاصى وغيرها أكبر منها ، فهى أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة ، فلعن الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والموصولة ، والنامصة والمتنمصة ، والواشرة والمستوشرة[1]

---

(١) الواصلة : التى تصل الشعر والموصولة المعمول بها ذلك . والنامصة : التى تحسن وجه المرأة بنتف شعرها . ويدخل تحته مايفعله النساء اليوم من الصبغات والألوان على وجوههن بل ذلك أشد تبرجا والواشرة : التى تحدد أسنانها ، وتدقق أطرافها للتبرج ، والمستوشرة : المعمول بها ذلك . وإنما تفعل المرأة الكبيرة ذلك تشبها بالفتيات

ولعن آكل الربا ومؤكله، وكاتبه وشاهده، ولعن المحلِّل والمحلل له[١] ولعن السارق ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها، وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه. ولعن من غيَّر منار الأرض[٢] وهى أعلامها وحدودها. ولعن من لعن والديه، ولعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غَرضاً يرميه بسهم[٣]، ولعن المخنثين من الرجال والمترجِّلات من النساء، ولعن من ذبح لغير الله[٤]، ولعن من أحدث حدَثاً أو آوى مُحْدِثاً، ولعن المصورين، ولعن من عمل عمل قوم لوط. ولعن من سب أباه وأمه. ولعن من كَمَهَ[٥] أعمى عن الطريق. ولعن من أتى بهيمة. ولعن من وَسَم دابة فى وجهها[٦] ولعن ضار مسلما أو مكر به. ولعن زَوَّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج[٧] ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده. ولعن من أتى امرأة فى دبرها. وأخبر أن من باتت

---

(١) هو ما يفعله بعض مجرمي المنتسبين إلى العلم إذ يقومون بعقد صورى، لتحليل المطلقة طلاقا بائنا. وهو عقد نكاح فاسد كما حقق ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتاب إقامة الدليل على إبطال التحليل من حوالى ثلاثين وجها، وهو كتاب جليل جدا (٢) المنار: جمع منارة، وهى العلامة تجعل بين حدين وتفصل بين ملكين (٣) وذلك كما يفعله بعض الناس فى مسابقتهم برمى الحمام (٤) كمن يذبح لولى أو ميت وهى عادة الجاهلية يفعلها كثير من مدعى الاسلام، ويسمونها قربات وما هى إلا قربات إلى الشياطين وما يذبحه أهل مصر وغيرهم لما يسمونه بالزار (٥) من الكمه - بفتح الكاف والميم - وهو تعمية الطريق عليه واضلاله (٦) من السمة، وهى العلامة أى يكويها بالنار لتعرف (٧) السرج: جمع سراج وهو المصباح، وقد جرت عادة أهل الشرك والضلال أن يوقدوا السرج على قبور معظميهم ومقدسيهم وأوليائهم، تعظيما لهم، وهو نوع من العبادة لهم ولذلك ينفقون عليها الأموال الكثيرة، ويوقفون لها الوقوف. وقد عم ذلك وشاع. وتعرض الناس به للعنة الله وطردهم من رحمته، فأصبح أمرهم كله فرطا، ولقاهم الله الغى فى كل شأنهم

مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح . ولعن من انتسب إلى غير أبيه . وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه . ولعن من سب الصحابة .

وقد لعن الله فى كتابه من أفسد فى الأرض وقطع رحمه ، وآذى الله وآذى رسوله ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى . ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة . ولعن من جعل سبيل الكافر أهدى من سبيل المسلم .

ولعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لِبْسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل ولعن الراشى والمرتشى والرائش . وهو الواسطة فى الرشوة . ولعن على أشياء أُخَر غير هذه .فلو لم يكن فى فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان فى ذلك ما يدعو إلى تركه

فصل

ومنها : حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة . فان الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات (١٥٩:٣ و ٦٢:٢٤ و ١٢:٦٠) . وقال تعالى (٧:٤ ـ ٩ الذين يحملون العرش ومَنْ حوله يسبحون بحمد ربهم و يؤمنون به . و يستغفرون للذين آمنوا . ربنا وَسِعتَ كلَّ شىء رحمةً وعلماً . فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك . وقِهِمْ عذاب الجحيم . ربنا وأُدخلهم جناتِ عَدْنٍ التى وعدتهم ومَنْ صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . إنك أنت العزيز الحكيم. وقِهِمُ السيآت) فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله . الذين لا سبيل لهم غيرهما . فلا يطمع غير هؤلاء باجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو لهم بها

فصل

ومن عقوبات المعاصى : ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث سمُرة بن جُندَب قال « كان النبى ﷺ مما يُكثر أن يقول لأصحابه : هل رأى أحدُ

منكم البارحة رؤيا ؟ فيقصُّ عليه ما شاء الله أن يَقُصَّ . وأنه قال لنا ذاتَ غَداة : إنه أتانى الليلة آتيان . وإنهما ابعثا لى ، وإنهما قالا لى : انطلق . وإنى انطلقت معهما . وإنا أتينا على رجل مضطجع . وإذا آخر قائم عليه بصخرة . وإذا هو يَهْوِى بالصخرة لرأسه . فيَثْلَغ رأسه (١) فيَتَدَهْدَهُ (٢) الحجر ها هنا وها هنا ، فيتبع الحجر ، فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل به مثل ما فعل فى المرة الأولى . قال : قلت لهما : سبحان الله ! ما هذان ؟ قالا لى : انطلق ، انطلق : فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكَلُّوب من حديد ، وإذا هو يأتى أحَدَ شِقَّىْ وجهه فيُشَرْشِر شِدْقَه (٣) إلى قفاه ، ومِنْخَره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، ثم يتحول إلى الجانب الآخر ، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، فما يفرُغ من ذلك الجانب حتى يَصِحَّ ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى . قال قلت : سبحان الله ! ما هذان ؟ فقالا لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على مثل التَّنُّور ، وإذا فيه لغط وأصوات ، قال : فاطَّلعنا فيه . فاذا فيه رجال ونساء عُراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فاذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوا (٤) قال قلت : من هؤلاء ؟ قال فقالا لى : انطلق انطلق . قال : فانطلقنا ، فأتينا على نهر أحمر مثل الدم ، فاذا فى النهر رجلٌ سابح يسبح ، وإذا على شَطِّ النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتي ذلك الذى جمع عنده الحجارة فيفغَرَ له فاه (٥) فيُلْقِمه حجراً ، فينطلق فيسبح ، ثم يرجع إليه كلما رجع اليه ، ففغر له فاه ، فيلقمه حجراً . قال : قلت لهما : ماهذان ؟ قالا لى : انطلق انطلق . فانطلقنا . فأتينا على رجل كريه المرْآة (٦) كأكره ما أنت راءٍ رجلا ، وإذا هو عنده

---

(١) الثلغ : الشدخ . وقيل : هو ضربك الشيء الرطب باليابس حتى ينشدخ
(٢) يتدهده : أى يتدحرج (٣) أى يشققه ويقطعه (٤) أى ضجوا واستغاثوا (٥) أى يفتحه كثيراً (٦) كريه المرآة أى قبيح المنظر

نار يَحُشُّها [١] ويسعى حولها. قال قلت لهما: ماهذا: قال قالا لى: انطلق انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على رَوْضة مُعْتَمَّة [٢]، فيها من كل نَوْر الربيع [٣]، وإذا بين ظَهْرانى الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء، وإذا حول الرجل من أكثر وِلْدان رأيتهم قط، قال قلت: ماهذا؟ وما هؤلاء؟ قال قالا لى: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا إلى دَوْحة عظيمة [٤] لم أر دَوْحة قط أعظم منها ولا أحسن. قال قالا لى: ارْقَ فيها، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بِلَبِن ذهب ولَبِن فضة. قال: فأتينا باب المدينة، فاستفتحنا، ففتح لنا. فدخلناها، فتلقانا رجال، شَطْرٌ من خَلْقهم كأحسن ماأنت راء، وشَطْر منهم كأقبح ماأنت راء. قال قالا لهم: اذهبوا فقَعُوا فى ذلك النهر. قال: وإذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المَحْضُ [٥] فى البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا. وقد ذهب ذلك السُّوء عنهم. قال قالا لى: هذه جَنَّة عَدْن. وهاذاك منزلك، قال: فسما بصرى صُعُداً، فإذا قصرٌ مثل الرَّبابة البيضاء [٦] قال قالا لى: هذاك منزلك قال قلت لهما: بارك الله فيكما، فذرانى فأدخله. قالا: أما الآن فلا. وأنت داخله، قال قلت لهما: فإنى رأيت منذ الليلة عجباً. فما هذا الذى رأيت؟ قال قالا لى: أما إنا سنخبرك. أما الرجل الأول الذى أتيتَ عليه يُثْلَغُ رأسه بالحجر، فانه الرجل يأخذ القرآن، فيَرْفُضه، وينام عن الصلاة المكتوبة وأما الرجل الذى أتيت عليه يُشَرْشَرُ شِدقه إلى قفاه، ومَنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه. فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكِذْبة تبلغ الآفاق. وأما

---

(١) أى يوقدها ويلهبها (٢) الروضة هى الأرض الخصبة التى أخذت حظها وافياً من الماء، فكان إغراسها أطيب من غيرها. والمعتمة — بتشديد الميم الثانية — أى وافية النبات طويلته (٣) نور الربيع — بفتح النون — زهره (٤) الدوحة الشجرة العظيمة (٥) المحض الخالص من كل شىء والمراد به هنا اللبن (٦) الربابة السحابة: التى ركب بعضها بعضاً

الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور ، فانهم الزناة والزوانى . وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويُلقَم الحجارة . فانه آكل الربا . وأما الرجل الكريه المنظر الذى عند النار يَحُشُّها ويسعى حولها فانه مالك خازن جهنم وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فانه إبراهيم . وأما الولدان الذين حوله ، فكل مولود مات على الفِطرَة ـ وفى رواية البرقانى : ولد على الفطرة ـ فقال بعض المسلمين : يارسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ : وأولاد المشركين وأما القوم الذين كانوا شَطر منهم حسن وشَطر منهم قبيح . فانهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم »

فصل

ومن آثار الذنوب والمعاصى : أنها تحدث فى الارض أنواعا من الفساد فى المياه والهواء والزرع والثمار ، والمساكن . قال تعالى (٣٠ : ٤١ ظهر الفساد فى البرِّ والبحر بما كسبت أيدِى الناس ، ليُذِيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) قال مجاهد : إذا ولى الظالم سعى بالظلم والفساد ، فيحبس بذلك القطر ، فيهلك الحرث والنسل . والله لايحب الفساد ، ثم قرأ (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) ثم قال : أما والله ماهو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر . وقال عكرمة : ظهر الفساد فى البر والبحر ، أما إنى لاأقول لكم : بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء . وقال قتادة : أما البر فأهل العمود . وأما البحر فأهل القرى والريف (١)

قلت : وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحرا فقال (٣٥ : ١٢ وما يستوى البحران ، هذا عذبٌ فُرات سائغ شرابه وهذا ملح أُجاج) وليس فى العالم بحر حلو واقفاً . وإنما هى الأنهار الجارية ، والبحر المالح هو الساكن ، فتسمى القرى

(١) أى أهل الخيام التى يرفعونها على العمود

التى على المياه الجارية باسم تلك المياه . وقال ابن زيد (ظهر الفساد فى البر والبحر) قال : الذنوب .

قلت : أراد أن الذنب سبب الفساد الذى ظهر ، وإن أراد أن الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام فى قوله (ليذيقهم بعض الذى عملوا) لام العاقبة والتعليل . وعلى الأول : فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصى العباد ، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة ، كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة .

والظاهر — والله أعلم — أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها . ويدل عليه قوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) فهذا حالنا . وإنما أذاقنا الشىء اليسير من أعمالنا . فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

ومن تأثير معاصى الله فى الأرض: مايحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن لا يُعلَف العجين الذى عجن بمياههم لنواضح الإبل [1] لتأثير شؤم المعصية فى الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار وماترى به من الآفات . وقد ذكر الامام أحمد فى مسنده فى ضمن حديث قال « وجدت فى خزائن بعض بنى أمية حنطة، الحبة بقدر نواة التمرة ، وهى فى صُرَّة ، مكتوب عليها : كان هذا ينبت فى زمن العدل » وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب. وأخبرنى جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هى الآن [2] . وكثير من هذه الآفات التى تصيبها لم يكونوا يعرفونها ، وإنما حدثت من قرب .

---

(١) النواضح هى الابل التى يستقى عليها(٢)هذه مبالغة . ولو كان كذلك لما أنبت الله حبة فى أوربا ولا أمريكا وروسيا وغيرها من البلاد التى أهلها أكفر خلق الله . ولكن الله يؤتيهم ثواب الدنيا التى يعملون لها ويسعون إليها سعيها . وما لهم فى الآخرة من نصيب

وأما تأثير الذنوب فى الصور والخلق . فقد روى الترمذى فى جامعه عن النبى ﷺ أنه قال « خلق الله آدم وطوله فى السماء ستون ذراعا ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن » فاذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظَلَمة والخَوَنة والفَجَرة يخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه ﷺ فيملأ الأرض قِسْطاً كما ملئت جوراً ، ويقتل المسيح اليهود والنصارى ، ويقيم الدين الذى بعث الله به رسوله ، وتخرج الأرض بركاتها، وتعود كما كانت، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمَّانة ويستظلون بقَحْفها ويكون العنقود من العنب وَقْرَ بعير [1] ولبن اللَّقْحة الواحدة يكفى الفئام من الناس [2] وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصى ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التى محقتها الذنوب والكفر . ولا ريب أن العقوبات التى أنزلها الله فى الأرض بقية آثارها سارية فى الأرض ، تطلب من الذنوب التى هى آثار تلك الجرائم التى عذبت بها الأمم ، فهذه الآثار فى الأرض من آثار العقوبات ، كما أن هذه المعاصى من آثار الجرائم . فتناسبت كلمة الله وحكمه الكونى أولا وآخراً ، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية . والأخف للأخف ، وهكذا يحكم ربنا سبحانه بين خلقه فى دار الدنيا ودار البرزخ ودار الجزاء .

وتأمل مقارنه الشيطان ومحله وداره . فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره ، وعمله ، وقوله ورزقه ، ولما أثرت طاعته فى الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته . وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شىء من الروح والرحمة والبركة

فصل

ومن عقوباتها : أنها تطفىء من القلب نار الغيرة التى هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن . فان الغيرة حرارته وناره التى تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة ، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد. وأشرف الناس

(١) أى حمل بعير (٢) الجماعة الكثيرة

وأعلاهم قدراً وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس. ولهذا كان النبي ﷺ أغير الخلق على الأمة. والله سبحانه أشد غيرة منه، كما ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أنه « قال أتعجبون من غيرة سعد؟(١) لأنا أغير منه. والله أغير منى » وفى الصحيح أيضا عنه ﷺ أنه قال فى خطبة الكسوف « ياأمة محمد: ما أحدَ أغيرُ من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته » وفى الصحيح أيضا عنه أنه قال « لا أحدَ أغيرُ من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن. ولا أحدَ أحبُّ اليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين. ولا أحدَ أحبُّ إليه المدح من الله. من أجل ذلك أثنى على نفسه » فجمع فى هذا الحديث بين الغيرة التى أصلها كراهة القبائح و بغضها، و بين محبة العذر الذى يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان والله سبحانه مع شدة غيرته يحب أن يعتذر إليه عبده، و يقبل عذر من اعتذر اليه، و إنه لا يؤاخذ عبده بارتكاب مايغار من ارتكابه حتى يعذر اليه، ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذاراً و إنذاراً. وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال. فان كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قبول العذر ممن اعتذر اليه، بل قد يكون له فى نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره. وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع فى طرق المعاذير، و يرى عذراً ماليس بعذر، حتى يعذر كثير منهم بغير عذر، وكل منهما غير ممدوح على الاطلاق. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال « إن من الغيرة مايحبها الله، ومنها مايبغضها الله. فالتى يبغضها الله الغيرة من غير ريبة » وذكر الحديث.

و إنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فيغار فى محل الغيرة، و يعذر فى موضع

(١) هو سعد بن عبادة قال له ناس يا أبا ثابت قد نزلت الحدود، لو أنك وجدت مع امرأتك رجلا كيف كنت صانعا؟ قال كنت ضاربهما بالسيف حتى يسكتا، فأنا أذهب فأجمع أربعة شهداء؟ فالى ذلك قد قضى حاجته. فلما سمعه رسول الله ﷺ ضحك، وقال « أتعجبون إلى غيرة سعد — الحديث »

العذر ، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقا . ولما جمع سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغى له ، بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه: فالغيور قد وافق ربه سبحانه فى صفة من صفاته ، ومن وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها، وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته ، وصيرته محبوبا له . فانه سبحانه رحيم يحب الرحماء ، كريم يحب الكرماء ، عليم يحب العلماء ، قوى يحب المؤمن القوى ، وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف حَيٌّ يحب أهل الحياء ، جميل يحب أهل الجمال ، وتر يحب أهل الوتر .

ولو لم يكن فى الذنوب والمعاصى إلا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة ، فإن الخطْرة (١) تنقلب بها وسوسة والوسوسة تصير إرادة ، والإرادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم تصير فعلا ، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة . وحينئذ يتعذر الخروج منها ، كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به .

والمقصود: أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس. وقد تضعف فى القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لامن نفسه ولا من غيره ، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك . وكثير من هؤلاء لايقتصر على عدم الاستقباح ، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويُزينه له ، ويدعوه اليه ويحثه عليه ، ويسعى له فى تحصيله. ولهذا كان الدَّيُّوث (٢)

---

(١) الخطرة ما يخطر على القلب أى يمر به سريعا

(٢) هو الذى لا يغار على امرأته التى هى عرضه وحرمته ، بل يعرف منها الزنا فيرضى به ، ولعله يساعدها عليه، كما يصنع جمهرة المتفرنجين اليوم، إذ بذلوا لنسائهم من أنفسهم وأموالهم ما جعلهن زانيات ، يخرجن متهتكات حاسرات عن الرءوس والنحور والصدور والسيقان بل والأفخاذ متبرجات بكل ماينادى : هلم إلى الزنى . ويتأبط الديوث ذراع زوجته وهى كذلك يعرضها على أنظار الكلاب امثاله ، فرحا بأنه أخرج لهم بضاعة رائجة فى نظره ونظرهم الخائن

أخبث خلق الله ، والجنة عليه حرام ، وكذلك محلِّل الظلم والبغى لغيره ومزينه لغيره . فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة .

وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة . ومن لاغيرة له لادين له ، فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح ، فتدفع السوء والفواحش . وعدم الغيرة يميت القلب فتموت له الجوارح ، فلا يبقى عندها دفع ألبتة . ومثل الغيرة فى القلب مثل القوة التى تدفع المرض وتقاومه . فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلا ، ولم يجد دافعاً .فتمكن فكان الهلاك . ومثلها مثل صياصى [1] الجاموس التى تدفع بها عن نفسها وعن ولدها . فاذا تكسرت طمع فيها عدوها .

فصل

ومن عقوباتها : ذهاب الحياء الذى هو مادة الحياة للقلب . وهو أصل كل خير . وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه . وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال « الحياء خير كله » وقال « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ماشئت » وفيه تفسيران :

أحدهما : أنه على التهديد والوعيد ، والمعنى من لم يستح فانه يصنع ما يشاء من القبائح . إذ الحامل على تركها الحياء ، فاذا لم يكن هناك حياء يَزَعه [2] عن القبائح فانه يواقعها . وهذا تفسير أبي عبيدة .

والثانى : أن الفعل إذا لم تستح فيه من الله فافعله . وإنما الذى ينبغى تركه هو ما يستحيي فيه من الله. وهذا تفسير الإمام أحمد فى رواية ابن هانىء . فعلى الأول يكون تهديداً . كقوله (٤١ : ٤٠ اعملوا ماشئتم) وعلى الثانى : يكون إذناً و إباحة

فان قيل : فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين ؟ قلت : لا. ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه ، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة . ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر .

والمقصود: أن الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية.

---

(١) قرونها (٢) وزعه يزعه كمنعه يمنعه

حتى ربما إنه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر هو عن حاله وقبح مايفعله، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء. وإذا وصل العبد إلى هذه الحالة لم يبق فى صلاحه مطمع. وإذا رأى إبليس طَلعة وجهه حيَّاه وقال: فَدَيْتُ من لا يُفلح (١)

والحياء مشتق من الحياة. والغيث يسمى حياً ـ بالقصر ـ لأن به حياة الأرض والنبات والدواب. وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة، فمن لاحياء فيه فهو ميت فى الدنيا شقى فى الآخرة. وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين، وكل منهما يستدعى الآخر ويطلبه حثيثا، ومن استحيي من الله عند معصيته استحيي الله من عقوبته يوم يلقاه. ومن لم يستحى من الله تعالى من معصيته لم يستحى الله من عقوبته.

فصل

ومن عقوباتها: أنها تضعف فى القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره فى قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى. ولو تمكَّن وَقار الله وعظمته فى قلب العبد لما تجرَّأ على معاصيه. وربما اغتر المغتر وقال: إنما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء، وطمعى فى عفوه، لا ضعف عظمته فى قلبى. وهذا من مغالطة النفس. فان عظمة الله تعالى وجلاله فى قلب العبد يقتضى تعظيم حرماته وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروه حقَّ قدره. وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه أو يكبره، أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل. وكفى بالعاصى عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق،

(١) معناه: أن الشيطان يقدم نفسه فداء له، لأنه من أحبابه وحزبه وأتباعه الخاسرين

فيهون عليهم ، ويستخفون به ، كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبة العبدلله يحبه الناس [١] ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس ، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظم الناس حرماته . وكيف ينتهك عبد حرمات الله ، ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته ؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس. أم كيف يستخف بمعاصى الله ولا يستخف به الخلق ؟ وقد أشار سبحانه إلى هذا فى كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وأنه أرْكَس أربابها بما كسبوا [٢] وغطى على قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم ، وأنه نسيهم كما نسوه ، وأهانهم كما أهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا أمره . ولهذا قال تعالى فى آية سجود المخلوقات له (٢٢ : ١٤ ومن يهن الله فماله من مُكرِم) فانهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم فلم يكن لهم من مكرم ، بعد أن أهانهم الله .ومن ذا يكرم من أهانه الله ؟ أو يهن من أكرمه الله ؟

فصل

ومن عقوباتها : أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه ، وتخليته بينه و بين نفسه وشيطانه ،وهنالك الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة . قال الله تعالى (٥٩ :١٨، ١٩ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولْتَنظُرْ نفس ماقدّمت لغدٍ . واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه . وأخبر أنه عاقب

---

(١) المرادبالناس : أهل الرشد والحكمة ، المؤمنون الذين يعقلون و يفقهون. أما الطغام فلا قيمة لسخطهم وعداوتهم (٢) الركس : رد الشيء مقلوبا والله أركسهم أى ردهم أسفل سافلين منكوسين بما انسلخوا من آيات ربهم التى أنعم عليهم بها ليرتفعوا بها مع الشاكرين الصابرين ، فأبوا إلا الاخلاد إلى أرض البهيمية والتقليد الأعمى فكانوا صما و بكما وعميانا

من ترك التقوى بأن أنساه نفسه ، أى أنساه مصالحها ، وما ينجيها من عذابه ، وما يوجب له الحياة الابدية ، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها . فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه ، والقيام بأمره ، فترى العاصى مهملا لمصالح نفسه مضيعا لها ، قد أغفل الله قلبه عن ذكره ، واتبع هواه وكان أمره فرطا[1] قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته ، وقد فرط فى سعادته الابدية ، واستبدل بها أدنى مايكون من لذة . إنما هى سحابة صيف أو خيال طيف

أحلام نوم ، أو كظل زائل * إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم العقوبات: نسيان العبد لنفسه و إهماله لها ، و إضاعته حظها و نصيبها من الله و بيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن فضيع من لاغنى له عنه ولاعوض له منه ، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض

من كل شىء إذا ضيعته عوض * وليس فى الله إن ضيعت من عوض

فالله سبحانه وتعالى يعوض عن كل شىء سواه ولا يعوض منه شىء ، و يغنى عن كل شىء ولا يغنى عنه شىء ، و يمنع من كل شىء ولا يمنع منه شىء ، و يجير من كل شىء ولا يجير منه شىء ، وكيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين ؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه ، فيخسرها و يظلمها أعظم ظلم فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه ، وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه

فصل

ومن عقوباتها : أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين ، فان الاحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصى . فان من عبد الله كأنه يراه ، لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك سيحول بينه و بين إرادة المعاصي ، فضلاً

---

(١) أى جاوز فيه الحد فى الاهمال والتضييع

عن مواقعتها . فاذا خرج من دائرة الاحسان فاته صحبة رفقته الخاصة ، وعيشهم الهنيء ، ونعيمهم التام ، فان أراد الله به خيراً أقره فى دائرة عموم المؤمنين . فان عصاه بالمعاصى التى تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبى ﷺ «لا يزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولا يَنْهَب نُهْبَة ذاتَ شرف (١) يرفع إليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » فاياكم إياكم ، والتوبة معروضة بعد

فصل

ومن فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الايمان فانه حسن دفاع الله عن المؤمنين . فان الله يدافع عن الذين آمنوا ، وفاته كل خير رتبه الله فى كتابه على الايمان ، وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها

فمنها : الأجر العظيم (٤:١٤٦ وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً)

ومنها : الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة (٢٢:٣٨ إن الله يدافع عن الذين آمنوا)

ومنها : استغفار حملة العرش لهم (٤٠ : ٧ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا)

ومنها : موالاة الله لهم « ولا يذل من والاه الله » قال الله تعالى (٢ :٢٥٧ الله ولى الذين آمنوا)

ومنها : أمره ملائكته بتثبيتهم (٨ : ١٢ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا)

ومنها : أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم .

ومنها . العزة (٦٣ : ٨ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

---

(١) نهبه نهبة -بضم النون- اسم لما ينهب، وذات شرف اى ذات قيمة

ومنها : معية الله لأهل الإيمان (١٩:٨ وأن الله مع المؤمنين)

ومنها : الرفعة فى الدنيا والآخرة (١١:٥٨ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)

ومنها : أنه أعطاهم كفلين من رحمته[1] وأعطاهم نوراً يمشون به ومغفرة لذنوبهم (٢٩:٥٧ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم)

ومنها : الود الذى يجعله سبحانه لهم ، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين . (٩٦:١٩ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)

ومنها : أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف (٦ : ٤٨ فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

ومنها : أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم فى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة .

ومنها : أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء (٤١ : ٤٤ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم عمىً أولئك ينادون من مكان بعيد)

والمقصود : أن الايمان سبب جالب لكل خير . وكل خير فى الدنيا والآخرة فسببه الايمان . فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرجه من دائرة الايمان ويحول بينه وبينه ، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين ، فان استمر على الذنوب وأصرّ عليها خيف عليه أن يرين على قلبه ، فيخرجه عن الاسلام بالكلية . ومن هنا اشتد خوف السلف ، كما قال بعضهم : أنتم تخافون الذنوب وأنا أخاف الكفر

---

(١) الكفل الحظ والنصيب

فصل

ومن عقوباتها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه وتوقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه. فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته. فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره. فان زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه. فالله المستعان.

فالذنب إما أن يميت القلب، أو يمرضه مرضاً مخوفاً، أو يضعف قوته ولابد، حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ النبي ﷺ منها وهي «الهم، والحزن، والعجز، والكسل، والجبن، والبخل، وضلع الدين[1]، وغلبة الرجال» وكل اثنين منها قرينان، فالهم والحزن قرينان، فان المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه، أحدث الهم، وإن كان من أمر ماض قد وقع، أحدث الحزن. والعجز والكسل قرينان. فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته. فهو العجز. وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل. والجبن والبخل قرينان. فان عدم النفع منه إن كان ببدنه، فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل. وضلع الدين وقهر الرجال قرينان، فإن استيلاء الغير إن كان بحق فهو من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال.

والمقصود: أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة «لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء[2] وشماتة الاعداء» ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله تعالى وتقدس، وتحول عافيته إلى نقمته وتجلب جميع سخطه.

---

(١) أي ثقله. والضلع الاعوجاج، أي يثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء والاعتدال.

(٢) جهد البلاء: حالة الامتحان والابتلاء الشاقة. ودرك الشقاء: أي =

فصل

ومن عقوبات الذنوب: أنها تُزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب، ولا حلَّت به نقمة إلا بذنب. كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة» وقد قال تعالى (٤٢: ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت إيديكم و يعفو عن كثير) وقال تعالى (٥٣:٨ ذلك بأن لله لم يَكُ مُغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التى أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فاذا غَيرَّ غُيِّرَ عليه، جزاء وفاقا. وما ربك بظلام للعبيد. فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز. قال تعالى (١٣: ١١ إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. و إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال [1]) وفى بعض الآثار الإلهية، عن الرب تبارك وتعالى أنه قال «وعزتى، وجلالى، لا يكون عبد من عبيدى على ما أحب ثم ينتقل عنه إلى ما أكره إلا انتقلت له مما يحب إلى ما يكره. ولا يكون عبد من عبيدى على ما أكره فينتقل عنه إلى ما أحب إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب» وقد أحسن القائل:

إذا كنت فى نعمة فارعَها ... فان الذنوب تزيل النعم
وحُطْها [2] بطاعة رب العبا ... د فرب العباد سَريع النقَم
و إياك والظلم مهما استطعـ ... ـتَ فظلم العباد شديد الوخم [3]

= لحوقه. وسوء القضاء: أى عدم القدرة على قضاء الدين وهذا مما صح أن النبى ﷺ كان يستعيذ منه

(١) اى من ولى يتولاهم (٢) من الاحاطة والصون (٣) الوخم الثقيل والوبىء. والمراد هنا سىء العاقبة

وسافر بقلبك بين الورى لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم شهود عليهم ، ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضـ ـر من الظلم وهو الذى قدقصم[١]
فكم تركوا من جنان ومن قصور ، وأخرى عليهم أطم[٢]
صلوا بالجحيم وفاتوا النعـ ـيم ، وكان الذى نالهم كالحلم[٣]

فصل

ومن عقوباتها : ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف فى قلب العاصى ، فلا تراه إلا خائفا مرعوباً . فان الطاعة حصن الله الاعظم الذى من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب ، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه أمانا . ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف . فلا تجد العاصى إلا وقلبه كأنه بين جناحى طائر ، إن حركت الريح الباب قال : جاء الطلب ، وإن سمع وَقْع قَدَم خاف أن يكون نذيراً بالعطب . يحسب كل صيحة عليه .وكل مكروه قاصداً إليه . فمن خاف الله آمنه من كل شيء . ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء

بذا قضى الله بين الخلق مذ خلقوا * أن المخاوف والإجرام فى قَرَن[٤]

ومن عقوباتها : أنها توقع الوحشة العظيمة فى القلب . فيجد المذنب نفسه مستوحشاً . قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه وبينه وبين الخلق وبينه ،وبين نفسه . وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة . وأمرُّ العيش عيش المستوحشين

---

(١) قصم الشيء كسره (٢) الجنان جمع جنة وهى البستان الذى قدالتفت أشجاره حتى أجنت الأرض، أى سترتها فلم يقع عليها حر الشمس ولا شعاعها فكانت كلها ظلا . والأطم — بضم الهمزة والطاء — . بناء مرتفع والمراد القصور المشيدة (٣) صلوا بالجحيم، الصلى : الشى والحلم مايراه النائم (٤) فى قرن أى مقترنين

الخائفين . وأطيب العيش عيش المستأنسين . فلو نظر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما تولده فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه . إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف

إذا كنت قد أوحشتك الذنو * ب فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة : أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه . وكلما اشتد القرب قوى الأنس . والمعصية توجب البعد من الرب . وكلما زاد البعد قويت الوحشة . ولهذا يجد العبد وحشة بينه و بين عدوه للبعد الذى بينهما ، و إن كان ملابساً له قريباً منه . و يجد أنساً قويا بينه و بين من يحب ، و إن كان بعيداً عنه . والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة . فالغفلة توجب الوحشة . وأشد منها وحشة المعصية . وأشدمنها وحشة الشرك والكفر . ولا تجد أحداً يلابس شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه . فتعلو الوحشة وجهه وقلبه ، فيستوحش ويستوحش منه

فصل

ومن عقوباتها : أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه . فلا يزال مريضاً معلولاً لا ينتفع بالأغذية التى بها حياته وصلاحه . فإن تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى الابدان . بل الذنوب أمراض القلوب وأدواؤها ، ولا دواء لها إلا تركها . وقد أجمع السائرون إلى الله على أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها . ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة . ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها ، فيصير نفس دوائها . ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها وهواها مرضها . وشفاؤها مخالفته . فان استحكم المرض قتل أو كاد . وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، كذلك يكون قلبه فى هذه الدار فى جنة عاجلة ، لا يشبه نعيم أهلها نعيم ألبتة ، بل التفاوت الذى بين النعيمين

كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة .وهذا أمر لايصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا . ولا تحسب أن قوله تعالى (٨٢ : ١٣، ١٤ إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم) مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل فى دورهم الثلاثة كذلك . أعني دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . فهؤلاء فى نعيم . وهؤلاء فى جحيم .وهل النعيم إلا نعيم القلب ؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟

وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن ، وضيق الصدر ، و إعراضه عن الله والدار الآخرة ، وتعلقه بغير الله ، وانقطاعه عن الله ، بكل وادٍ منه شُعبة . وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يَسُومه سوء العذاب . فكل من أحبّ شيئاً غير الله عُذِّب به ثلاث مرات : فى هذه الدار . فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل .فإذا حصل عُذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته ، والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات .فإذا سُلبه اشتد عذابه عليه .فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار .

وأما فى البرزخ : فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لايرجى عوده ، وألم فوات مافاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التى تُقطِّع الأكباد .فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ماتعمل الهوام والديدان فى أبدانهم، بل عملها فى النفوس دائم مستمر ، حتى يردها الله إلى أجسادها فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر .فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه ، واشتياقا إليه وارتياحاً بحبه وطمأنينة بذكره ؟ حتى يقول بعضهم فى حال نزعه: واطَرَباه ويقول الآخر :إن كان أهل الجنة فى مثل هذا الحال إنهم لفى عيش طيب . ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها .وما ذاقوا أطيب ما فيها .ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .ويقول الآخر : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

فيامن باع حظه الغالى بأبخس الثمن ، وغبن كل الغبن فى هذا العقد ، وهو

يرى أنه قد غبن، إذا لم تكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقوِّمين. فياعجباً من بضاعة معك الله مشتريها. وثمنها جنة المأوى. والسفير الذى جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشترى هو الرسول ﷺ. وقد بعتها بغاية الهوان

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه * فمن ذا له من بعد ذلك يكرم؟

(٢٢: ١٨ ومن يُهِنِ الله فما له من مكرم إن الله يفعل مايشاء)

فصل

ومن عقوباتها: أنها تعمى بصر القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية.

وقد قال مالك للشافعى رحمهما الله تعالى، لما اجتمع به الشافعى ورأى تلك المخايل: إنى أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا. فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب فى مثل الليل البهيم. فكم من مَهلك يسقط فيه وهو لا يبصر، كأعمى خرج بالليل فى طريق ذات مهالك ومعاطب، فياعزة السلامة وياكثرة العطب. ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى القلب منها سواد. بحسب قوتها وتزايدها. فاذا كان عند الموت ظهرت فى البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة، كما قال النبى ﷺ «إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة. وإن الله ينورها بصلاتى عليهم» فاذا كان يوم المعاد وحشر العباد وعلَت الظلمة الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد. حتى يصير الوجه أسود مثل الحُمَمَة [١] فيالها من عقوبة، لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها. فكيف بقسط العبد المنغص المنكد المتعب فى زمن إنما هو ساعة من حلم؟ والله المستعان.

---

(١) الحممة — بفتحات — الفحم

فصل

ومن عقوباتها: أنها تصغر النفس وتقمعها، وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر من كل شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها. قال تعالى (٩١: ١٠ قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسَّاها) والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها. وقد خسر من أخفاها وحقرها وصَغَّرها بمعصية الله.

وأصل التدسية: الإخفاء [١] ومنه قوله تعالى (١٦: ٥٩ يدسه فى التراب) فالعاصى يدس نفسه فى المعصية، ويخفى مكانها. ويتوارى من الخلق من سوء مايأتي به، قد انقمع عند نفسه وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق. فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه. ومع ذلك فهى أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو. فما صغر النفس مثل معصية الله. وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.

فصل

ومن عقوباتها: أن العاصى دائماً فى أسر شيطانه وسجن شهواته، وقيود هواه. فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالا من أسير أسره أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟

---

(١) «دساها» أى بالغ فى دسها، فى القذارة والسفالة. وذلك أن الانسان أكرمه الله بهذا الخلق الجميل وآتاه من النعم والآيات فى نفسه من السمع والبصر والفؤاد — وفيما حوله فى السموات والأرض وما فيهما — ما ينتفع به فيعلو على درجات الكرامة دائما حتى يبلغ إلى عليين، ولكن الخائب الخاسر: انسلخ من هذه الآيات والنعم بتقليده وغفلته. وركبه الشيطان فكان من الغاوين. المغرورين الغاشين لأنفسهم بالأمانى الكاذبة، ونادى على نفسه بأنه: لا يفهم ولا يعقل عن الله سننه ولا آياته ولا كتابه. وإنما هو كالأنعام بل أضل سبيلا، لا يحرص إلا على ما تطلبه بهيميته من الشهوات السافلة

وإذا تقيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده. ومثل القلب مثل الطائر، كلما علا بَعُدَ عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات وفى الحديث «الشيطان ذئب الانسان» وكما أن الشاة التى لاحافظ لها وهى بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولابد. وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى (١) فهى وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه، كما هى وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعى كانت أقرب إلى الهلاك. فأحمى ماتكون الشاة إذا قربت من الراعى. وإنما يأخذ الذئب القاصى من الغنم، وهى أبعدهن من الراعى

وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات، والبعد من الله مراتب، بعضها أشد من بعض. فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة. وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق، والشرك أعظم من ذلك كله

---

(١) حقيقة التقوى: أن تحتفظ بكل أسباب القوة التى أعطاكها العليم الحكيم الرحمن الرحيم وسلحك بها حين أنزلك ميدان الجهاد، خليفته فى هذه الأرض لتصلحها وتصلح فيها. وما أسباب وعناصر تلك القوة: إلا السمع والبصر والعقل الذى ميز الله به الانسان وسخر له مافى السموات والأرض ليعرف نعم الله وآياته فيذكرها ويشكرها، أى يحسن تلقيها والانتفاع بها على يقين من أنها نعم ورحمة كلها من العليم الحكيم، وبذلك يكون العبد من المتقين، المهتدين بكتاب الله، الموصوفين بقوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وفى الحديث «التقوى ههنا» يكررها ثلاثا ويشير ﷺ إلى صدره. والله الموفق

فصل

ومن عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه. فان أكرم الخلق عند الله أتقاهم. وأقربهم منه منزلة أطوعهم له. وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده. فاذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك. فعاش بينهم أسوأ عيش خامل الذكر. ساقط القدر. زرِيَّ الحال. لاحرمة له. فلا فرح له ولا سرور. فان خمول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل غم وهم وحزن ولا سرور معه ولا فرح. وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة؟

ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين ذكره. ويعلى قدره. ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم. كما قال تعالى (٣٨: ٤٥–٤٧ واذكر عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والابصار، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) أى خصصناهم بخصيصة. وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار. وهو لسان الصدق الذى سأله ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث قال (٢٦: ٨٤ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه (١٩: ٥٠ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) وقال لنبيه ﷺ (ورفعنا لك ذكرك) فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم. وكل من خالفهم فاته من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم

فصل

ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار. فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والتقى، والمطيع والمنيب والولى، والورع والمصلح والعابد والخائف، والأواب والطيب والرضى ونحوها. وتكسوه

اسم الفاجر والعاصى ، والمخالف ، والمسىء والمفسد ، والخبيث والمسخوط ،والزانى والسارق والقاتل ، والـكاذب والخائن واللوطي والغادر ، وقاطع الرحم وأمثالها . فهذه اسماء الفسوق . و (٤٩ : ٦١ بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) التى توجب غضب الديان ودخول النيران ، وعيش الخزى والهوان . وتلك أسماء توجب رضاء الرحمان ودخول الجنان ، وتوجب شرف المسمى بها على سائر أنواع الانسان. فلو لم يكن فى عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الاسماء وموجباتها لـكان فى العقل ناهيا عنها . ولو لم يكن فى ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لـكان العقـل آمراً بها . ولـكن لامانع لمـا أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا مقرب لمن باعد ، ولا مبعد لمن قرب (ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل مايشاء)

فصل

ومن عقوباتها : أنها تؤثر بالخاصة فى نقصان العقل ، فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أو فر وأ كمل ، وفكره أصح ، ورأيه أسَدُّ . والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولى الألباب والعقول ، كقوله (٢ : ١٩٧ واتقون يا أولى الألباب) وقوله (٥ : ١٠٣ فاتقوا الله يا أولى الألباب) وقوله (٢ : ٢٦٩ وما يذكر إلا أولوا الألباب) ونظائر ذلك كثيرة

وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعصى مَنْ هو فى قبضته وفى داره ، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده ؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه ، ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعى كل وقت غضبه عليه ، ولعنته له ، وإبعاده من قربه ، وطرده عن بابه ، وإعراضه عنه وخذلانه له ، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ، وحرمانه من رضاه وحبه ، وقرة العين إنما هى بقربه والفوز بجواره

والنظر إلى وجهه فى زمرة أوليائه ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة ، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية

فأى عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضى كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم ؟ بل هو سعادة الدنيا والآخرة ، ولولا العقل الذى تقوم عليه به الحجة لكان بمنزلة المجانين ، بل قد يكون المجانين أحسن حالا منه وأسلم عاقبة . فهذا من هذا الوجه

وأما تأثيرها فى نقصان العقل العيشى : فلولا الاشتراك فى هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا . ولكن الجائحة عامة والجنون فنون ، ويا عجبا لو صحت العقول لعلمت أن الطريق الذى يحصل به اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو فى رضاه مَنِ النعيم كله فى رضاه ، والألم والعذاب كله فى سخطه وغضبه . ففى رضاه قرة العيون وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة الأرواح وطيب الحياة ولذة العيش ، وأطيب النعيم ، مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم تف به ، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضاً منه ، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات، بل قد حصل على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما. وما يحصل له فى خلال ذلك من الآلام فالأمر كما قال سبحانه(٤ : ١٠٤ إن تكونوا تألمون فإنهم يألَمون كما تألَمون وترجُون من الله ما لا يرجون) فلا إله إلا الله . ما أنقص عقل من باع الدُّرَّ بالبعْر . والمسك بالرجيع. ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا

فصل

ومن أعظم عقوباتها : أنها توجب القطيعة بين العبد و بين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر . فأىُّ فلاح . وأى رجاء . وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير . وقطع ما بينه و بين وليه ومولاه الذى لا غنى له عنه طَرْفة عين . ولا بدل له منه ولا عوض له عنه . واتصلت به أسباب الشر . ووصل ما بينه و بين أعدائه فتولاه عدوه . وتخلى عنه وليه ؟ . فلا تعلم نفس ما فى هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب . قال بعض السلف : رأيت العبد ملقىً بين الله سبحانه و بين الشيطان فان أعرض الله عنه تولاه الشيطان . و إن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان . وقد قال تعالى (١٨ : ٥٠ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجِنِّ . ففسق عن أمر ربه . أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلا) يقول سبحانه لعباده : أنا أكرمت أباكم [1] . ورفعت قدره وفضلته على غيره . فأمرت ملائكتى كلهم أن يسجدوا له ، تكريماً وتشريفاً . فأطاعونى . وأبى عدوى وعدوه . فعصى أمرى . وخرج عن طاعتى ، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دونى ، فتطيعوه فى معصيتى ، وتوالوه فى خلاف مرضاتى ، وهم أعدى عدو لكم ؟ فواليتم عدوى وقد أمرتكم

(١) بل إنه سبحانه أكرم كل بنى آدم ، فقال (١٧ : ٧٠ ولقد كرمنا بنى آدم) وأسجد لهم ملائكته . فما سجودها : إلا خضوعها التام وطاعتها لربها فى تدبير كل ما وكل إليها من أمور بنى آدم ، فهى لا تزال ساعية فى خيرهم ومصالحهم تنزل إليهم الليل والنهار من عند ربنا بكل خير ونعمة لنا . ولنا معقبات منهم من بين أيدينا ومن خلفنا تحفظنا . حتى حملة العرش تستغفر لنا . وليس كل من كان عدوا للأب يكون عدوا للابن ، إلا إن كانت عداوته للجنس لا للشخص . فابليس كما هو عدو لآدم الأب فهو عدو لبنى آدم عداوته لأبيهم ، لا لعداوة أبيهم ، بل لأنهم الانسان الذى أكرمه الله وابتلاه وفتنه بما سخر له فى السموات والارض جميعا

بمعاداته . ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه ، وأما أنْ توالى أعداء الملك ثم تدعى أنك موال له ، فهذا محال ، هذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التى بينكم وبينه أعظم من العداوة التى بين الشاة وبين الذئب ؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذى لا مولى له سواه ، ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله (وهم لكم عدو) كما نبه على قبحها بقوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته ، فما هذه الموالاة ، وما هذا الاستبدال ؟ بئس للظالمين بدلا .

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب : نوع من العتاب لطيف عجيب ، وهو أني عاديت إبليس إذا لم يسجد لابيكم آدم مع ملائكتى ، فكانت معاداته لاجلكم ، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة

فصل

ومن عقوباتها : أنها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة ، وبالجملة إنها تمحق بركة الدين والدنيا . فلا تجد أقل بركة فى عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله ، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصى الخلق . قال الله تعالى (٧ : ٩٦ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال تعالى (٧٢: ١٦ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه) (١) وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه . وفى الحديث « إن روح القدس نفث فى روعى (٢) أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله وأجملوا فى

(١) الغدق الكثير . وفتنهم فيه أى اختبرهم : هل يشكرون الله فيما أنعم عليهم أم لا ؟ (٢) الروع — بضم الراء — القلب والعقل . يقال : وقع فى روعى أى فى خلدى وبالى

الطلب فإنه لا يُنال ما عند الله إلا بطاعته . وإن الله جعل الروح [١] والفرح في الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد « أنا الله، إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى . وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد » وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام . ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه . وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل حياة البهائم خير من حياته . فإن حياة الانسان بحياة قلبه وروحه ، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره [٢] ومحبته وعبادته وحده ، والإنابة إليه ، والطمأنينة بذكره ، والانس بقربه . ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ، ولو تعوض عنها بما تعوض به في الدنيا ، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوض ، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء ألبتة ، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات؟ والعاجز بالذات عن القادر بالذات؟ والميت عن الحي الذي لا يموت ؟ والمخلوق عن الخالق ؟ ومن لا وجود له ، فلا شيء له من ذاته ألبتة عمن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوازم ذاته ؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض ؟

وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها. فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة. ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع، لما في مقارنة اسم الله من البركة [٣] وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة، ولا معارض لها وكل شيء لا يكون الله فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذي يبارك وحده والبركة كلها منه. وكل ما نسب إليه مبارك. فكلامه مبارك ورسوله

---

(١) أي الرحمة وما به الحياة الطيبة (٢) الفطر الابتداء والاختراع (٣) البركة: الزيادة والنماء في الخير ودوام النفع به وفائدته . وإنما وصفت أرض الشام بذلك لما جعل الله فيها من كثرة المياه التي جعلتها خصبة تنبت أطيب الثمار وأجود الزرع :

مبـارك ، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبـارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه وهى الشـام أرض البركة وصفها بالبركة فى ست آيات من كتابه . فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك إلا مانسب إليه ، أعنى إلى محبته وألوهيته ورضاه ؛ وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه ، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان والاقوال والأعمال فلا بركة فيه . ولا خير فيه . وكل ما كان منه قريباً ففيه من البركة على قدر قربه منه. وضد البركة اللعنة ، فأرض لعنها الله أو شخص لعنه الله ، أوعمل لعنه الله أبعد شىء من الخير والبركة . وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبتة. وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه ، فـكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله ، فن ههنا كان للمعاصى أعظم تأثير فى محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل، فـكل وقت عصيت الله فيه ، أومال عصى الله به ، أو بدن أوجاه أوعلم أوعمل عصى الله به فهو على صاحبه ليس له ، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به وهذا فمن الناس من يعيش فى هذه الدار مائة سنة أونحوها ، ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أونحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله فى الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه والعلم . وفى الترمذى عنه ﷺ « الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله عز وجل وما والاه، أوعالم متعلم» وفى أثر آخر «ملعونة الدنيا ملعون مافيها إلا ما كان لله » هذا هو الذى فيه البركة خاصة والله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السَّفلَة بعد أن كان مهيئاً لأن يكون من العِلية ، فان الله خلق خلقه قسمين : علية ، وسفلة ، وجعل عليين مستقر العلية. وأسفل سافلين مستقر السفلة . وجعل أهل طاعته الأعلين فى الدنيا والآخرة .

وأهل معصيته الأسفلين فى الدنيا والآخرة ، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه وأهل معصيته أهون خلقه عليه . وجعل العزة لهؤلاء والذلة والصغار لهؤلاء . كما فى مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر وعن النبي ﷺ أنه قال «جعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى » وكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة . ولا يزال فى نزول حتى يكون من الأسفلين . وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة . ولا يزال فى ارتفاع حتى يكون من الأعلين . وقد يجتمع للعبد فى أيام حياته الصعود من جهة والنزول من جهة . وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله . فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس

ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم . وهو أن العبد قد ينزل نزولا بعيداً أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وأبعد مما بين السماء والأرض ، ولا يفى صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد . كما فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب »

فأىُّ صعود يوازى هذه النزلة ، والنزول أمر لازم للانسان . ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة ، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى درجته ، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته . ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة . فهذا إذا رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته . وقد لا يصل إليها ، وقد يرتفع عنها . فانه قد يعود أعلى همة مما كان . وقد يكون أضعف همة . وقد تعود همته كما كانت . ومنهم من يكون نزوله إلى معصية ، إما صغيرة أو كبيرة . فهذا يحتاج فى عَوْده الى درجته الى توبة نصوح ، و إنابة صادقة .

واختلف الناس : هل يعود بعد التوبة الى درجته التى كان فيها، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب ، وتجعل وجوده كعدمه ، فكأنه لم يكن ، أو لا يعود ، بناء على أن تأثير التوبة إنما يكون فى إسقاط العقوبة . وأما الدرجة التى فاتته فانه لا يصل اليها ؟

قالوا : وتقرير ذلك : أنه قد كان مستعداً باشتغاله بالطاعة فى الزمن الذى عصى فيه لصعود آخر . وارتفاعه بجملة أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذى يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح . فقد راح عليه فى زمن المعصية ارتفاعٌ وربح بجملة أعماله . فاذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول . وكان قبل ذلك صاعداً من أسفل إلى أعلى ، و بينهما بَوْنٌ عظيم

قالوا : ومثَل ذلك مثل رجلين يرتقيان فى سُلمين لا نهاية لهما ، وهما سواء . فنزل أحدهما الى أسفل ، ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود ، فإن الذى لم ينزل يعلو عليه ولابد .

وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية رضى الله عنه بين الطائفتين حكما مقبولا ، فقال :

التحقيق : أن من التائبين من يعود الى أرفع من درجته ، ومنهم من يعود الى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل الى درجته . ومنهم من يعود الى درجته .

قلت : وهذا بحسب قدر التوبة وكمالها ، وما أحدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة ، والحذر والخوف من الله ، والبكاء من خشية الله . وقد تقوى على تحصيل كل هذه الأمور ، حتى يعود التائب الى أرفع من درجته ، و يصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة . فهذا قد تكون الخطيئة فى حقه رحمة . فانها نَفَتْ عنه العُجْب ، وخلَّصته من ثقته بنفسه و إدلاله بأعماله . ووضعت خَدَّ ضراعته وذُلَّه وانكساره على عَتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له ، والى عفوه عنه ومغفرته له ؛ وأخرجت من قلبه صَوْلة الطاعة ، وكسرت أنفه أن يَشْمَخ بها أو يتكبر بها ، أو يرى نفسه بها خيراً من غيره ، وأوقفته بين يدى ربه موقف الخطَّائين المذنبين ، ناكسَ الرأس بين يدى ربه ، مستحيياً خائفاً منه وَجِلا ، محتقراً لطاعته ، مستعظما لمعصيته . عرف نفسه بالنقص والذم . وربه بالتفرد بالكمال والحمد والوفاء . كما قيل :

استأثر الله بالوفاء وبالحمـ * ـد ، وولّى الملامة الرجلا

فصل

فأىُّ نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه ، ورأى نفسه دونها ، ولم يرها أهلا لها ، وأى نقمة أو بَلِيَّة وصلت إليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن إليه ، إذ لم يعاقبه على قَدْرِ جُرمه ولا شطره ، ولا أدنى جزء منه . فان ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلا عن هذا العبد الضعيف العاجز . فان الذنب وإن صغر قبيح وإن مقابلة العظيم به ، العظيم الذى لاشىء أعظم منه . الكبير الذى لا شىء أكبر منه . الجليل الذى لا أجل منه ولا أجمل . المنعم بجميع أنواع النعم دقيقها وجليلها ـ يعد من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها . فان مقابلة العظماء والاجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض ؟ وملك السموات والأرض ؟ وإله أهل السموات والأرض ؟ ولولا أن رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته ؛ لتزلزلت الأرض بمن قابله بما لا تليق مقابلته به ، ولولا حلمه ومغفرته لزالت السموات والأرض من معاصى العباد . قال تعالى (٣٥ : ٤٢ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إنْ أمسكهما من أحد من بعده . إنه كان حليماً غفوراً) فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما « الحليم والغفور » كيف تجد تحت ذلك ؟ انه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض . وأخبر سبحانه عن كفر بعض عباده : أنه (١٩ : ٩٠ تكاد السموات يَتَفَطَّرْنَ منه وتَنْشَقُّ الأرض وتَخِرُّ الجبال هَدًّا [1]) وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه ، وخالفا فيه نهيه ، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه ، وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقى كما قيل :

---

(١) يتفطرن : يتشققن ، وتخر : تسقط ، وهدا : مصدر هد ، أى مهدودة قد سقطت من ارتفاعها وشموخها متهدمة

نصل الذنوب إلى الذنوب ، ونرتجى * دَرَج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الابوين من * ملكوتها الأعلى بذنب واحد

والمقصود : أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة ، وقد تُضعف الخطيئة همته ، وتوهن عزمه ، وتُمرض قلبه . فلا تقوى التوبة على إعادته إلى الصحة الأولى ، فلا يعود إلى درجته . وقد يزول المرض بحيث يعود إلى مثل عمله ، فيعود إلى درجته .

هذا كله إذا كان نزوله إلى معصية . فأما إن كان نزوله إلى أمر يقدح في أصل إيمانه ، مثل الشكوك والريب والنفاق . فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه من أساسه

فصل

ومن عقوباتها : أنها تُجرّىء على العبد مالم يكن يجترىء عليه من أصناف المخلوقات ، فتجرِّىء عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتغرير ، وإنسائه ما مصلحته في ذكره ومَضَرّته في نسيانه . فتجترىء عليه الشياطين حتى تَؤزه[1] إلى معصية الله أزاً ، وتجرىء عليه شياطين الانس بما تقدر عليه من الأذى في غيبته وحضوره ، وتجرىء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم. قال بعض السلف : إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خُلق امرأتي ودابتي . وكذلك تجرىء عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود ، وتجرىء عليه نفسه فتستأسد[2] عليه وتصعب عليه ؛ فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له ، بل تسوقه إلى مافيه هلاكه ، شاء أم أبى ، وذلك لأن الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذى مَنْ دخله كان من الآمنين . فاذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم ، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله

(١) الأز — بتشديد الزاى — الدفع الشديد (٢) استأسد : صار كالأسد الضارى ، بعد ان لم يكن كذلك

يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه ، وليس شيء يرد عنه . فإن ذكر الله وطاعته والصدقة ، و إرشاد الجاهل والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر - وقاية ترد عن العبد، بمنزلة القوة التى ترد المرض وتقاومه . فاذا سقطت القوة غلب وارد المرض وكان الهلاك . ولا بد للعبد من شيء يرد عنه . فإن موجب السيئات والحسنات يتدافع و يكون الحكم للغالب كما تقدم . وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم . فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، والايمان قول وعمل ، فبحسب قوة الإيمان تكون قوة الدفع . والله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تخون العبد أحوج مايكون إلى نفسه ، فإن كل أحد محتاج إلى معرفة ماينفعه وما يضره فى معاشه ومعاده . وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل ، وأقوامهم وأكيسهم من قوى على نفسه و إرادته ، فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره . وفى ذلك تتفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم ، فأعرفهم من كان عارفا بأسباب السعادة والشقاوة ، وأرشدهم من آثر هذه على هذه ، كما أن أسفههم من عكس الأمر ، والمعاصى تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه فى تحصيل هذا العلم ، و إيثار الحظ الأشرف العالى الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له فى الدارين . فاذا وقع فى مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه ، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قرابه [1] بحيث لاينجذب مع صاحبه إذا جذبه ، فعرض له عدو يريد قتله ، فوضع يده على قائم سيفه واجتهدليخرجه ، فلم يخرج معه . فدهمه العدو وظفر به . كذلك القلب يصدأ بالذنوب و يصير مُثْخَناً بالمرض [2] فاذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه

(١) قراب السيف غمده (٢) أى مثقلا بالمرض .

شيئاً ، والعبد إنما يحارب و يصاول و يقدم بقلبه ، والجوارح تبع للقلب . فاذا لم تكن عند ملكها قوة يدفع بها فما الظن بها عند عدم ملكها ؟

وكذلك النفس فانها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف . أعني النفس المطمئنة وإن كانت الامارة تقوى وتستأسد ، فكلما قويت هذه ضعفت هذه، فبقي الحكم والتصرف للأمارة ، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لا يرجى معه حياة . فهذا ميت في الدنيا ، ميت في البرزخ ، غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها . بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط

والمقصود : أن العبد العاصي إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له ، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابة إليه ، والجمعية عليه ، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه . ولا يطاوعه لسانه لذكره . وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فلا ينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر . ولا ينحبس اللسان والقلب على المذكور بل إن ذكر أو دعا ذكر ودعا بقلب غافل لاه ساه. ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه. وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي ، كمن له جند يدفع عنه الأعداء . فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم ، وقطع أقواتهم ، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وُسعهم في الدفع عنه بغير قوة .

هذا . وثَمَّ أمر أخوف من ذلك وأدهى وأمرّ ، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى. فربما تعذر عليه النطق بالشهادة ، كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين من أصابهم ذلك ، حتى قيل لبعضهم : قل «لا إله إلا الله » فقال : شاه رُخ . غلَبتك [1] ثم قضى . وقيل لآخر : قل « لا إله إلا الله » فقال :

يارُبَّ قائلة يوماً ، وقد تعبت * أين الطريق إلى حمام منجاب ؟

---

(١) شاه ، ورخ . اسمين لحجرين من أحجار الشطرنج . لأنه كان في حياته مفتوناً بلعبه.

ثم قضى ، وقيل لآخر : قل « لا إله إلا الله » فجعل يهذى بالغناء . ويقول : تاتا تنتنتنا [(١)] فقال : وما ينفعنى ماتقول : ولم أدَعْ معصية إلا ركبتها . ثم قضى ولم يقلها : وقيل لآخر ذلك ، فقال : هو كافر بما تقول ، وقضى . وقيل لآخر ذلك . فقال : كلما أردت أن أقولها فلسانى يُمسك عنها . وأخبرنى من حضر بعض الشحاذين عند موته ، فجعل يقول : لله فُليس لله فليس . لله [(٢)] . حتى قضى . وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له : أنه احتُضِر وهو عنده ، فجعلوا يلقنونه « لا إله إلا الله » وهو يقول : هذه القطعة رخيصة ، هذا مشترى جيد ، هذه كذا . حتى قضى .

وسبحان الله ! كم شاهد الناس من هذا عبراً ، والذى يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم . وإذا كان العبد فى حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده منه من المعاصى ، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى ، وعطّل لسانه عن ذكره . وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه . واشتغال قلبه بما هو فيه من ألم النزع . وقد جمع الشيطان له كل قوته وهمته . وحشد عليه بجميع مايقدر عليه لينال منه غرضه ؟ فان ذلك آخر العمل . فأقوى مايكون عليه شيطانه ذلك الوقت . وأضعف ما يكون هو فى تلك الحالة . فمن ترى يسلم على ذلك ؟ فهناك (١٤ : ٢٧ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء)

فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتّبع هواه ، وكان أمره فُرُطا ؟ فبعيد مَنْ قلبه بعيد من الله تعالى غافل عنه متعبد لهواه مذلّل لشهواته ، ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة من طاعته ، مشتغلة بمعصية ربه — بعيد عن هذا أن يوفق لحسن الخاتمة .

---

(١) يرجع أصوات وحركات آلات الطرب والموسيقى التى كان قلبه معبداً لها طول حياته ، فكانت هجيراه . ولم يكن من المؤمنين بالله وكتابه ورسوله . الذين هجيراهم ومغناهم كتاب الله وآياته الحكيمة (٢) فليس — بضم الفاء — تصغير فلس ، وهو القطعة الصغيرة من النقد . أى اعطونى فلساً لله

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين . وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعا بالإيمان (٦٨ : ٣٩ ، ٤٠ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة : إن لكم لما تحكمون ؟ سَلْهُمْ : أيُّهم بذلك زَعِيم ؟)

يا آمناً من قبيح الفعل يصنعه * هلا أتاك تواقيع ، أم أنت تملكه ؟
جمعت شيئين : أمناً ، واتباع هوى * هذا ، وإحداهما فى المرء تهلكه
والمحسنون على دَرب المخاوف ، قد * ساروا وذلك دَرْبٌ لست تسلكه
فرَّطت فى الزرع وقت البذر من سَفَهٍ * فكيف عند حصاد الناس تدركه ؟
هذا . وأعجب شىء منك زهدك فى * دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفيه إذاً ؟ بالله . أنت ، أم المغـ * ـبون فى البيع غَبْناً سوف تدركه ؟

فصل

ومن عقوباتها : أنها تعمى القلب ، فان لم تُعْمِهِ أضعفت بصيرته ولا بد . وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد . فاذا عمى القلب وضعف فاته من معرفة الهدى ومن قوته على تنفيذه فى نفسه وفى غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته

فان كمال الانسان مداره على أصلين : معرفة الحق من الباطل ، وإيثار الحق على الباطل . وما تفاوتت مَنازل الخلق عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم فى هذين الأمرين ؛ وهما اللذان أثنى الله بهما سبحانه على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، فى قوله تعالى (٣٧ : ٤٥ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار) فالأيدى : القوة فى تنفيذ الحق . والأبصار : البصائر فى الدين ، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه . وانقسم الناس فى هذا المقام أربعة أقسام ، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى

القسم الثانى : عكس هؤلاء ، من لا بصيرة له فى الدين ولا قوة على تنفيذ الحق

وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح، وسقم القلوب يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة فى الهدى ومعرفة به، لكنه ضعيف لاقوة له على تنفيذه ولا الدعوة اليه. وهـذا حال المؤمن الضعيف. والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله منه.

القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة فى الدين، لايكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة. يحسب الورم شحما والدواء النافع سما

وليس فى هؤلاء من يصلح للامامة فى الدين ولا هو موضع لها سوى القسم الأول. قال الله تعالى (٣٢: ٢٤ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فأخبر سبحانه أنهم بالصبر واليقين بآيات الله نالوا الإمامة فى الدين. وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر ـ الذى هو زمن سعى الخاسرين والرابحين ـ على أن من عداهم فهو من الخاسرين، فقال تعالى (والعصر إن الانسان لفى خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصى بعضهم بعضا ويرشده اليه، ويحثه عليه. فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين. فمعلوم أن المعاصى والذنوب تعمى بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغى، وتضعف قوته وعزيمته، فلا يصبر عليه، بل قد تتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره. فيدرك الباطل حقاً والحق باطلا، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، فينتكس فى سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة، التى رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه. ولو لم يكن فى عقوبة الذنوب إلا هـذه وحدها لكانت كافية داعية إلى تركها والبعد منها. والله المستعان.

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله، وتقويه وتثبته ؛ حتى يصير كالمرآة المجلوة فى جلائها وصفائها فيتلألأ نوراً . فاذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب . فالشيطان يَفْرَق من هذا القلب أشدَّ من فرق الذئب من الأسد . حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا . فيجتمع عليه الشياطين . فيقول بعضهم لبعض : ماشأنه ؟ فيقال : أصابه إنسى . وبه نظرة من الانس

فيا نظرة من قلب حُرٍّ مُنَوَّرٍ * يكاد لها الشيطان بالنور يُحرق

أفيستوى هذا القلب وقلبٌ مظلمة أرجاؤه . مختلفة أهواؤه . قد اتخذه الشيطان وطنه ؛ وأعده مسكنه . إذا تصبَّح بطلعته حياه ، وقال : فديت من قرين لا يفلح فى دنياه ولا فى أخراه ؟

أنا قرينك فى الدنيا وفى الحشر بعدها * فأنت قرين لى بكل مكان
فان كنت فى دار الشقاء ، فاننى * وأنت جميعا فى شقا وهوان

قال الله تعالى (٤٣ : ٣٦-٣٩ ومن يَعْشُ [١] عن ذكر الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً [٢] فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال : ياليت بينى وبينك بُعد المشرقين . فبئس القرين [٣] . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) فأخبر سبحانه أن من عشى عن ذكره ، وهو كتابه الذى أنزل على رسوله ﷺ وبارك فيه ، فأعرض عنه وعمى عنه ، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه ، قَيَّضَ الله له شيطانا ، عقوبةً له على إعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذى لا يفارقه ، لا فى الاقامة ولا فى المسير . وهو مولاه وعشيره الذى هو بئس المولى و بئس العشير

---

(١) يعش أى يعمى فلا يبصر والمراد عمى البصيرة (٢) قيض الله لفلان شيطاناً أى جاءه به وأتاحه له من نفسه وأعماله (٣) أى المقارن الملازم الذى لا يفارقه فى الدنيا ولا فى الآخرة

رضيعا لِبانٍ ثَدىَ أُمٍّ ، تقاسما * بأسْحَم داجٍ عَوَضُ ، لا نتفرق [١]

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان لَيَصُدَّ قرينه ووليَّه عن سبيل الله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى ، حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : ياليت بيني وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين كنت لى فى الدنيا، أضللتنى عن الهدى إذا جاءني . وصددتنى عن الحق وأغويتنى ، حتى هلكت ، وبئس القرين أنت لى اليوم . ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته حصل له بالتأسى نوع تخفيف وتسلية أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين فى العذاب ، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه ، وإن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمت صارت مَسْلاة ، كما قالت الخنساء فى أخيها صَخْرٍ :

ولولا كثرة الباكين حولى　　على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى، ولكن　　أُعَزِّى النفس عنه بالتأسى
ألا ياصخر ، لا أنساك حتى　　أفارق عيشتى وورود رَمْسِى

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون)

فصل

ومن عقوباتها : أنها مدد من الانسان يَمُدُّ به عدوه عليه . وجيش يقويه به على حربه . وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الانسان بعدو لايفارقه طَرْفة عين.

---

(١) البيت للأعشى، يصف ممدوحه بأنه والندى رضيعا لبان ، يعنى أنهما أخوان من أم واحدة لا يفترقان . وتقاسما ، أى حلفا وأقسما. والاسحم الداجى : المقسم به ، وهو الليل ، أو الثدى الذى رضعاه ، قيل له ذلك :لسواد حلمته . من كثرة ما أرضع . وعوض ، يعنى أبداً ، يريد أنهما أقسما لا يفترقان أبدا .

صاحبه ينام وهو لاينام عنه ، و يَغفل وهو لا يغفل عنه . يراه هو وقبيله (١) من حيث لايراه . يبذل جهده فى معاداته بكل حال . ولايدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله . و يستعين عليه ببنى جنسه ، من شياطين الإنس وغيرهم من شياطين الجن . وقد نصب له الحبائل . و بغى له الغوائل ، ومدّ حوله الأشراك ، ونصب له الفخاخ والشباك . وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لايفوتكم ، ولايكون حظُّه الجنة وحظكم النار . ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة . وقد علمتم أن ماجرى علىّ وعليكم من الخزى واللعن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله . فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا فى هذه البلية . إذ قد فاتنا شركة صالحيهم فى الجنة .

ولما علم سبحانه أن آدم و بنيه قد بُلوا بهذا العدو وسُلِّط عليهم أمدّهم بعساكر وجند يلقونه بها ، وأمدّ عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم بها . وأقام سوق الجهاد فى هذه الدار فى مدة العمر ، التى هي بالاضافة إلى الآخرة كنفَس واحد من أنفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون و يقتلون ، وأخبر أن ذلك وعداً مؤكداً عليه فى أشرف كتبه ، وهى التوراة والانجيل والقرآن ، ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه ، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التى مَنْ أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشترى من هو ؟ و إلى الثمن المبذول فى هذه السلعة ، و إلى من جرى على يديه هذا العقد ، فأى فوز أعظم من هذا ؟ وأى تجارة أربح منه ؟

ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله (٦١ . ١٠ ــ ١٣ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله

---

(١) القبيل : الجماعة المتصاحبة ، تكون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى

بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبةً فى جنات عَدْن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين) ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذى هو أحب المخلوقات اليه إلا لأن الجهاد أحبُّ شيء إليه ، وأهله أرفع الخلق عنده درجات ، وأقربهم إليه وسيلة . فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذى هو محل معرفته ومحبته وعبوديته والاخلاص له ، والتوكل عليه والإنابة اليه ، فولاَّه أمر هذه الحرب وأيَّده بجند من الملائكة لايفارقونه (١٣ : ١١ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) يَعْقُب بعضهم بعضاً ، كلما جاء جندٌ وذهب جاء بدله آخر ، يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه ، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه ، ويقولون : إنما هو صبر ساعة ، وقد استرحت راحة الأبد ، ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه . فأرسل إليه رسوله ﷺ ، وأنزل إليه كتابه ، فازداد قوة إلى قوته ومددا إلى مدده ، وعُدَّة إلى عدته ، وأمدَّه مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً ، وبالمعرفة مشيرةً عليه وناصحة له ، وبالايمان مثبتاً له ومؤيداً وناصراً ، وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر ، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه ، فالعقل يدبر أمر جيشه ، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها ، والايمان يثبته ويقويه ويصبره واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة . ثم أَمَدَّ سبحانه القائم بهذه الحرب بالقُوَى الظاهرة والباطنة . فجعل العين طليعته ، والأذن صاحب خبره . واللسان ترجمانه . واليدين والرجلين أعوانه . وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له . ويسئلون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات . وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه وقال (٥٨ : ٢٢ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) وهؤلاء جنده (٣٧ : ١٧٣ وإن جندنا لهم الغالبون) وعلم عباده كيفية هذه الحرب والجهاد فجمعها

لهم فى أربع كلمات فقال (٣: ٢٠٠ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) ولا يتم أمر الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة . فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو، وهى مقاومته ومنازلته، فاذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهى المرابطة ، وهى لزوم ثغر القلب وحواسه ، لئلا يدخل منه العدو . ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل . فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار و يفسد ماقدر عليه . فالمرابطة لزوم هذه الثغور ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغور خالية فيدخل منها .

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين، أعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم ، وقد خَلّوا المكان الذى أمروا بلزومه يوم أُحد ، فدخل منه العدو ، فكان ما كان (١) .

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذى تقوم به: هو تقوى الله . فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى . ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر .

فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين، واصطدام العسكرين .وكيف يدال لك مرة . و يدال عليك أخرى ؟ أقبل مَلك الكفرة بجنوده وعساكره . فوجد القلب فى حصنه جالساً على كرسى مملكته ، أمرُه نافذ فى أعوانه ، وجنده قد أحاطوا به. يقاتلون عنه و يدافعون عن حَوْزته . فلم يمكنهم الهجوم عليه إلا بمخامرة (٢) بعض أمرائه وجنده عليه . فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة ؟ فقيل له : هى النفس . فقال لأعوانه : ادخلوا عليها من مرادها، وانظروا مواقع محبتها وماهو محبوب بها، فَعِدُوها به و مَنُّوها إياه . وانقشوا صورة المحبوب فيها فى يقظتها ومنامها . فاذا اطمأنت اليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ، ثم جروها بها إليكم . فاذا خامرت على القلب ، وصارت معكم عليه

---

(١) ذلك أن الرماة الذين أمرهم رسول الله ﷺ أن يلزموا مكانهم ويحفظوا ظهر الجيش، ولا يفارقوه حتى يأتيهم أمره ،قد خلوا مكانهم، وأسرعوا يطلبون الغنيمة ، ظنا منهم أن المعركة قد انتهت ، وخالفوا الأمر ، فهجم كمين المشركين وكانت الفتنة . (٢) المخامرة : الغش والمخادعة ممن تظنه معك .

ملكتم ثغر العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل ، فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة . فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل أو أسير . أو جريح مثخن بالجراحات . ولا تخلوا هذه الثغور . ولا تمكنوا سرية تدخل منها إلى القلب فتخرجكم منه . وإن غلبتم فاجتهدوا فى إضعاف السرية ووهنها ، حتى لا تصل إلى القلب . فان وصلت إليه وصلت ضعيفة لاتغنى عنه شيئا . فاذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره إعتباراً ، بل اجعلوا نظره تفرجا واستحسانا وتلهيا . فان استرق فى نظرة عبرة ، فأفسدوها عليه بنظرة الغفلة والاستحسان والشهوة ، فانها أقرب إليه وأعلق بنفسه ، وأخف عليه . ودونكم ثغر العين فان منه تنالون بغيتكم . فانى ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر . فانى أبذر به فى القلب بذر الشهوة . ثم أسقيه بماء الأمنية . ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوى عزيمته . وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة . فلا تهملوا أمر هذا الثغر . وأفسدوه بحسب استطاعتكم ، وهونوا عليه أمره . وقولوا له :مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق والرزاق البديع . والتأمل . والتجمل صفته . وحسن هذه الصورة التى إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه . وما خلق الله لك العينين سدى . وما خلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر . وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل . فقولوا له : هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه . فادعوه إلى القول بالاتحاد . فان لم يقبل فالقول بالحلول العام والخاص [1]

---

(١) يشير الشيخ إلى مذهب الصوفية ومعتقدهم الوثنى . وحقيقته — كما شرحه عبد الغنى النابلسى وغيره من شيوخهم — هو : أن ذلك الوجود المحض الذى هو الحق تعالى — هو حقيقة جميع الموجودات . فهو وجودها الذى هى موجودة به ، لا وجود لها غيره ، وهو باطنها الذى هو غيب مطلق عنه . ولذلك الوجود الحق مراتب . فالمرتبة الأولى: مرتبة اللاتعين ، وتسمى مرتبة الاطلاق الحقيقى . وهو فيها منزه عن النعوت والصفات . وهذه هى المرتبة الأحدية . وهى كنه الحق . المرتبة الثانية: مرتبة التعين الأول . وهى عبارة عن علمه بذاته =

ولا تقنعوا منه بدون ذلك ، فانه يصير به من إخوان النصارى . فمروه حينئذ بالعفة والصيانة . والعبادة والزهد فى الدنيا . واصطادوا عليه و به الجهال. فهذا من أقرب خلفائى . وأكبر جندى . بل أنا من جنده وأعوانه

فصل

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل عليه مايفسد عليكم الأمر ، فاجتهدوا أن لاتدخلوا منه إلا الباطل ، فانه خفيف على النفس ، تستحليه وتستملحه ، وتخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب ، وامزجوه بما تهوى النفس مزجاً ، وألقوا الكلمة . فان رأيتم منه إصغاء إليها فزيدوه بأخواتها . فكلما صادفتم منه استحسان

= بجميع صفاته وبجميع الموجودات على وجه الاجمال ، بحيث لاتتميز الذات عن الصفات ولا الذات الحق عن ذات المخلوقات؛ وتسمى مرتبة الوحدة ، أو الحقيقة المحمدية — إلى أن قال — : ومشاهدة جميع الموجودات حاصلة له تعالى عند اندراج الكل فى بطون ذاته ووحدته ، كشهود الشىء المفصل فى الشىء المجمل قبل التفصيل، وشهود الكثير فى الواحد ، وكالنخلة مع أغصانها وتوابعها من العراجين والثمر والسعف مندرج فى النواة الواحدة غير متميز فى نفسه ، وهو تلك النواة — إلى أن قال — : وأن ذلك الوجود باعتبار محض اطلاقه سار فى جميع ذوات المخلوقات كلها التى هى اعتبارات منه ولا وجود لها فى نفسها أصلا بحيث يكون ذلك الوجود الحق فى تلك الذوات هو عين تلك الذوات كما كانت ذوات المخلوقات قبل الظهور عين ذلك الوجود المطلق — فما ثم الا الوجود الحق وأن صفات الوجود الحق هى المخلوقات كلها بجميع أجزائها الظاهرة والباطنة . فهذه الموجودات كلها أعراض . والمعروض هو الوجود الحق اه .

وهذا ماينعق به الصوفية فى كل عصر ومصر ، يحاربون به الله وكتبه ورسله وشرائعه . وتجد ذلك صريحا فى كتب شيوخهم ومعظميهم ، كجلال الدين الرومى وعبد الكريم الجيلى وابن سبعين والعفيف التلمسانى وفى أحزاب الشاذلى والتيجانى والدسوقى ، وأصرح الجميع ابن عربى وابن الفارض وابن سبعين وعلى وفا . وكتبهم مثل الفتوحات — والفصوص وغيرها طافحة بذلك . والناس بها مفتنون لأنهم لايعقلون

شيء فالهجوا له بذكره . وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء . فإن غُلبتم على ذلك ودخل شيء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والاتعاظ به، إما بادخال ضده عليه، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه، وإفهامه أن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه، وهو حِمْل ثقيل عليها لا تستقل به ونحو ذلك . وإما بارخاصه على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس وأعزّ عليهم، وأغرب عندهم وزبونه أكثر . وأما الحق فهو مهجور، والقائل به معرِّضٌ نفسه للعدوان . والربح بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك، فيدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه ويخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه .

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الانس، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول، وتتبع عثرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيق، وإلقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك، ويخرجون اتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ في قالب التشبيه والتجسيم والتكييف، ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيُّزاً، ويسمون نزوله إلى سماء الدنيا وقوله «من يسألني فأعطيه» تحركا وانتقالا ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث، وما يقوم به من صفاته أعراضاً، ثم يتوصلون إلى نفي ما وصف به نفسه بهذه الأمور، ويوهمون الأغمار[1] وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تستلزم هذه الأمور، ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم . وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ ويردونه بعينه بلفظ آخر . قال الله تعالى

(١) جمع غمر — بضم الغين وسكون الميم — الغبي الغافل الذي لم يجرب الأمور . ولم ينتفع بنعمة الله عليه في السمع والبصر والفؤاد

(٦ : ١١٢ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يُوحى بعضهم إلى بعض زُخرُفَ القول غرورا) فسماه زخرفاً ، وهو القول الباطل ، لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ، ويلقيه إلى سمع المغرور ، فيغتر به .

والمقصود: أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها مايضر العبد ، ويمنع أن يدخل إليها ماينفعه ، وإن دخله بغير اختياره أفسده عليه .

فصل

ثم يقول : قوموا على ثغر اللسان ، فإنه الثغر الأعظم ، وهو قبالة الملك فأجروا عليه من الكلام مايضره ولا ينفعه ، وامنعوه أن يجرى عليه شيء مماينفعه من ذكر الله واستغفاره ، وتلاوة كتابه . ونصيحة عباده . أو التكلم بالعلم النافع ويكون لكم فى هـذا الثغر أمران عظيمان . لاتبالون بأيهما ظفرتم :

أحدهما : التكلم بالباطل ، فانما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم .

الثانى : السكوت عن الحق . فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس . كما أن الأول أخ لكم ناطق . وربما كان الأخ الثانى أنفع إخوانكم لكم . أما سمعتم قول الناصح «المتكلم بالباطل شيطان ناطق . والساكت عن الحق شيطان أخرس»؟

فالرباطَ الرباطَ على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل . وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق . وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق .

واعلموا يابنى أن ثغر اللسان هو الذى أُهلك منه بنى آدم وأُكِبُّهم منه على مناخرهم فى النار (١) فكم لى من قتيل وأسير وجريح ؟ أخذته من هذا الثغر .

وأوصيكم بوصية فاحفظوها : لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة ، ويكون الآخر على لسان السامع ، فينطق باستحسانها وتعظيمها

(١) أكبهم : أى صرعهم وألقيهم

والتعجب منها ، ويطلب من أخيه إعادتها ، وكونوا أعوانا على الانس بكل طريق وادخلوا عليهم من كل باب ، واقعدوا لهم كل مرْصد أما سمعتم قسمى الذى أقسمت به لربهم حيث قلت (٧ : ١٦ ، ١٧ فبما أغويتنى لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خَلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين) أما ترونى قدقعدت لابن آدم بطرُقه كلها ، فلا يفوتنى من طريق إلا قعدت له من طريق غيره ، حتى أصيب منه حاجتى أو بعضها ؟ وقد حذرهم ذلك رسول الله ﷺ وقال لهم « إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها ، قعد له بطريق الاسلام ، فقال له : أتُسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه وأسلم . فقعدله بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك فخالفه وهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال : أتجاهد فتقتل ويُقسم المال وتُنكح الزوجة ؟ فخالفه وجاهد » فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير . فاذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة ، وقولوا له فى نفسه : أتخرج المال وتبقى مثل هذا السائل ، وتصير بمنزلته أنت وهو سواء ؟ أو ما سمعتم ما ألقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه فقال : أموالنا إذا أعطيناكموها صرنا مثلكم . واقعدوا له بطريق الحج ، فقولوا له : طريقه مخوفة مشقة ، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعوباتها وآفاتها . ثم اقعدوا لهم على طريق المعاصى فحسنوها فى عين بنى آدم ، وفى قلوبهم ، واجعلوا أكبر أعوانكم على ذلك النساء ؛ فمن أبوابهن فادخلوا عليهم وزينوها فنعم العون هن لكم

ثم الزموا ثغر الأيدى والأرجل فامنعوها أن تبطش بما يضركم أو تمشى فيه.

واعلموا أن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمارة فأعينوها واستعينوا بها ، وأمدوها واستمدوا منها ، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة . فاجتهدوا فى كسرها و إبطال قواها . ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها ، فانها إذا انقطعت موادها قويت موادالنفس الأمارة ، وأطاعت لكم أعوانها

فاستنزلوا القلب من حصنه واعزلوه عن مملكته ، وولوا مكانه النفس الأمارة ، فانها لاتأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ، ولاتحكم بما تكرهونه ألبتة، مع أنها لاتخالفكم فى شيء تشيرون به عليها . بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله . فان أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته ، وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس الأمارة عقد النكاح فزينوها وجملوها ، وأروها إياه فى أحسن صورة عروس توجد . وقولوا له : ذُقْ حلاوة طعم هذا الوصال ، والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب ، ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة ، فدع الحرب تضع أوزارها ، فليست بيوم وينقضى ، وإنما هى حرب متصل بالموت ، وقواك تضعف عن مداومة الحرب

واستعينوا يابنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما :

أحدهما : جند الغفلة ، فأغفلوا قلوب بنى آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق ، فليس لكم شيء أبلغ فى تحصيل غرضكم من ذلك ، فان القلب إذا غفَل عن الله تعالى تمكنتم منه ومن أعوانه .

الثانى : جند الشهوة فزينوها فى قلوبهم ، وحسنوها فى أعينهم ، وصُولوا عليهم بهذين العسكرين . فليس لكم فى بني آدم أبلغ منهما . واستعينوا على الغفلة بالشهوات وعلى الشهوات بالغفلة ، واقرنوا بين الغافلين ، ثم استعينوا بهما على الذاكر ، ولايغلب واحد خمسة ، فان مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة ، وشيطان الذاكر معهم . وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على مايضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ، ولم تقدروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببنى جنسهم من الانس البطالين ، فقربوهم منهم ، وشوشوا عليهم بهم .

وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها ، وادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته ، فساعدوه عليها ، وكونوا له أعواناً على تحصيلها . وإذا كان الله قد أمرهم بالصبر أن يصبروا لكم ، ويصابروكم ، ويرابطوا عليكم الثغور ، فاصبروا

أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور . وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب ، فلا تصطادوا بنى آدم فى أعظم من هذين الموطنين .

واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور ، فخذوا عليه طريق الشهوة ، ودعوا طريق الغضب . ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب ، فلا تخلوا طريق الشهوة عليه ، ولا تعطلوا ثغرها . فان من لم يملك نفسه عند الغضب فانه بالحرى أن لا يملكها عند الشهوة فزوجوا بين غضبه وشهوته . وامزجوا أحدهما بالآخر . وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب ، وإلى الغضب من طريق الشهوة ، واعلموا أنه ليس لكم فى بنى آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين . وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب . فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماءهم وبه قتل أحد ابنى آدم أخاه .

واعلموا أن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم . والشهوة نار تثور من قلبه ، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير . فإياكم أن تمكنوا بنى آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة ، فان ذلك يطفىء عنهم نار الغضب والشهوة . وقد أمرهم نبيهم بذلك وقال « إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم من احمرار عينيه ، وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحسَّ بذلك فليتوضأ » وقال لهم « إنما تطفأ النار بالماء » وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة ؛ فحولوا بينهم وبين ذلك ، وأنسوهم إياهم واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب . وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها : الغفلة واتباع الهوى . وأعظم أسلحتهم فيكم . وآمن حصونهم : ذكر الله[1] ومخالفة الهوى . فاذا رأيتم الرجل

(١) ليس المقصود من ذكر الله أن يلوك بلسانه ويسرد من حفظه التهليل أو التسبيح او التكبير أو الدعاء أو غيرها من ألفاظ الذكر كما يحرص عليه المقلدون الغافلون . وإنما المقصود : أن يكون قلبه حاضرا شاهدا آيات الله ونعمه ورحمته وحكمته فى نفسه وفى كل شىء ، وأنه العليم الحكيم الذى ما خلق شيئا من ذلك باطلا ولا عبثا ، وأنه سبحانه ما أنعم بهذه النعم الجميلة الحسنة إلا ليحسن الانسان =

مخالفاً لهواه فاهربوا من ظِلّهِ ولا تدنوا منه .

والمقصود : أن الذنوب والمعاصى سلاح ومَدَد يمد بها العبد أعداءه ، و يعينهم بها على نفسه . فيقاتلونه بسلاحه . والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل والسفه . قال الشاعر :

ما يبلغ الأعداء من جاهل * ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومن العجائب : أن العبد يسعى بنفسه فى هوان نفسه ، وهو يزعم أنه لها مكرم ، و يجتهد فى حرمانها من حظوظها وشرفها ، وهو يزعم أنه يسعى فى حظها . و يبذل جهده فى تحقيرها وتصغيرها وتدسيتها ، وهو يزعم أنه يسعى فى صلاحها ويعليها و يرفعها و يكبرها .

وكان بعض السلف يقول فى خطبته : ألا رُبَّ مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومُذلٍّ لنفسه وهو يزعم أنه لها مُعِزٌّ ، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبِّر ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحقها ؟ وكفى بالمرء جهلا أن يكون مع عدوه على نفسه ، يبلغ منها بفعله ما لا يبلغه منها عدوه . والله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تنسى العبد نفسه ، فاذا نسى نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه ؟ و إذا نسى نفسه ، فأيَّ شىء يذكر ؟ وما معنى نسيانه نفسه ؟

قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان .قال تعالى(٥٩ :١٩ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى (٩ : ٦٧ نسوا الله فنسيهم) فعاقب سبحانه من نسيه

ــــــــ

= وضعها فى موضعها الذى جعله لها العليم الحكيم ، وأخص ذلك وأعظمه كتابه المنير ورسوله ﷺ فمن فقهه مع كل ذلك وشهده وأحسن الانتفاع والاستفادة منه . فهو الذاكر الله كثيرا

عقوبتين: إحداهما أنه سبحانه نسيه ، والثانية أنه أنساه نفسه . ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته . فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم . وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية ، وأسباب سعادتها وفلاحها وإصلاحها وما يكملها ، ينسيه ذلك جميعه، فلا يُخطره بباله ولا يجعله على ذكره ، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه . فانه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره .

وأيضا ينسبه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها . فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها .

وأيضا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها ، فلا يُخطر بقلبه مداواتها ، ولا السعى فى إزالة عللها وأمراضها التى تؤول بها إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ، ومرضه مترام به إلى التلف ،ولا يشعر بمرضه ، ولا يخطر بباله مداواته . وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة .

فأى عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ، ونسى مصالحها وداءها ودواءها ، وأسباب سعادتها وصلاحها وفلاحها وحياتها الأبدية فى النعيم المقيم ؟

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله ، و باعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن ،و إنما يظهر لهم هذا عندالموت، و يظهر هذا كلّ الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن فى العقد لنفسه فى هذه الدار ، والتجارة التى اتجر فيها لمعاده . فان كل أحد يتّجر فى هذه الدنيا لآخرته .فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها . فاذهبوا طيباتهم ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها فى حياتهم الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم فيها ، واستمتعوا بها ورضوا بها ، واطمأنوا اليها ، وكان سعيهم لتحصيلها ، فباعوا واشتروا واتّجروا و باعوا آجلا بعاجل ، ونسيئة بنقد ، وغائبا بناجز . وقالوا : هذا هو الزهرة . و يقول أحدهم :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به

فكيف أبيع حاضراً نقداً شاهداً فى هذه الدار بغائب نسيئة فى دار أخرى غير هذه ؟ وينضم إلى ذلك ضعف الايمـان ، وقوة داعى الشهوة ومحبة العاجلة

والتشبه ببنى الجنس . فأكثر الخلق فى هـذه التجارة الخاسرة التى قال الله فى أهلها (٢:٨٦ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يُخَفَّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) وقال فيهم (٢:١٦ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) فاذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن فى هذه التجارة، فتتقطع منهم النفوس حسرات .

وأما الرابحون فانهم باعوا فانياً بباق ، وخسيساً بنفيس ، وحقيراً بعظيم ، وقالوا: ما مقدار هـذه الدنيا من أولها الى آخرها ؟ حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها ؟ فكيف بما ينال العبد منها فى هذا الزمن القصير الذى هو فى الحقيقة كغفوة حلْم ، لا نسبة له الى دار القرار ألبتة . قال تعالى (١٠:٤٥ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) وقال تعالى (٧٩:٤٢ ـ ٤٦ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ؟ الى ربك مُنتهاها . إنما أنت منـذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عَشِيَّةً أو ضُحاها) وقال تعالى (٤٦:٣٥ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ) وقال تعالى (٢٣:١١٢ـ١١٤ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل العادين . قال: إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) وقال تعالى (٢٠ : ١٠٢ ـ ١٠٤ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئـذ زُرْقاً . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً . نحن أعلم بما يقولون ، إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوما) فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة . فلما علموا قلة لبثهم فيها ، وأن لهم داراً غير هـذه الدار ، دار الحيوان ودار البقاء رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفنـاء ، فاتجروا تجارة الأكياس ، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس . فظهر لهم يومَ التغابن ربح تجارتهم ومقـدار ما اشتروه ، وكل أحد فى هـذه الدنيا بائع ، مشترٍ مُتَّجِر . و « كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقهـا أو موبقها » (٩:١١١ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنـة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويُقتلون ، وَعْداً عليه

حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة . فتاجروا أيها المفلسون . ويامن لا يقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر . فان كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن[1] (٩:١١٢ التائبون العابدون ، الحامدون، السائحون الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله و بشر المؤمنين) (٦١:١٠ يا أيها الذين آمنوا ، هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)

والمقصود: أن الذنوب تنسي العبد حظه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة . والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها : أنها تزيل النعم الحاضرة ، وتقطع النعم الواصلة . فتزيل الحاصل وتمنع الواصل . فان نعم الله ما حُفظ موجودها بمثل طاعته ، ولا استُجلب مفقودها بمثل طاعته ، فان ماعند الله لا يُنال إلا بطاعته . وقد جعل الله سبحانه لكل شىء سبباً وآفة : سببا يجلبه ، وآفة تبطله . فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته ، وآفاتها المانعة منها : معصيته . فاذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها .

ومن العجب : علم العبد بذلك مشاهدة فى نفسه وغيره . وسماعا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه ، وهو مقيم على معصية الله ، كأنه

(١) وهل يقدر قدر ثمن بيع النفس والمال لله إلا التائبون الذين يرجعون فى كل أمرهم إلى الله وحده ، العابدون: الذين عرفوا حق الربوبية فأعطوه عبودية خالصة لربهم رب العالمين ، الحامدون: الذين يرون كل ما أعطاهم الله وصنع لهم جميلا ، ليس فيه إساءة ولا قبح من أى ناحية ، فقابلوه بالجميل من الثناء بالقول والعقيدة والعمل ، السائحون الخ ؟ !

مستثنى من هذه الجملة ، أو مخصوص من هذا العموم . وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه ، واوصل إلى الخلق لا إليه .

فأى جهل أبلغ من هذا ؟ وأى ظلم للنفس فوق هذا ؟ فالحكم لله العلى الكبير

فصل

ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه ، وأنصح الخلق له . وأنفعهم له وَمَنْ سعادته فى قربه منه ، وهو الملك الموكل به . وتدنى منه عدوه وأغش الخلق وأعظمهم ضرراً له . وهو الشيطان . فان العبد إذا عصى الله تباعدمنه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة . وفى بعض الآثار « إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نَتْن ريحه » . فاذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة ، فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك ، وأفحش منه ؟

وقال بعض السلف : إذا ركب الذَّكرُ الذَّكرَ عجَّت الأرض إلى الله ، وهربت الملائكة إلى ربها ، وشكت إليه عظم مارأت .

وقال بعض السلف : إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان ، فان ذكر الله وكبَّره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه ، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له ، فتتولاه الملائكة فى حياته وعند موته وعند مبعثه . قال الله تعالى (٤١ : ٣٠ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة : أن لاتخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفي الآخرة) وإذا تولاه الملك تولاه أنصحُ الخلق له ، وأنفعهم وأبرهم به . فثبَّته وعلمه . وقوَّى جنانه ، وأيَّده قال تعالى (٨:١٢ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم . فثبتوا الذين آمنوا) ويقول الملك للعبد عند الموت « لاتخف ولاتحزن وأبشر بالذى يسرك » ويثبته بالقول الثابت أحوج مايكون إليه فى الحياة الدنيا . وعند الموت . وفى القبر عند المسألة

فليس شيء أنفع للعبد من صحبة الملك له . وهو وليه فى يقظته ومنامه . وحياته وعند موته وفى قبره . ومؤنسه فى وحشته . وصاحبه فى خلوته . ومحدثه فى سره ويحارب عنه عدوه ، ويدافع عنه ويعينه عليه ، ويَعِدُه بالخير ويبشره به ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء فى الأثر الذى يروى مرفوعاً وموقوفاً « للملك بقلب ابن آدم لَمَّة[1] وللشيطان لَمَّة ، فلمَّة الملك: إيعاد بالخير وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان . إيعاد بالشر وتكذيب بالحق »

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول السديد . وإذا بعد منه وقرب الشيطان من العبد ، تكلم على لسانه قول الزور والفحش، حتى يرى الرجل يتكلم على لسان الملك ،والرجل يتكلم على لسان الشيطان .

وفى الحديث « إن السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه » وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول : ما ألقاها على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها ، فيقول : ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان ، فالملك يلقى فى القلب الحق ، ويلقيه على اللسان .والشيطان يلقى الباطل فى القلب ، ويجريه على اللسان .

فمن عقوبة المعاصى : أنها تبعد من العبد وليه الذى سعادته فى قربه ومجاورته وموالاته . وتدنى منه عدوه الذى شقاؤه وهلاكه وفساده فى قربه وموالاته . حتى إن الملك لينافح[2] عن العبد ، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه. كما « اختصم بين يدى النبى ﷺ رجلان[3] ، فجعل أحدهما يسب الآخر ، وهو ساكت ، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه، فقام النبى ﷺ فقال: يارسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت . فقال : كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس » وإذا دعا العبد المسلم بظهر الغيب لأخيه أمَّن الملك على دعائه فقال « ولك بمثل ذلك » وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمَّن على دعائه، فإذا أذنب

---

(١) اللمة بفتح اللام: من ألم به نزل نزولا خفيفاً ومعناه الخطرة فى القلب

(٢) أى يدافع (٣) أحدهما أبو بكر رضى الله عنه وهو الذى كان ساكتاً ثم رد

العبد الموحد المتبع سبيل الله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله. وإذا نام العبد المؤمن بات في شعاره [١] ملك، فملك المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه، ويثبته ويشجعه. فلا يليق به أن ينسى جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده. فانه ضيفه وجاره. وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الايمان وموجباته. فما الظن باكرام أكرم الأضياف. وخير الجيران وأبرهم؟ وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال «لاجزاك الله خيرا» كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان. قال بعض الصحابة رضي الله عنهم «إن معكم من لا يفارقكم، فاستحيوا منهم، وأكرموهم»

ومن ألأم ممن لا يستحيي من الكريم العظيم القادر، ولا يكرمه ولا يوقره. وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله (٨٢ : ١٠ – ١٢ وإن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون) أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم. والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم. وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها: أنها تستجلب مواد هلاك العبد في دنياه وآخرته. فإن الذنوب هي أمراض القلوب، متى استحكمت قتلت ولابد. وكما أن الجسم لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الردية التي متى غلبت عليه أفسدته جميعه، وحمية يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره

---

(١) الشعار: ما يلي الجسم من الثياب

فكذلك القلب لاتتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ بها المواد الفاسدة والأخلاط الردية منه ، وحمية توجب له حفظ صحته ، واجتناب مايضادها ، وهى عبارة عن ترك استعمال مايضاد الصحة . والتقوى : اسم يتناول هذه الأمور الثلاثة . فما فات منها فات من التقوى بقدره .

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة . فانها تستجلب المواد المؤذية ، وتستوجب التخليط المضاد للجميع ، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح . فانظر إلى جسم عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض وهو لايستفرغها ، ولا يحتمى لها ، كيف تكون صحته و بقاؤه ؟ ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية أحصنته ... مخافة من ألم طارى

وكان أولى بك أن تحتمى ... من المعاصى خشية البارى

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر ، واستعمل الحمية باجتناب النواهى ، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح لم يدع للخير مطلبا ، ولا من الشر مهرباً . والله المستعان.

فصل

فإن لم تَرُعْكَ (١) هذه العقوبات ، ولم تجد لها تأثيراً فى قلبك ، فأحضره العقوبات الشرعية التى شرعها الله ورسوله على الجرائم ، كما قطع يد السارق فى ثلاثة دراهم ، وقطع اليد والرجل على قطع الطريق على معصوم المال والنفس ، وشق الجلد بالسوط على كلمة قذَف بها المحصن ، أو قطرة خمر يدخلها جوفه . وقتل بالحجارة أشنع قِتلة فى إيلاج الحشفة فى فرج حرام ، وخفَّفَ هذه العقوبة عمن لم

---

(١) أى لم تخفك من الروع

تم عليه نعمة الاحصان بمائة جلدة ، وَيُنْفَى سنة عن وطنه و بلده إلى بلد الغربة ، وفرق بين رأس العبد و بدنه [١] إذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطيء ذكرا مثله وقتل المفعول به ، وأمر بقتل من أتى بهيمة ، وقتل البهيمة معه ، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة فى الجماعة ، وغير ذلك من العقوبات التى رتبها الله على الجرائم ، وجعلها بحكمته على حسب الدواعى إلى تلك الجرائم ، وعلى حسب الوازع عنها ، فما كان الوازع عنه طبيعيا ، وما ليس فى الطباع داع اليه اكتفى بالتحريم مع التعزير ، ولم يرتب عليه حداً ، كأكل الرجيع ، وشرب الدم ، وأكل الميتة ، وما كان فى الطباع داع إليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته ، و بقدر داعى الطبع إليه ، ولهذا لما كان داعى الطباع إلى الزنى من أقوى الدواعى كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها ، وعقوبته السهلة : الجلد مع زيادة التغريب . ولما كانت اللواطة فيها الأمران كان حدها القتل بكل حال [٢] . ولما كان داعى السرقة قويا ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد .

وتأمل حكمته فى إفساد العضو الذى باشر العبد به الجناية ، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ، ولم يفسد على القاذف لسانه الذى جنى به ،

(١) أى فصلها عن بدنه بالقطع

(٢) لعل الحكمة فى تشديد العقوبة فى زنا المحصن بالرجم . أن الطبع السليم يستنكف منه ويأباه لما يسر الله له من الزوجة الحلال ، والعمل واحد . والشهوة تقضى فى الحلال الطيب كما تقضى فى الحرام الخبيث ، فكان هذا العدوان من فساد الفطرة وسوء استعمال النعمة ، والسفه عن الحكمة . ولذلك جعله الله مثل المشرك فى الحض على البعد عنه وتجنبه خشية قذره وخبثه . وكذلك عقوبة من يعمل عمل قوم لوط ، لأنه عكس للفطرة وكفر بالسنة الكونية التى سنها الحكيم العليم فى الذكورة والانوثة . فمن ثم كانت عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى

إذ مفسدة قطعه تزيد على مفسدة الجناية ولا تبلغها . فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد .

فإن قيل : فهلا أفسد على الزانى فرجه الذى باشر به المعصية ؟

قيل : لا ، بوجوه .

أحدها : أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجنايه ، إذ فيه قطع النسل وتعريضه للهلاك .

الثانى : أن الفرج عضو مستور لايحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناية ، بخلاف قطع اليد .

الثالث : أنه إذا قطعت يده أبقى له يداً أخرى تعوض عنها، بخلاف الفرج.

الرابع : أن لذة الزنى عمت جميع البدن ، فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن ، وذلك أولى من تخصيصها ببَضْعة منه [١] .

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل ، وأقومها بالمصلحة

والمقصود : أن الذنوب إنما ترتب عليها العقوبات الشرعية والقدرية على قدر مفسدة الذنب ، وقد يجمعها الله على العبد . وقد يرفعها عمن تاب وأحسن .

فصل

وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية وقدرية . فاذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها ، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب، ولم يكن فيه زوال دائه ، وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية ، وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ، ولكنها تعم . والشرعية تخص . فان الرب تبارك وتعالى لايعاقب

(١) البضعة ــ بفتح الباء ــ هى القطعة من اللحم ، أى بجزء منه ، هو الفرج

شرعا إلا من باشر الجناية أو تسبب اليها . وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة وخاصة . فان المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها . و إذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة . و إذا رأى الناس المنكر فاشتركوا فى ترك إنكاره أوشك أن يَعُمَّهم الله تعالى بعقابه . وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب ، وتقاضى الطبع لها. وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع : القتل ، والقطع ، والجلد وجعل القتل بازاء الكفر وما يليه و يقرب منه ، وهو الزنى واللواطة ؛ فان هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد الإنسان . قال الامام أحمد رحمه الله « لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنى » واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال : « يارسول الله، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نِداً[1] وهو خلقك . قال قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : قلت : ثم أى ؟ قال : أن تُزانى بحليلة جارك » فأنزل الله تصديقها فى كتابه (٢٥ :٦٨ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ـ الآية)

والنبى ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل فانه سأل عن أعظم الذنب ، فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها ، وما هو أعظم كل نوع . فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نداً . وأعظم أنواع القتل : أن يقتل ولده خشية أن يشاركه فى طعامه وشرابه . وأعظم أنواع الزنى : أن يزنى بحليلة جاره . فان مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحرمة . فالزني بالمرأة التى لها زوج أعظم إثما وعقوبة من الزنى بالتى لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج و إفساد فراشه، وتعليق نسب عليه لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه ، فهو

---

(١) الند : الشبيه والمثيل ولو فى بعض الصفات ، كالحب مع التعظيم والخوف والرجاء . قال الله تعالى (٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) أو فى الطاعة باتباع الامر واجتناب النهى ، قال تعالى (٤٢ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله)

أعظم إثما وجرما من الزنى بغير ذات البعل . فان كان زوجها جاراً له انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، ولذا أجابه بأعلى أنواع الأذى ، وذلك من أعظم البوائق . وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه [1] » ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته ، فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار . فان كان الجار أخاله أو قريباً من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم . فان كان الجار غائباً فى طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعف الاثم ، حتى إن الزانى بامرأة الغازى فى سبيل الله يُوقف له يوم القيامة ويقال : خذ من حسناته ماشئت ، قال النبي ﷺ « فما ظنكم ؟ » أى ماظنكم أنه يترك له من حسنات ، قد حُكِّم فى أن يأخذ منها ماشاء على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ، ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه ؟ فان اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها . فان اتفق أن يكون الزانى محصناً كان الاثم أعظم . فان كان شيخاً كان أعظم إثما ، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . فان اقترن بذلك أن يكون فى شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة تضاعف الاثم . وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها فى الاثم والعقوبة . والله المستعان

فصل

وجعل سبحانه القطع بازاء إفساد الأموال الذى لا يمكن الاحتراز منه . فان السارق لا يمكن الاحتراز منه لأنه يأخذ الأموال فى الخفاء وينقب الدور ، ويتسوَّر من غير الأبواب ، فهو كالسِّنَّور والحيَّة التى تدخل عليك من حيث لا تعلم ، فلم يرفع مفسدة سرقته إلى القتل ؛ ولا تندفع بالجلد ، فأحسن مادفعت به مفسدته إبانة العضو الذى تسلط به على الجناية . وجعل الجلد بازاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف

(١) أى غوائله وشروره ، واحدها بائقة وهى المهلكة

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة ، كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع : العتق ، وهو أعلاها ، والإطعام، والصيام

ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة أقسام : قسماً فيه الحد فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد . وقسماً لم يرتب عليه حداً ، فشرع فيه الكفارة كالوطء فى نهار رمضان ، والوطء فى الاحرام ، والظهار ، وقتل الخطأ ، والحنث فى اليمين ، وغير ذلك . وقسماً لم يرتب عليه حداً ولا كفارة ، وهو نوعان : أحدهما ما كان الوازع عنه طبعياً ، كأكل العَذِرة وشرب البول والدم . والثانى : ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد ، كالنظرة والقُبلة واللمس والمحادثة ، وسرقة فَلْس ونحو ذلك .

وشرع الكفارات فى ثلاثة أنواع :

أحدها : ما كان مباح الأصل ، ثم عرض تحريمه فباشره فى الحالة التى عرض فيها التحريم ، كالوطء فى الاحرام والصيام. وَطردُه : الوطء فى الحيض والنفاس، بخلاف الوطء فى الدبر ، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء فى الحيض لا يصح ، فانه لا يباح فى وقت دون وقت . فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر .

النوع الثانى : ماعقده لله من نذر أو بالله من يمين ، أو حرمه الله ثم أراد حله ، فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماه تَحِلةً ، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث ، كما ظنه بعض الفقهاء ، فان الحنث قد يكون واجباً ، وقد يكون مستحباً ، وقد يكون مباحاً . وإنما الكفارة حلٌّ لما عقده .

النوع الثالث : ما تكون فيه جابرة لما فات ككفارة قتل الخطأ ، وإن لم يكن هناك إثم . وكفارة قتل الصيد الخطأ، وإن لم يكن هناك إثم ، فان ذلك من باب الجوابر ، والنوع الاول من باب الزواجر ، والنوع الوسط : من باب التحِلةً لما منعه العقد . ولا يجتمع الحد والتعزير فى معصية ، بل إن كان فيها حد اكتُفى به وإلا اكتفى بالتعزير . ولا يجتمع الحد والكفارة فى معصية ، بل كل معصية

فيها حد فلا كفارة فيها ، وما فيه كفارة فلا حد فيه . وهل يجتمع التعزير والكفارة فى المعصية التى لا حد فيها؟ فيه وجهان . وهذا كالوطء فى الاحرام والصيام ، ووطء الحائض ، إذا أوجبنا فيه الكفارة فقيل : يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية . وقيل : لا تعزير فى ذلك ، اكتفاء بالكفارة لانها جابرة وماحية

فصل

وأما العقوبات القـدرية فهى نوعان : نوع على القلوب والنفوس . ونوع على الابدان والاموال .

والتى على القـلوب نوعان : أحدهما : آلام وجودية يضرب بها القلب . والثانى : قطع المواد التى بها حياته وصلاحه عنه . وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها . وعقوبة القلوب أشد العقوبتين ، وهي أصل عقوبة الأبدان .

وهذه العقوبة تقوى وتتزايد ، حتى تسرى من القلب إلى البدن ، كما يسرى ألم البدن إلى القلب . فاذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها ، فظهرت عقوبة القلب حينئذ ، وصارت علانية ظاهرة ، وهى المسماة بعذاب القبر . ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار .

فصل

والتى على الأبدان أيضاً نوعان . نوع فى الدنيـا ونوع فى الآخرة ، وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما ترتب عليها فى الشدة والخفة . فليس فى الدنيا والآخرة شر أصلا إلا الذنوب وعقوباتها : فالشر اسم لذلك كله ، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال ، وهما الأصلان اللذان كان النبى ﷺ يستعيذ منهما فى خطبته بقوله « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » وسيئات الأعمال : من شرور النفس ، فعاد الشر كله إلى شر النفس ، فان سيئات الأعمال من فروعه وثمراته .

وقد اختلف فى معنى قوله « ومن سيئات أعمالنا » هل معناه السيء من أعمالنا ، فيكون من باب إضافة النوع إلى جنســه ؟ وتكون من بيانية : وقيل : معناه من عقوباتها التى تسوء ، فيكون التقدير : ومن عقوبات أعمــالنا التى تسوءنا . ويرجح هذا القول: أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر . فان شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة ، وهي تستلزم العقوبات السيئة ، فنبه بشرور الأنفس على ماتقتضيه من قبح الأعمال ، واكتفى بذكرها عنه ، إذ هى أصله ، ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه ، وهى السيئات التى تسوء العبد من عمله ، من العقوبات والآلام .فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه . ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم (٤٠ : ٩ وقِهِم السيئات . ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمتــه) فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التى تسوء صاحبها ، فانه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء ، و إن كان قوله (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) أظهر فى عقوبات الأعمال المطلوب وقايتهم يومئذ منها

فان قيل : فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة . فدل على أن المراد بالسيئة التى سألوا وقايتها: الأعمال السيئة. ويكون الذى سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ :

ولا يرد على هذا قوله (يومئذ) فان المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم ، وهى سيئات فى نفسها .

وقيل: وقاية السيئات نوعان : أحدهما : وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه، والثانى : وقاية جزائها بالمغفرة ، فلا يعاقب عليها . فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية .

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالايمان ، والعمل الصالح ، والاحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم . وقدموا بين يدى استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه ، وسعة رحمته ، فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم

وأسبابها وضعفهم عن العصمة ، واستيلاء عدوهم وأنفسهم ، وهواهم وطباعهم ، وما زين لهم من الدنيا وزينتها ، وعلمه بهم. إذ أنشأهم من الأرض ، وإذ هم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه ، وأنه يحب العفو والمغفرة وغير ذلك من سعة علمه الذى لايحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لايهلك عليه أحـد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته ، فانه واسع الرحمة لايخرج عن دائرة رحمته إلا الاشقياء . ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التى وسعت كل شىء . ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله ، وهو صراطه الموصل إليه الذى هو معرفته ومحبته وطاعتـه فيما أمر ، وترك ما يكره . فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل التى يحبها. ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين، من أصولهم وفروعهم وأزواجهم ، جنات عدن التى وعدهم بها ، وهو سبحانه وإن كان لايخلف الميعاد ، فانه وعدهم بها بأسباب، من جملتها: دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم إياها يدخلونها برحمته التى منها أن وَفَّقهم لأعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها . ثم أخبر سبحانه عن ملائكته : أنهم قالوا عقيب هـذه الدعوة (إنك أنت العزيز الحكيم) أى مصدر ذلك وسببه وغايته ، صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك ، فان العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم . وبهاتين الصفتين يقضى سبحانه وتعالى ما يشاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب . فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر

والمقصود : أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعيـة وعقوبات قدرية . وهى إما فى القلب ، وإما فى البدن ، وإما فيهما . وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم عود الأجسام فى الدار الآخرة . فالذنب لايخلو من عقوبة ألبتة . ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة : لأنه بمنزلة السكران والمخدَّر والنائم الذى لا يشعر بالألم ، فاذا استيقظ وصحا أحس بالألم . فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الاحراق على النار . والكسر على الانكسار والاغراق على الماء . وفساد البدن على السموم والأمراض على الأسباب الجالبة

لها . وقد تقارن المضرة للذنب . وقد تتأخر عنه ، إما يسيرا و إما مدة كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه ، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ويذنب فلا يرى أثره عقيبه ، ولا يدرى أنه يعمل، وعمله على التدريج شيئاً فشيئاً ، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القُذَّة بالقذة [1] فان تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية، وإلا فهو صائر إلى الهلاك. هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره ، فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة ؟ والله المستعان

فصل

فاستحضِرْ بعض العقوبات التى رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب، وجوِّز وصولها إليك ، واجعل ذلك داعياً للنفس إلى هجرانها . وأنا أسوق إليك منها طرفا يكفى العاقل مع التصديق ببعضه

فمنها : الختم على القلوب والأسماع والغشاوة على الأبصار ، والإقفال على القلوب ، وجعل الأكنة [2] عليها والرين عليها ، والطبع عليها، وتقليب الأفئدة والأبصار ، والحيلولة بين المرء وقلبه ، و إغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنساء العبد نفسه ، وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد فى السماء ، وصرف القلوب عن الحق . وزيادتها مرضا على مرضها ، و إركاسها و إنكاسها، بحيث تبقى منكوسة كما ذكر الامام أحمد عن حذيفة ابن اليمان رضى الله عنه أنه قال « القلوب أربعة: فقلب أجْرَد فيه سراج يُزْهِر [3]، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف [4] . فذلك قلب الكافر . وقلب منكوس ، فذلك

---

(١) القذة : واحدة ريش السهم ، أى كما تقدر كل واحدة منها على قدر صاحبتها يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان (٢) الأكنة : الأغطية (٣) أى ليس فيه غل ولا غش ولا قذر من أثر الجهل والغفلة . فهو على أصل الفطرة السليمة يعرف نعم ربه وآياته فيؤمن بها ويشكرها فنور الايمان فيه شرق (٤) أى مغشى مغطى بالاهواء والجهل والتقليد والشهوات ، قد أغلق عليه . فلا يستمع لداعى الحق ، ولا يستيقظ بآيات الله ومواعظه

قلب المنافق . وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق . وهو لما غلب عليه منهما »

ومنها : التثبيط عن الطاعة والابتعاد عنها

ومنها : جعل القلب أصمُّ لايسمع الحق . أبكم لاينطق به . أعمى لايراه . فتصير النسبة بين القلب و بين الحق الذى لاينفعه غيره ، كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات . وعين الأعمى والألوان ، ولسان الأخرس والكلام . و بهذا يعلم أن الصمم والبكم والعمى للقلب بالذات والحقيقة . وللجوارح بالعرض والتبعية (٢٢:٤٦ فانها لاتعمى الأبصار . ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وليس المراد نفى العمى الحسى عن البصر . كيف وقد قال تعالى (٢٤ : ٦١ ليس على الأعمى حرج وقال (٨٠ : ١،٢ عبس وتولى أن جاءه الأعمى) و إنما المراد أن العمى التام على الحقيقة: هو عمى القلب . حتى إن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى. حتى يصبح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته . كما قال النبى ﷺ « ليس الشديد بالصُّرَعة(١) ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب » وقوله ﷺ « ليس المسكين بالطوّاف الذى تَردُّه اللقمة واللقمتان. ولكن المسكين الذى لايسأل الناس . ولا يُفطَن له فيُتَصَدَّق عليه » ونظائره كثيرة

والمقصود: أن من عقوبات المعاصى جعل القلب أعمى أصم أبكم

ومنها: الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه . فيخسف به إلى أسفل سافلين، وصاحبه لايشعر . وعلامة الخسف به : أنه لايزال جوّالا حول السفليات والقاذورات والرذائل . كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه إليه لايزال جوالا حول البر والخير ومعالى الأمور . من الأعمال والأقوال والأخلاق . وقال بعض السلف « إن هذه القلوب جوّالة . فمنها مايجول حول العرش ومنها مايجول حول الحُشّ »

---

(١) بضم الصاد وفتح الراء — المبالغ فى قوة المصارعة الذى لايغلب

ومنها : مسخ القلب . فيمسخ كما تمسخ الصورة . و يصير القلب على قلب الحيوان الذى شابهه فى أخلاقه وأعماله وطبيعته . فمن القلوب : مايمسخ على خنزير لشدة شبه صاحبه به . ومنها : مايمسخ على قلب كلب أو حمار أو حية أو عقرب أوغير ذلك وهذا تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى (٦ : ٣٨ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية . ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير . ومنهم من يتطوّس فى ثيابه كما يتطوّس الطاووس فى ريشه . ومنهم من يكون بليلداً كالحمار . ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك . ومنهم من يألف و يؤلف كالحمام . ومنهم الحقود كالجمل . ومنهم الذى هو خير كله كالغنم . ومنهم أشباه الثعالب تروغ كروغانها . وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغى بالحمر تارة و بالكلب تارة ، وبالأنعام تارة . وتقوى هذه المشابهة باطنا حتى تظهر فى الصورة الظاهرة ظهوراً خفيا ، يراه المتفرسون ، وتظهر فى الأعمال ظهورا يراه كل أحد ولا يزال يقوى حتى تعلو الصورة ، فتنقلب له الصورة باذن الله ، وهو المسخ التام ، فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان ، كما فعل باليهود وأشباههم و يفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير

فسبحان الله ! كم من قلب منكوس وصاحبه لايشعر ؟ وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ؟ وكم من مفتون بثناء النـــاس عليه ؟ ومغرور بستر الله عليه ؟ ومستدرج بنعم الله عليه ؟ وكل هذه عقوبات و إهانات . و يظن الجاهل أنها كرامة

ومنها : مكر الله بالمـاكر ، ومخادعته للمخادع ، واستهزاؤه بالمستهزىء ، و إزاغته لقلب الزائغ عن الحق

ومنها : نكس القلب حتى يرى الباطل حقـاً ، والحق باطلا ، والمعروف منكراً والمنـكر معروفا ، ويُفسد ويرى أنه يصلح ، و يَصدُّ عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها ، و يشترى الضلالة بالهدى وهو يرى أنه على كل الهدى ، و يتبع

هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه . وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب

ومنها : حجاب القلب عن الرب فى الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال الله تعالى (١٥:٨٣ كلاً ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم و بين قلوبهم ، فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها ، وما يفسدها و يشقيها ، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم و بين ربهم ، فتصل القلوب إليه ، فتفوز بقربه وكرامته ، وتَقَرُّ به عيناً وتطيب به نفساً ، بل كانت الذنوب حجاباً بينهم و بين قلوبهم ، وحجاباً بينهم و بين ربهم وخالقهم

ومنها : المعيشة الضَّنْك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة . قال تعالى (١٢٤:٢٠ ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا . ونحشره يوم القيامة أعمى) وقدفسرت المعيشة الضَّنْك بعذاب القبر ، ولاريب أنه من المعيشة الضنك ، والآية تتناول ماهو أعم منه ، و إن كانت نكرة فى سياق الاثبات ، فان عمومها من حيث المعنى . فانه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره . فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، و إن تنعم فى الدنيا بأصناف النعم . ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى تقطع القلوب ، والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، و إنما تتوارى عند سَكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر . فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر . فانه يفيق صاحبه و يصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر فى عسكر الأموات ، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله ﷺ فى دنياه ، وفى البرزخ و يوم معاده ، ولا تقَرُّ العين ولا يهدأ القلب ، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل . فمن قَرَّت عينه بالله قَرَّت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطّعت نفسه على الدنيا حسرات . والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً كما قال تعالى (٩٧:١٦ من عمل صالحاً من

ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيـاة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فضمن لأهل الايمـان والعمل الصالح الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة . فلهم أطيب الحياتين ،وهم أحياء فى الدارين . ونظير هذا قوله تعالى (١٦: ٣٠ للذين أحسنوا فى هـذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) ونظيرها قوله تعالى (١١ : ٣ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤتِ كلَّ ذى فضْل فضله) ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيـا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين . فان طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته: من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه .

وقد قال بعض من ذاق هـذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب . وقال الآخر : إن فى الدنيا جنة هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة . وقد أشار النبى ﷺ إلى هذه الجنة بقوله « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنـة ؟ قال : حلَق الذكر » وقال « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة »

ولا تظن أن قوله تعـالى (٨٢ : ١٣ ، ١٤ إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم) يختص بيوم المعـاد فقط ، بل هؤلاء فى نعيم فى دورهم الثلاثة ، وهؤلاء فى جحيم فى دورهم الثلاثة . وأى لذة ونعيم فى الدنيـا أطيب من بر القلب ، وسلامة الصدر ، ومعرفة الرب تعالى ومحبته ، والعمل على موافقته ؟ وهل عيش فى الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة القلب فقال (٣٧ : ٨٣ ، ٨٤ وإن من شيعته لابراهيم ، إذجاء ربه بقلب سليم) وقال حاكياً عنه أنه قال (٢٦ : ٨٨ ، ٨٩ يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) والقلب السليم هو الذى

سلم من الشرك والغلِّ والحقد والحسد والشحِّ والكِبْر ، وحب الدنيا والرياسة ، فسلم من كل آفة تبعده عن الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبر الله . ومن كل شهوة تعارض أمره به . وسلم من كل إرادة تزاحم مراده . وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا وفى جنة البرزخ . وفى جنة يوم المعاد

ولا يتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد . وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر . وغفلة تناقض الذكر . وهوى يناقض التجريد . والاخلاص يعم .

وهذه الخمسة حجب عن الله ، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفراداً لأشخاص لاتحصر ، ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يلح على ربه دائما ويسأله أن يهديه الصراط المستقيم . فليس العبد أحوج إلى شىء منه إلى هذه الدعوة ، وليس شىء أنفع منها . فان الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت . فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد ، وقد لا يعلمها ، وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه . وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه ، وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده ، كسلا وتهاونا ، أولقيام مانع وغير ذلك ، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله ، وما يفعله قد يقوم بشروط الاخلاص فيه وقد لا يقوم ، وما يقوم فيه بشروط الاخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لايقوم ، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه . وهذا كله واقع سار فى الخلق ؛ فمستقل ومستكثر . وليس فى طباع العبد الهداية إلى ذلك كله ، بل متى وُكِلَ إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك ، وهذا هو الإركاس الذى أركس الله به المنافقين بذنوبهم ، فأعادهم إلى طباعهم وما جبلت عليه نفوسهم من الجهل والظلم ، والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم فى قضائه

وقدره ، وأمره ونهيه ، فيهدى من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، ويجعل الهداية حيث تصلح ، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب الصراط المستقيم الذى هو عليه ، فهو على صراط مستقيم

ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيما دعاهم جميعا اليه حجة منه وعدلا ، وهدى من يشاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلا ، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذى هو عليه ، فاذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيما يوصلهم إلى جنته ، ثم صرف عنه فى الدنيا ، وأقام عليه من أقام فى الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به و برسوله وبما جاء به الذى كان فى قلوبهم فى الدنيا نوراً ظاهراً لهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم فى ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى يقطعوه ، كما حفظ عليهم الإيمان حتى لقوه ، وأطفأ نور المنافقين أحوج ماكانوا اليه ، كما أطفئوا نور آياته من قلوبهم فى الدنيا ، وأقام أعمال العصاة بجنبتى الصراط كلاليب وحسكا تخطفهم كما تخطفتهم فى الدنيا عن الاستقامة عليه ، وجعل سيرهم عليه على قدر سيرهم وسرعتهم إليه فى الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضا يشربون منه بازاء شربهم من شرعه فى الدنيا . وحرم من الشرب منه هناك من حرم نفسه من الشرب من شرعه ودينه ههنا .

فانظر إلى الآخرة كأنها رأى عين . وتأمل حكمة الله سبحانه فى الدارين تعلم حينئذ علماً يقيناً لاشك فيه : أن الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وأنموذجها . وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم فى هذه الدار فى الإيمان والعمل الصالح وضدها . فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة . وبالله التوفيق

فصل

ولما كانت الذنوب متفاوتة فى درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها فى الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها .

ونحن نذكر فيها بعون الله فصلا وجيزا جامعا ، فنقول :

أصلها نوعان : ترك مأمور وفعل محظور . وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه أبوى الجن والإنس بهما ؛ وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح وباطن فى القلوب، وباعتبار متعلقه إلى حق الله وحق خلقه . وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه ، لكن سمى حقا للخلق لأنه يجب بمطالبتهم ويسقط باسقاطهم

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام : ملكية ، وشيطانية ، وسبعية ، وبهيمية ، لاتخرج عن ذلك .

فالذنوب الملكية أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية ، كالعظمة والكبرياء والجبروت، والقهر والعلو بغير الحق، واستعباد الخلق ونحو ذلك. ويدخل فى هذا الشرك بالرب تعالى ، وهو نوعان : شرك به فى أسمائه وصفاته ، وجعل آلهة أخرى معه . وشرك به فى معاملته ، وهذا الثانى قد لا يوجب دخول النار . وإن كان قد أحبط العمل الذى أشرك فيه مع الله غيره .

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ، ويدخل فيه القول على الله بلا علم فى خلقه وأمره . فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيته وملكه ، وجعل نفسه له نداً . وهذا أعظم الذنوب عند الله . ولا ينفع معه عمل

فصل

وأما الشيطانية : فالتشبه بالشيطان فى الحسد والبغى والغش والغل والخداع والمكر ، والأمر بمعاصى الله ، وتحسينها ، والنهى عن طاعة الله وتهجينها ، والابتداع فى دينه ، والدعوة إلى البدع والضلال ، وهذا النوع يلى النوع الأول فى المفسدة . وإن كانت مفسدته دونه

فصل

وأما السبعية : فذنوب العدوان والغضب ، وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والعاجزين ، ويتولد منها أنواع أذى النوع الانسانى والجرأة على الظلم والعدوان .

فصل

وأما الذنوب البهيمية : فمثل الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنها يتولد الزنى والسرقة ، وأكل أموال اليتامى والبخل والشح والجبن والهلع والجزع وغير ذلك .

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ؛ ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام . فهو يجرهم إليها بزمام ، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ، ثم إلى الشيطانية ، ثم إلى منازعة الربوبية والشرك فى الوحدانية . ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته

فصل

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر . قال الله تعالى (٤: ٣١ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) وقال تعالى (٥٣: ٣٢ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم [١]) وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر »

---

(١) اللمم : الذنب يلم بالعبد ، ولا يقيم فى القلب والنفس ، بل يدركه سوط اليقظة واستحضار العقوبة فيسارع بطرده وتطهير القلب من أثره . وذلك يكون ممن قال الله فيهم (٧: ٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون)

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات :

إحداها أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها ، وضعف الإخلاص فيها ، والقيام بحقوقها ، بمنزلة الدواء الضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية .

الثانية : أن تقاوم الصغائر ولا ترتقى إلى تكفير شىء من الكبائر .

الثالثة : أن تقوى على تكفير الصغائر ، وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر .

فتأمل هذا . فانه يزيل عنك إشكالات كثيرة ، وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يارسول الله . فقال : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور » وروى فى الصحيح عنه ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : وما هن يارسول الله ؟ قال : الاشراك بالله . والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم . وأكل الربا . والتولىّ يوم الزحف . وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وفى الصحيح عنه ﷺ « أنه سئل : أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قيل : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يَطعم معك . قيل : ثم أى ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك » فأنزل الله تعالى تصديقها (٢٥ : ٦٨ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون) الآية

واختلف الناس فى الكبائر ، هل لها عدد يحصرها ؟ على قولين

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها . فقال عبد الله بن مسعود : هى أربعة . وقال عبد الله بن عمر : هى سبعة . وقال عبد الله بن عمرو العاص : هى تسعة . وقال غيره : هى إحدى عشرة . وقال آخر : هى سبعون .

وقال أبو طالب المكى : جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة فى القلب وهى الشرك بالله ، والإصرار على المعصية . والقنوط من رحمة الله . والأمن من مكر الله . وأربعة فى اللسان : وهى شهادة الزور . وقذف المحصنات ، واليمين الغَموس .

والسحر . وثلاثة فى البطن : شرب الخمر . وأكل مال اليتيم . وأكل الربا . واثنتان فى الفرج وهما : الزنى واللواطة . واثنتان فى اليدين وهما : القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين : وهى الفرار من الزحف . وواحدة تتعلق بجميع الجسد : وهى عقوق الوالدين .

والذين لم يحصروها بعدد . منهم من قال : كل مانهى الله عنه فى القرآن فهو كبيرة وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة .

وقالت طائفة : مااقترن بالنهى عنه وعيد من لعن أو غضب أوعقوبة فهو كبيرة . وما لم يقترن به من ذلك شىء فهو صغيرة .

وقيل : كل ما رتب عليه حد فى الدنيا أو وعيد فى الآخرة فهو كبيرة ، وما لم يترتب عليه لاهذا ولا هذا فهو صغيرة .

وقيل : كل مااتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر ، وما كان تحريمه فى شريعة دون شريعة فهو صغيرة .

وقيل : كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة ، وقيل : كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله (٤ : ٣٢ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم)

والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه معصية ومخالفة أمره كبائر. فانظر إلى أن جراءة من عصى أمره وانتهك محارمه توجب أن تكون الذنوب كلها كبائر . وهى مستوية فى هذه المفسدة قالوا : ويوضح هذا أن الله سبحانه لاتضره الذنوب ولا يتأثر بها ، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض ، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته . ولا فرق فى ذلك بين ذنب وذنب .

قالوا : ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى ، ولهذا لو شرب رجل خمراً أو وطىء فرجا حراما ، وهو لايعتقد

تحريمه، لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام. ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان أتى بإحدى المفسدتين . وهو الذى يستحق العقوبة دون الأول . فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب

قالوا : ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمته . وهذا لافرق فيه بين ذنب وذنب

قالوا: فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره فى نفسه . ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمته، وانتهاك حرمته بالمعصية. وهذا لايفترق فيه الحال بين معصية ومعصية. فإن ملكاً عظيما مطاعاً لوأمر أحد مملوكيه أن يذهب فى مهم له إلى بلد بعيد وأمر آخر : أن يذهب فى شغل له إلى جانب الدار فعصياه وخالفا أمره لكانا فى مقته والسقوط من عينه سواء

قالوا: ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد . والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا. ولو كان مع رجل مائتا درهم فمنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف درهم فمنع زكاتها لايستويان فى منع ماوجب على كل واحد منهما ، ولايبعد استواهما فى العقوبة، إذا كان كل منهما مصرا على منع الزكاة قليلا ماله كان أو كثيراً

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال :

إن الله عز وجل أرسل رسله وأنزل كتبه وخلق السماوات والأرض ليُعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله له والطاعة كلها له، والدعوة له، كما قال تعالى (٥١:٥٦ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) وقال تعالى (١٥:٨٥ وما خلقنا السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق) وقال تعالى (٦٥:١٢ الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً) وقال تعالى (٥:٩٧ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما

للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد[1] ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم) فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر: أن يعرف بأسمائه وصفاته، ويعبد وحده لا يشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذى قامت به السماوات والأرض، كما قال تعالى (٥٧: ٢٥ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل. ومن أعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل وقوامه، وإن الشرك ظلم كما قال تعالى (٣١: ١٣ إن الشرك لظلم عظيم) فالشرك أظلم الظلم والتوحيد أعدل العدل. فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر. وتفاوتها فى درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات.

فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر به وبتفاصيله تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصى فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الاطلاق. وحرم الله الجنة على كل مشرك وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته. وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملا أو يقبل فيه شفاعة، أو يستجيب له فى الآخرة دعوة، أو يقبل له فيها رجاء. فان المشرك أجهل الجاهلين بالله، حيث جعل له من خلقه نداً. وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك فى الواقع لم يظلم ربه، وإنما ظلم نفسه.

ووقعت مسألة، وهى: أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى، وأنه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء، كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية، وإنما قصد تعظيمه، وقال: إنما أعبد هذه الوسائط لتقربنى اليه وتدخلنى عليه، فهو المقصود، وهذه وسائل

---

(١) جمع قليدة، وهى ما يقلد به الهدى الذى يسوقه الحاج ليذبحه يوم النحر لله

وشفعاء ، فلم كان هذا القدر موجبا لسخطه وغضبه ، تبارك وتعالى ؟ ومخلداً فى النار ، وموجبا سفك دماء أصحابه ، واستباحة حريمهم وأموالهم ؟

وترتب على هذا سؤال آخر ، وهو : أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع ، أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول ، يمتنع أن تأتي به شريعة ؟ بل جاءت كل شرائع الله بتقرير مافى الفطر والعقول من قبحه ، الذى هو أقبح من كل قبيح؟ وما السبب فى كونه لايغفره من دون سائر الذنوب ؟ كما قال تعالى (٤ : ٤٨ إن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء)

فتأمل هذا السؤال ، واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه . فان به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين ، والعالمين بالله والجاهلين ، وأهل الجنة وأهل النار .

فنقول ، وبالله التوفيق والتأييد . ومنه نستمد المعونة والتسديد ، فانه من يهدى الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلا هادى له ، ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع :

الشرك شركان : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرك فى عبادته ومعاملته ، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لاشريك له فى ذاته . ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

والشرك الأول نوعان : أحدهما شرك التعطيل ، وهو أقبح أنواع الشرك . كشرك فرعون إذ قال (٢٦ : ٢٣ وما رب العالمين ؟) وقال تعالى مخبراً عنه أنه قال (٤٠ : ٢٦ ، ٣٧ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى . وإني لأظنه كاذباً) فالشرك والتعطيل متلازمان . فكل مشرك معطل . وكل معطل مشرك . لكن لايستلزم أصل التعطيل

بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه و بصفاته . ولكن عطل حق التوحيد . وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها : هو التعطيل . وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه . وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله . وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد. ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون : ما ثم خالق ومخلوق . ويقولون : ما هنا شيئان ، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه . ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته ، وأنه لم يكن معدوماً أصلا . بل لم يزل ولايزال . والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط ، اقتضت إيجادها. يسمونها بالعقول والنفوس [١] . ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة ، فلم يثبتوا له اسما ولا صفة . بل جعلوا المخلوق أكمل منه . إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها

فصل

النوع الثاني شرك من جعل معه إلها آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته

---

(١) وهذه هي عقيدة الصوفية بعينها . قال لسانهم عبد الغني النابلسي : الثابت عند أصحاب الفكر والنظر : ان حدوث شيء لاعن شيء ، أي لاعن مادة قابلة تكون محلا لاستعداده قبل حدوثه — محال ، سواء كان الحدوث زمانياً أو ذاتياً اهـ فالموجودات عندهم على ماصرحوا به : كانت كامنة في الحقيقة الالهية كمون النخلة بسعفها وتمرها وجذعها في النواة . وابن عربي يصرح في النصوص والفتوحات بأن الموجود الاول الذي فاض عن ذات ربهم : هو العقل الأول ، أو الحقيقة المحمدية ، ويقول : إن من عبد أي مظهر من مظاهر الطبيعة فما عبد إلا ربه ، لأنها كلها أرباب. فعقيدة الصوفية هي عقيدة الماديين الطبائعيين ، لافرق إلا في الأسماء .

كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة [١] . فجعلوا المسيح إلها وأمه إلها .

ومن هذا : شرك المجوس القائلين باسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة .

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق أفعال نفسه . وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته و إرادته . ولهذا كانوا من أشباه المجوس .

ومن هذا شرك الذى حاج ابراهيم فى ربه (٢ : ٢٥٨ إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي و يميت. قال أنا أحيي وأميت) فهذا جعل نفسه ندا لله . يحيي و يميت بزعمه . كما يحيي الله و يميت . فألزمه إبراهيم عليه السلام ورحمة الله و بركاته أن طردَ قولك هذا يستلزم أن تقدر على الاتيان بالشمس من غير الجهة التى يأتي الله بها ومنها . وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل . بل إلزاماً على طرد الدليل إن كان حقاً .

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات . و يجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم . كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم

ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم .

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة . ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة . ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة . وأنه إذا خصه بعبادته

---

(١) أصل عقيدة النصارى : هو عقيدة الصوفية التى سبق تفصيلها بعض الشيء . ذلك أن النصارى تقول : إن عيسى هو النور الأول الذى فاض من الرب أولا . فهو أول خلق الله ، وما زالت الحقيقة العيسوية تتنقل حتى تجسدت فى ناسوت عيسى بن مريم ، وهذا هو سر البنوة ، ويقولون : سبحان الله عن البنوة البشرية هذا والصوفية قالت قديما : إن بوذا هو النور الأول ، وبرهما هو النور الأول . وقالت أخيراً : إن محمداً هو النور الأول . مثل مقالة النصارى سواء ليضاهئوا قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله

والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به . ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقر به إلى المعبود الذى هو فوقه . والفوقانى يقر به إلى من هو فوقه . حتى تقر به تلك الآلهة إلى الله سبحانه. فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل

فصل

وأما الشرك فى العبادة . فهو أسهل من هذا الشرك وأخف شراً . فانه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله . وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله . وأنه لا إله غيره ولا رب سواه . ولكن لا يخلص لله فى معاملته وعبوديته . بل يعمل لحظ نفسه تارة . وطلب الدنيا تارة . ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة . فلله من عمله وسعيه نصيب . ولنفسه وحظه وهواه نصيب . وللشيطان نصيب . وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس . وهو الشرك الذى قال فيه النبى ﷺ فيما رواه ابن حبان فى صحيحه « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . قيل : وكيف ننجو منه يارسول الله ؟ قال : قل اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم . وأستغفرك لما لا أعلم » فالرياء كله شرك قال تعالى (١٨ : ١١٠ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً . ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) أى كما أنه إله واحد لا إله سواه . فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده . فكما تفرد بالإلهية [١] يجب أن يفرد بالعبودية . فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء المقيد بالسنة . وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه « اللهم اجعل عملى كله صالحا . واجعله لوجهك خالصاً . ولا تجعل لأحد فيه شيئاً »

---

(١) كان الأولى أن يقول كما أنه رب واحد لا رب العالمين ويربيهم بنعمه سواه ويقول : « فكما انفرد بالربوبية » لأن افراد العبودية : هو افراد الالهية. فان التأليه يكون من العبد فى مقابل الربوبية التى هى من الرب سبحانه .

وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل ، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً ، فانه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر ، فان الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة . قال تعالى (٩٨ : ٥ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء[١]) فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمره به ، بل الذى أتى به شىء غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه ، ويقول الله[٢] « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك معى فيه غيرى ، فهو للذى أشرك به ، وأنا منه برىء »

هذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر ، ومغفور وغير مغفور . والنوع الأول : ينقسم إلى كبير وأكبر ، وليس شىء منه مغفور ، فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقاً كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه (٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً — الآية) وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم (٢٦ : ٩٧ ، ٩٨ تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ومعلوم أنهم ماسووهم به سبحانه فى الخلق والرزق والاماتة والاحياء ، والملك والقدرة ، و إنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل . وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يسوى من خلق من التراب برب الأرباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ؟ وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم . بالغنى بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملكه وجوده و إحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ؟

فأى ظلم أقبح من هذا ؟ وأى حكم أشد جورا منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه . كما قال تعالى (٦ : ١ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل

---

(١) جمع حنيف وهو المستقيم غير المائل الى التفريط ولا إلى الافراط
(٢) فى الحديث القدسى

الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون) فعدل المشرك من خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ؛ بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . فيالك من عَدْل تضمن أكبر الظلم وأقبحه ! !

فصل

ويتبع هـذا الشرك الشرك به سبحانه فى الأقوال والأفعال والارادات والنيات ، فالشرك فى الأفعال ، كالسجود لغيره ، والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض ، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها . وقد لعن النبى ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها ، فكيف بمن اتخذ القبور أوثانا يعبدها من دون الله ؟ وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفى الصحيح عنه أنه قال « إن من شرار الناس مَنْ تُدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » وفى الصحيح أيضاً عنه « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فانى أنهاكم عن ذلك »

وفى مسند الإمام أحمد رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه ﷺ قال « لعن الله زوارات القبور . والمتخذين عليها المساجد والسرج »

وقال « اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وقال « إنَّ من كان قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »

فهذا حال من سجد لله فى مسجد على قبر ، فكيف حال من سجد للقبر نفسه؟ وقد قال النبى ﷺ « اللهم لا تجعل قبرى وَثنا يعبد » وقد حمى النبى ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية ، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع

الشمس وعند غروبها ؛ لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعبّاد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين، وسدَّ الذريعة بأنْ منع الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين الذين يسجد المشركون فيهما للشمس .

وأما السجود لغير الله فقال « لا ينبغى لأحد أن يسجد لأحد إلا لله » وإنما تجىء « لا ينبغى » فى كلام الله وكلام رسوله ﷺ للذى هو فى غاية الامتناع شرعاً ، كقوله تعالى (١٩ : ٩٢ وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) وقوله (٣٦ : ٦٩ وما علمناه الشعر وما ينبغى له) وقوله (٢٦ : ٢١ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم) وقوله عن الملائكة (٢٥ : ١٨ ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء)

فصل

ومن الشرك به سبحانه الشرك به فى اللفظ ، كالحلف بغيره ، كما رواه أحمد وأبوداود عنه ﷺ أنه قال «من حلف بغير الله فقد أشرك»[1] وصححه الحاكم وابن حبان

. ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ماشاء الله وشئت، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال له رجل « ماشاء الله وشئت. فقال : أجعلتنى لله نداً ؟قل ما شاء الله وحده»

---

(١) ليس فى لفظ الحديث تقييد الشرك بأنه أصغر. فما الفرق بين قوله ﷺ « فقد أشرك » وقول الله تعالى (٣٩ : ٦٥ لئن أشركت ليحبطن عملك) وأمثالها من القرآن والسنة ؟ اللفظ واحد . وليس فى كلام الله ولا كلام الرسول تخصيص. على أن الحلف لا يكون إلا عن تعظيم و تقديس للمحلوف به ، وخوف أن ينتقم من الحالف إن كان كاذبا وأن يبطش به بما لا يقدر الحالف ولا غيره من الخلق أن يدفعه به . ومن هنا قال الرسول ﷺ « من حلف بغير الله فقد أشرك » و « من حلف بغير الله فقد كفر »

وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله (٨١ : ٢٨ لمن شاء منكم أن يستقيم) فكيف من يقول : أنا متوكل على الله وعليك ، وأنا فى حسب الله وحسبك ، ومالى إلا الله وأنت ، وهذا من الله ومنك ، وهذا من بركات الله وبركاتك ، والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض ؛ ويقول : والله وحياة فلان ، أو يقول : نذراً لله ولفلان ، وأنا تائب لله ولفلان ، أو أرجو الله وفلانا ، ونحوذلك ؟

فوازن بين هـذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت ، ثم انظر أيهما أفحش ؟ يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبى ﷺ لقائل تلك الكلمة ، وأنه إذا كان قد جعله نداً لله بها . فهـذا قد جعل من لا يداني رسول الله ﷺ فى شىء من الأشياء ، بل لعله أن يكون من أعدائه نداً لرب العالمين ، فالسجود والعبادة والتوكل والإنابة والتقوى والخشية والتحسب والتوبة والنذر والحلف ، والتسبيح والتكبير والتهليل ، والتحميد والاستغفار ، وحلق الرأس خضوعا وتعبداً ، والطواف بالبيت والدعاء ، كل ذلك محض حق الله ، لا يصلح ولا ينبغى لسواه: من ملك مقرب ، أو نبى مرسل ؛ وفى مسند الإمام أحمد « أن رجلا أتى به إلى النبى ﷺ قد أذنب ذنبا . فلما وقف بين يديه قال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال : قد عرف الحقّ لأهله »

فصل

وأما الشرك فى الارادات والنيات . فذلك البحر الذى لا ساحل له وقَل من ينجو منه . فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب إليه ، وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك فى نيته و إرادته . والاخلاص : أن يخلص لله فى أفعاله وأقواله و إرادته ونيته ، وهذه هى الحنيفية مِلَّة ابراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ، ولا يقبل من أحد غيرها ، وهى حقيقة الاسلام ، كما قال تعالى (٣ : ٨٥ ومَنْ يَبتغ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين) وهى ملة ابراهيم عليه السلام التى من رغب عنها فهو من أسْفَه السفهاء

فصل

وإذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور. فنقول، ومن الله وحده نستمد الصواب:

حقيقة الشرك: هو التشبه بالخالق وتشبيه المخلوق به، هذا هو التشبيه فى الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التى وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ، فعكس من نكس الله قلبه، وأعمى عين بصيرته، وأركسه بلبسه الأمر، وجعل التوحيد تشبيهاً، والتشبيه تعظيما وطاعة، فالمشرك مُشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الآلهية. فان من خصائص الآلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء، والتوكل عليه وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً أفضل من غيره تشبيها بمن له الأمر كله. فأزمة الأمور كلها بيديه ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، و إن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد.

فمن أقبح التشبيه: تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغنى بالذات.

ومن خصائص الآلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه. وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلا وشرعاً وفِطرة أن يكون لله وحده. ويمتنع عقلا وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره. فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره تعالى فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له وذلك أقبح التشبيه وأبطله. ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره، مع أنه سبحانه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الآلهية: العبودية التى قامت على ساقين لاقوام لها بدونهما: غاية الحب . مع غاية الذل . هذا تمام العبودية . وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الاصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به فى خالص حقه . وهذا من المحال أن تأتى به شريعة من الشرائع . وقبحه مستقر فى كل فطرة وعقل . ولكن غيّرت الشياطين فِطَر أكثر الخلق وعقولهم . وأفسدتها عليهم واجتالتهم [١] عنها . ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى . فأرسل اليهم رسله . وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم . فازدادوا بذلك نوراً على نور (٢٤ : ٣٥ يهدى الله لنوره من يشاء)

إذا عرفت هذا فمن خصائص الآلهية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل . فمن توكل على غيره فقد شبهه به . ومنها التوبة . فمن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً . فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه

وأما فى جانب التشبه به : فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه فى المدح والتعظيم والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه فى ربوبيته وإلهيته . وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان . ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه . وفى الصحيح عنه ﷺ قال « يقول عز وجل : العظمة إزارى والكبرياء ردائى . فمن نازعنى واحداً منهما عذَّبته » وإذا كان المصور الذى يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة ، فما الظن بالتشبه بالله فى الربوبية والآلهية ؟ كما قال النبى ﷺ « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون ، يقال لهم أحيوا ما خلقتم » وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال « قال الله عز وجل : ومن أظلم

---

(١) اجتالتهم الشياطين أى استخفتهم وركبتهم وجالت بهم حيث شاءت من السفه والضلال ، فجالوا معهم . وبعدوا عن الفطرة السليمة

ممن ذهب بخلق خلقا كخلقي . فليخلقوا ذرَّة ، فليخلقوا شعيرة » فنبه بالذرة والشعيرة على ماهو أعظم منها وأكبر .

والمقصود : أن هذا حال من تشبه به فى صنعه صورة ، فكيف حال من تشبه به فى خواص ربوبيته وإلهيته ؟ وكذلك من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له وحده ، كملك الاملاك . وحاكم الاحكام ونحوه . وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال « إن أخنع الاسماء [1] عند الله : رجل يسمى بشاهن شاه - ملك الملوك - ولا ملك إلا الله » وفى لفظ « أغيظ رجل على الله ، رجل يسمى بملك الأملاك »

فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده ، وهو حاكم الحكام وحده . فهو الذى يحكم على الحكام كلهم ، ويقضى عليهم كلهم لاغيره

فصل

إذا تبين هذا فهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة ، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به . فان المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس ، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته . ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم ، كما قال تعالى (٦:٤٨ عليهم دائرة السَّوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته (٢٣:٤١ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) وقال تعالى عن خليله ابراهيم أنه قال لقومه (٨٦:٣٧، ٨٧ ماذا تعبدون ؟ أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟) أى فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وما ظنكم به حين عبدتم معه غيره ؟ وماظنكم بأسمائه وصفاته وربوبيته

(١) أى أذلها وأوضعها وأحقرها

من النقص ؟ حتى أحوجكم ذلك إلى العبودية لغيره ؟ فلو ظننتم به ماهو أهله من أنه بكل شئ عليم . وهو على كل شيء قدير ، وأنه غني عن كل ماسواه . وكل ماسواه فقير إليه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره . والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه ، والكافى لم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته ، فلا يحتاج فى رحمته إلى من يستعطفه وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء ، فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجها . وإلى من يعينهم على قضـاء حوائجهم ، وإلى من يسترحمهم وإلى من يستعطفهم بالشفاعة . فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة حاجتهم وضعفهم وعجزهم فى أنفسهم ، وقصور علمهم . فأما القادر بنفسه على كل شيء ، الغنى بذاته عن كل شيء . الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شيء . فادخال الوسائط بينه وبين خلقه نقص فى حق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء . وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ، ويمتنع فى العقول والفطر جوازه . وقبحه مستقر فى الفطر السليمة فوق كل قبيح .

يوضح هذا . أن العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له ، والرب تعالى وحده هو الذى يستحق كال التعظيم والاجلال والتأليه والتذلل والخضوع . وهذا خالص حقه . فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره ، أو يشرك بينه وبينه فيه ، ولا سيما الذى جعل شريكه فى حقه هو عبده ومملوكه . كما قال تعالى (٣٠ : ٢٨ ضرب لكم مثلا من أنفسكم . هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم . كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) . أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكا له فى رزقه . فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا به منفرد وهو الإلهية ، التى لا تنبغى لغيرى ولا تصح لسواى ؟ فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى . ولا عظمنى حق عظمتى ولا أفردنى بما أنا منفرد به وحدى دون خلقى . فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى (٢٢ : ٧٣

يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا، ولو اجتمعوا له. و إن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ماقدروا الله حق قدره . إن الله لقوى عزيز)

فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره و إن يسلبه الذباب شيئاً مما عليه لم يقدر على إنقاذه منه قال تعالى (٣٩:٦٧ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون)

فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه فى عبادته من ليس له شىء من ذلك ألبتة ، بل هو أعجز شىء وأضعفه ، فما قدر القوىّ العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل

وكذلك ماقدره حق قدره مَنْ قال : إنه لم يرسل إلى خلقه رسولا، ولا أنزل كتابا . بل نسبه إلى مالا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى ، وخلقهم باطلا وعبثاً

وكذلك ماقدره حق قدره مَنْ نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فنفى سمعه و بصره و إرادته واختياره وعلوه فوق خلقه ، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ، ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته ومشيئته وجعلهم يخلقون لأنفسهم مايشاءون بدون مشيئة الرب ، فيكون فى ملكه مالا يشاء . و يشاء مالا يكون . فتعالى الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً

وكذلك ماقدره حق قدره مَنْ قال : إنه يعاقب عبده على مالا يفعله ، ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه ألبتة ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله . فهو سبحانه الذى جبر العبد عليه ، وجبره على الفعل أعظم من

إكراه المخلوق للمخلوق ، وإذا كان من المستقر فى الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه اليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحا . فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ، ولاهو واقع بإرادته ولافعله ألبتة ، ثم يعاقبه عليه ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقول هؤلاء شر قول ، وهم أشباه المجوس . والطائفتان ماقدروا الله حق قدره .

وكذلك ماقدره حق قدره مَنْ لم يصُنه عن نَتْن ولا حُشٍّ (١) ولا مكان يُرغب عن ذكره ، بل جعله فى كل مكان . وصانه عن عرشه أن يكون مستويا عليه (٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وتعرج الملائكة والروح اليه ، وتنزل من عنده (٣٢ : ٥ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه) فصانه عن استوائه على سرير الملك ، ثم جعله فى كل مكان يأنف الإنسان ، بل غيره من الحيوان ، أن يكون فيه

وما قدر الله حق قدره مَنْ نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته ، ولا من نفى حقيقة حكمته التى هى الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة فعله ، ولم يجعل له فعلا اختياريا يقوم به ، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه . فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه ، وتكليمه موسى من جانب الطور ، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله ، التى نفوها ، وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره .

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً . وجعله سبحانه يحل فى جميع مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم ، وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعز ووضع أولياء رسول الله ﷺ

---

(١) الحش بيت الخلاء الذى تقضى فيه الحاجة

وأهل بيته ، وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا . وهـذا يتضمن غاية القدح فى جناب الرب ، تعالى عن قول الرافضة علواً كبيراً .

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصـارى فى رب العالمين : إنه أرسل ملكا ظالما فادَّعى النبوة لنفسه ، وكذب على الله ، وأخذ زمانا طويلا يكذب على الله كل وقت . ويقول : قال الله كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا ، وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم ، ويقول : الله أباح لى ذلك، والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه ، ويقويه ويجيب دعواته ، ويمكنه ممن يخالفه، ويقيم الأدلة على صدقه ، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به . فيصدقه بقوله وفعله وتقريره ، ويحـدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شيء إلى يوم القيامـة . ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القـدح والطعن فى الرب سبحانه وتعالى ، وفى علمه وحكمته ورحمته وربوبيته ، تعالى الله عن قول الجاحدين علواً كبيراً .

فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر :

رضيعى لبان ثَدْىَ أُمٍّ تقاسما * بأسحم داج عَوْضُ لا نتفرقُ

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الشقاء ، وأن يثيب أعداءه ومن لم يطعـه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم ، وأن كلا الأمرين بالنسبة إليه جائز ، وإنمـا الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله . وقد أنكر سبحانه فى كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار ، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام .

قال تعالى (٣٨ : ٢٧، ٢٨ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا . فويل للذين كفروا من النـار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟) وقال (٤٥ : ٢١، ٢٢ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء مايحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل

نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وقال (٦٨ : ٣٦ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟)

وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى ، ولا يبعث من فى القبور ، ولا يجمع الخلق ليوم يجازى المحسن فيه باحسانه والمسىء باساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين المشاق فى هذه الدار من أجله وفى مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلقه الذى يختلفون فيـه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ، ونهيه فارتكبه . وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه ، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه ، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله . فلله الفضلة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله ، وسواه المقدم فى ذلك لأنه المهم عنده ، يستخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه وهو فى قبضته ، وناصيتهُ بيده ، ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه . ويستخفى من الناس ولا يستخفى من الله . ويخشى الناس ولا يخشى الله ويعامل الخلق بأفضل ماعنده وما يقدر عليه ، وإن عامل الله عامله بأهون ماعنده وأحقره ، وإن قام فى خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة وقد أفرغ له قلبه وجوارحه ، وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام فى حق ربه — إن ساعد القدر — قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجه به مخلوقا مثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ؟

وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه فى محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكا فى ذلك لكان جراءة وتوثبا على محض حقه واستهانة به وتشريكا بينه وبين غيره فيما لا ينبغى ولا يصلح إلا له سبحانه ، فكيف وإنما أشرك معه أبغض الخلق إليه ، وأهونهم عليه ، وأمقتهم عنده ، وهو عدوه على الحقيقة ؟ فانه ماعبد من عبد

من دون الله إلا الشيطان . كما قال تعالى (٣٦:٦٠،٦١ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان ؟ إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة . كما قال تعالى (٣٤:٤٠،٤١ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مؤمنون) فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته . ويوهمهم أنه ملك . كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب . وهى التى تخاطبهم ، وتقضى لهم الحوائج ، وهم على الحقيقة إنما يعبدون الشيطان . ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار . فيقع سجودهم له ، و كذلك عند غروبها . وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما و إنما عبد الشيطان . فانه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه . ورضيها لهم وأمرهم بها . وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه . فلا عبد الله ولا رسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى (٣٦:٦٠،٦١ ألم أعهد إليكم يابنى آدم : أن لاتعبدوا الشيطان ؟ إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) فما عبد أحد من بنى آدم معبودا غير الله كائناً ما كان إلا وقعت عبادته للشيطان (١) فيستمتع المعبود بالعابد فى تعظيمه له ، و إشراكه به مع الله الذى هو غاية رضاء الشيطان ، ولهذا قال تعالى (٦:١٢٨ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس) أى إغوائهم و إضلالهم (وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض . و بلغنا أجلنا الذى أجّلت لنا . قال : النار مثواكم خالدين فيها . إلا ماشاء الله إن ربك حكيم عليم) فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وأنه لايغفره بغير التوبة منه ، وأنه يوجب الخلود فى النار ،

---

(١) ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى على لسان إبراهيم لأبيه (١٩:٤٤ ياأبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً)

وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنـه . بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره . كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله . وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والإجلال أن يأذن فى مشاركته فى ذلك، أو يرضى به ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

فصل

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذى خلق الله له الخلق ، وأمر لأجله بالأمر الدينى . كان من أكبر الـكبائر عند الله ، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم فان الله سبحانه خلق الخلق . وأنزل الكتاب لتكون العبادة والطاعة له وحده. والشرك والكبر ينافيان ذلك .ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر (٥ :٧٢ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار)ولا يدخلها من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر

ويلى ذلك فى كبر المفسدة : القول على الله بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ، فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لـكمال من له الخلق والأمر ، وقدح فى نفس الربوبية وخصائص الرب. فان صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله . فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفـات كماله ؟ كما أن من أقر بالملك للملك ، ولم يجحد ملـكه ولا الصفات التى استحق بها الملك ، لـكن جعل معه شريكا فى بعض الأمور تقربا إليه خير ممن جحد صفات الملك ، ومايكون به الملك ملكا. هذا أمر مستقر فى سائر الفطر والعقول .

فأين القدح فى صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب اليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له و إجلالا ؟

فداء التعطيل هو الداء العضال الذى لا دواء له . ولهذا حكى الله عن إمام

المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات (٤٠ : ٣٦، ٣٧ ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب ، أسباب السموات ، فاطّلع إلى إله موسى . وإنى لأظنه كاذبا)

واحتج الشيخ أبوالحسن الأشعرى فى كتبه على المعطلة بهذه الآية .

وقد ذكرنا لفظه فى غير هذا الكتاب وهو كتاب «اجتماع الجيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية فى إثبات العلو» والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان

ولما كانت هذه البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيبا بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ عنادا وجهلا كانت من أكبر الكبائر ، إن قصرت عن الكفر ، وكانت أحب إلى إبليس من كبار الذنوب ، كما قال بعض السلف «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن المعصية يتاب منها والبدعة لايتاب منها» وقال إبليس لعنه الله «أهلكت بنى آدم بالذنوب ، وأهلكونى بلا إله إلا الله وبالاستغفار فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»

ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على الناس . وفتنة المبتدع فى أصل الدين ، وفتنة المذنب فى الشهوة . والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك . والمبتدع قادح فى أوصاف الرب وكماله [١] ، والمذنب ليس كذلك . والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ

---

(١) لأن المبتدع مشرع مالم يأذن به الله ولا يحبه ولا يرضاه . وذلك استدراك على الله واتهام له سبحانه بالجهل بمصالح عباده وما يصلحهم ، أو بأنه ناس لذلك . سبحان ربنا وتعالى عن ذلك . ولذلك قال الله فى هؤلاء (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وقال (٤٣ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) فينبغى أن لايستهان بأمر البدعة إذا عرفت أنها كذلك . فإن هذا هو الذى أفسد على الناس دينهم . وعقولهم ودنياهم

والعاصى ليس كذلك . والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصى بطىء السير بسبب ذنوبه .

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيان للعدل الذى قامت به السموات والأرض ، وأرسل الله سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كان — أى الظلم — من أكبر الكبائر عند الله ، وكانت درجته فى العظمة بحسب مفسدته فى نفسه ، وكان قتل الانسان ولده الطفل الصغير الذى لا ذنب له ، وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه ، وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة ، وقتله خشية أن يشاركه فى مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشده . وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده . وكذلك قتله ذات رحمه ، وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله السعى فى إبقائه ونصيحته . ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبى ، ويليه من قتل إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط ، ويدعوهم إلى الله سبحانه وينصحهم فى دينهم . وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود فى النار ، وغضب الجبار ، ولعنته وإعداد العذاب العظيم له ، هذا موجب قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع . ولا خلاف أن الاسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختياراً مانع من نفوذ ذلك الجزاء ،

وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه ؟ فيه قولان للسلف والخلف ، وهما روايتان عن أحمد .

والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لآدمى لم يستوفه فى دار الدنيا وخرج منها بظلامته . فلا بد أن يستوفى له فى دار العدل .

قالوا : فما استوفاه الوارث فانما استوفى محض حقه الذى خيره الله بين استيفائه والعفو عنه ، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ؟ وأى استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه ؟

وهذا أصح القولين فى المسألة : أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهو وجه لأصحاب الشافعى وأحمد وغيرهما .

ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث . فان التوبة تهدم ما قبلها والذنب الذى قد جناه قد أقيم عليه حده

قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثما من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءه وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم إلى التوبة وقال تعالى (٣٩:٥٣ ياعبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وهذا فى حق التائب ، وهى تتناول الكفر فما دونه .

قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه فى شرع الله وجزائه .

قالوا : وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه . ولا يمكن تسليمها إلى المقتول . فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول ، بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه. فانه يقوم مقام تسليمه للمورث

والتحقيق فى المسألة : أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق . حق لله ، وحق المظلوم المقتول ، وحق للولى ؛ فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولى ندما على مافعل ، وخوفا من الله وتوبة نصوحا يسقط حق الله بالتوبة ، وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح أو العفو . وبقى حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه . فلا يبطل حق هذا ، ولا تبطل توبة هذا .

وأما مسألة المال فقد اختلف فيها . فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من المال إلى الوارث فقد برىء من عهدته فى الآخرة ، كما برىء منها فى الدنيا .

وقالت : طائفة بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة ، وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له. فانه منعه من انتفاعه به فى طول حياته ، ومات ولم ينتفع به فهذا ظلم لم يتدركه ، و إنما ينتفع به غيره بادراكه ، وبنوا هذا على أنه لو انتقل المـال من واحد إلى واحد وتعدد الورثة ، كانت المطالبة للجميع ، لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم لكونه هو الوارث . وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد

وَفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين ، فقال: إن تمكن المورث من أخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذ حتى مات ، صارت المطالبة به للوارث فى الآخرة ، كما هى له كذلك فى الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه ، بل حيل بينه و بينه ظلماً وعدواناً . فالطلب له فى الآخرة .

وهذا التفصيل من أحسن مايقال، فان المال إذا استهلكه الظالم على المورث وتعذر أخذه منه صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل،وداره التى أحرقها غيره وطعامه وشرابه الذى أكله وشربه غيره. ومثل هذا إنما تلف على المورث لا على الوارث، فحق المطالبة لمن تلف على ملكه. فينبغى أن يقال : فاذا كان المال عقاراً أو أرضاً أو أعياناً قائمة باقية بعد الموت، فهى ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، وإذا لم تدفع إليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى، كما يستحق المطالبة بها فى الدنيا

وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بأن يقال : المطالبة لهما جميعاً، كما لو غصب مالا مشتركا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقه منه،وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه. كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم، ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض . والله أعلم

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى (٥:٣٢ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل : أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعاً)

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقالوا : معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم إثما عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوا من ظنهم أن التشبيه فى مقدار الإثم والعقوبة ، والقول لم يدل على هذا ، ولا يلزم من تشبيه الشىء بالشىء أخذه بجميع أحكامه. وقد قال تعالى (٧٩:٤٦ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وقال تعالى (٤٦:٣٥ كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وذلك لا يوجب أن لبثهم فى الدنيا إنما كان هذا المقدار . وقد قال النبي ﷺ « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل . ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله » أى مع العشاء ، كما جاء فى لفظ آخر . وأصرح من هذا قوله « من صام رمضان وأتبعه ستًا من شوال فكأنما صام الدهر » وقوله ﷺ « من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به ، فيكون قدرها سواء ، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلى الفجر والعشاء فى جماعة فى قيام الليل منفعة غير التعب والنصب ، وما أوتي أحد بعد الايمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

فان قيل : ففى أى شىء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة و بين قاتل الناس جميعا ؟

قيل : فى وجوه متعددة :

أحدها : أن كل واحد منهما عاص لله ورسوله ﷺ مخالف لأمره ،

متعرض لعقوبته ، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته واستحقاق الخلود فى نار جهنم ،وأعدَّ لهم عذابا عظيما ، و إن تفاوتت درجات العذاب،فليس إثم من قتل نبياً أو إماما عادلا أو عالماً يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لامزية له من آحاد الناس

الثاني : أنهما سواء فى استحقاق إزهاق النفس .

الثالث : أنهما سواء فى الجراءة على سفك الدم الحرام ، فان من قتل نفساً بغير استحقاق،بل لمجرد الفساد فى الأرض ولأخذ ماله . فانه يجترىء على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله ، فهو معاد للنوع الانسانى .

ومنها: أنه يسمى قاتلا أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحدا ، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعا

ومنها: أن الله سبحانه «جعل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى [(١)] له سائر الجسد بالحمى والسهر» فاذا أتلف القاتل عضوا من ذلك الجسد فكأنما أتلف سائر الجسد ، وآلم جميع أعضائه . فمن آذى مؤمناً واحدا فقد آذى جميع المؤمنين ، وفى أذى جميع المؤمنين أذى جميع الناس كلهم ، فان الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين هم بينهم . فايذاء الخفير ايذاء للمخفر . وقد قال النبى ﷺ « لاتقتل نفس ظلماً بغيرحق إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ [(٢)] منها ، لأنه أول من سَنَّ القتل » ولم يجىء هذا الوعيد فى أول زانٍ ولا أول سارق ، ولا أول شارب مسكر ، و إن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل لأنه أول من سن الشرك . ولهذا رأى النبى ﷺ عمرو بن لُحَيّ الخزاعى يعذب أعظم العذاب فى النار ، لأنه

(١) التداعى التهدم وهذا لفظ حديث عن النبى ﷺ

(٢) الكفل بكسر الكاف وسكون الفاء النصيب

أول من غير دين ابراهيم عليه السلام . وقد قال تعالى (٢ : ٤١ ولا تكونوا أول كافر به) أى فيقتدى بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم ، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها . وفى جامع الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دماً يقول: يارب ، سَلْ هذا : فيم قتلنى ؟ فذكروا لابن عباس التوبة . فتلا هذه الآية (٤ : ٩٣ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها) ثم قال : مانسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة ؟ » قال الترمذى : هذا حديث حسن . وفى صحيح البخارى عن سَمُرة بن جندب قال « أول ما ينتن من الانسان بطنه ، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل ومن استطاع أن لايحول بينه و بين الجنة ملء كَفٍّ من دم أهرقه فليفعل » وفى جامع الترمذى عن نافع قال « نظر عبد الله بن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ! والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك » قال الترمذى هذا حديث حسن. وفى صحيح البخارى أيضاً عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « لايزال المؤمن فى فُسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً » وذكر البخارى أيضاً عن ابن عمر قال « من ورطات الأمور التى لامخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله » وفى الصحيحين عن أبى هريرة يرفعه « سِباب المؤمن فسوق وقتاله كفر » وفيهما أيضاً عنه ﷺ « لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » وفى صحيح البخارى عنه ﷺ « من قتل معاهدا لم يَرَح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً » هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان معاهداً فى عهده وأمانه ، فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن ؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار فى هِرَّة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشا ، فرآها النبى ﷺ فى النار والهرة تخدشها فى وجهها وصدرها ، فكيف عقوبة من

حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم [١] وفى بعض السنن عنه ﷺ « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق » .

فصل

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد ، وهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الانساب، وحماية الفروج ، وصيانة الحرمات وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه و بنته وأخته وأمه ، وفى ذلك خراب العالم ، كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر . ولهذا قرنها الله سبحانه بها فى كتابه، ورسوله ﷺ فى سننه كما تقدم. قال الامام أحمد : ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنى . وقد أكد سبحانه حرمته بقوله (٢٥ : ٦٨ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) الآية . فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس . وجعل جزاء ذلك الخلود فى النار فى العذاب المضاعف المهين، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح [٢] وقد قال تعالى (١٧ : ٣٢ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) فأخبر عن فحشه فى نفسه وهو القبيح الذى قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه فى العقول . حتى

---

(١) لعله يشير بذلك إلى من حبس شيخه الامام ابن تيمية فى قلعة دمشق حتى مات رضى الله عنه.

(٢) العمل الصالح فى هذه الآية ، وأمثالها: هو الذى يصلح به ما أفسد فى نفسه وغيره بزناه وغيره من الشرك والفسوق فالعمل الصالح فى توبة الزانى : هو المبالغة فى العفاف والدعوة إليه . محاربة الزنى وكل مايقرب منه ، والعمل الصالح فى توبة المشرك هو محاربة الشرك بكل أنواعه. والدعوة إلى التوحيد . والعمل الصالح فى التوبة من ترك الصلاة: هو المحافظة على الصلاة لوقتها ومحاربة تارك الصلاة. وهكذا والله الموفق .

عند كثير من الحيوانات ، كما ذكر البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودى قال « رأيت فى الجاهلية قردا زنى بقردة ، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا » ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا[1] ، فانه سبيل هلكة و بوار وافتقار فى الدنيا ، وسبيل عذاب فى الآخرة وخزى ونكال . ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال (٤: ٢٢ إنه كان فاحشه ومقتاً وساء سبيلا) وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه ، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه . فقال (٢٣: ١-٧ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون - إلى قوله - فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون)

وهذا يتضمن ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وأنه من الملومين ، ومن العادين . ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ، ووقع فى اللوم فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك . ونظير هذا أنه ذم الانسان وأنه خلق هلوعا لا يصبر على شر ولا خير . بل إذا مسه الخير منع وبخل . و إذا مسه الشر جزع ، إلا من استثنى بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكر منهم (٧٠ : ٢٩ - ٣١ الذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم ، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم . مطلع عليها (٤٠ : ١٩ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور)

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج فان كل الحوادث مبدؤها من النظر ، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر

---

(١) أى ساء سبيلا إلى قضاء الوطر بين الذكر والأنثى ، لما ينتج من العواقب الوخيمة فى هدم المجتمع وفى تعريض الجسم والخلق والعقل ، والأنساب والدين والدنيا والآخرة . وقد يسر الله السبيل الحسنى لقضاء هذا الوطر بالنكاح الشرعى فما أطيبه وأهنأه من سبيل

الشرر . تكون نظرة . ثم تكون خطرة . ثم خطوة . ثم خطيئة . ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات . واللفظات ، والخطوات

فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة . ويلازم الرباط على ثغورها . فمنها يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الديار . ويتبر ماعلا تتبيرا

فصل

وأكثر ماتدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة ، فنذكر في كل واحد منها فصلا يليق به

فأما اللحظات : فهي رائد الشهوة ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج . فمن أطلق نظره أورد نفسه موارد الهلاك . وقد قال النبي ﷺ « ياعلي : لاتتبع النظرة النظرة . فانما لك الأولى. وليست لك الثانية » وفي المسند عنه ﷺ « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس » فمن غض بصره عن محاسن امرأة أو أمرد لله أورث الله قلبه حلاوة العبادة إلى يوم القيامة » هذا معنى الحديث . وقال « غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم » وقال « إياكم والجلوس على الطرقات. قالوا يارسول الله مجالسنا ، مالنا بد منها ، قال : فان كنتم لابد فاعلين . فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حقه ؟ قال : غض البصر وكف الأذى ، ورد السلام »

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الانسان . فان النظرة تولد الخطرة . ثم تولد الخطرة فكرة . ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة . ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة . فيقع الفعل ولا بد ، مالم يمنع منه مانع . وفي هذا قيل « الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم مابعده » ولهذا قال الشاعر :

كل الحوادث مَبداها من النظر * ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت في قلب صاحبها * كمبلغ السهم بين القوس والوتر ؟

والعبد ما دام ذا طَرْف يُقلّبه * في أعين العِين موقوف على الخطر
يَسُرُّ مُقلته ما ضرَّ مُهجته * لامرحباً بسرور عاد بالضرر

ومن آفاته: أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه، وهذا من أعظم العذاب: أن ترى ما لا صبر لك عنه، ولا عن بعضه، ولا قدرة لك عليه. قال الشاعر:

وكنتَ متى أرسلت طرفك رائداً   لقلبك يوماً، أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كُلّه أنت قادر   عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا البيت يحتاج إلى شرح. ومراده: أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه ولا تقدر عليه. فإن قوله «لا كله أنت قادر عليه» نفي لقدرته على الكل الذي لا ينتفي إلا بنفي القدرة عن كل واحد واحد.

وكم من مرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلا، كما قيل:

يا ناظراً، ما أقلعت لحظاته   تَشَحَّط بينهن قتيلا

ولي من أبيات:

مَلَّ السلامة فاغتدتْ لحظاته   وَقفاً على طلل يظن جميلا
ما زال يتبع إثره لحظاته   حتى تشحط بينهن قتيلا

ومن العجب: أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه، حتى يتبوأ مكانه من قلب الناظر. ولي من قصيدة:

يا راميا بسهام اللحظ مجتهدا   أنت القتيل بما ترمي، فلا تصب
وباعثَ الطرف يرتاد الشفاء له   احبس رسولك، لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك: أن النظرة تجرح القلب جرحا، فيتبعها جُرح على جرح؛ ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها. ولي أيضاً في هذا المعنى:

ما زلتَ تتبع نظرة في نظرة   في إثر كل مليحة ومليح
وتظن ذاك دواء جُرحك وهو في التـ   ـحقيق تجريح على تجريح

فذبحت طرفك باللحاظ وبالبكاء　　فالقلب منك ذبيح أى ذبيح

وقد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات

فصل

وأما الخطرات : فشأنها أصعب ، فانها مبدأ الخير والشر ، ومنها تتولد الارادات والهمم والعزائم . فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب . ومن استهان بالخطرات قادته قهراً إلى الملكات . ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير مُنىً [١] باطلة (٢٤ : ٣٩ كسَراب بقِيعَةٍ [٢] يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) وأخس الناس همة ، وأوضعهم نفساً من رضى من الحقائق بالأمانى الكاذبة واستجلبها لنفسه وتحلَّى بها ، وهى لعمر الله رءوس أموال المفلسين ومتاجر البطَّالين . وهى قوة النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ، ومن الحقائق بكواذب الآمال ، كما قال الشاعر :

أمانىَّ من سُعدى رواء على الظما　　سقتنا بها سعدى على ظمأ بردا

مُنى إن تكن حقاً تكن فما أحسن المنى　　وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وهى أضر شىء على الانسان ، وتتولد من العجز والكسل ، وتولد التفريط والاضاعة والحسرة والندامة . والمتمنى لما فاته مباشرة الحقيقة بجسه نحت صورتها فى قلبه ، وعانقها وضمها إليه ، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك لايجدى عليه شيئا ، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصور فى وهمه صورة الطعام والشراب ، وهو لا يأكل ولا يشرب . والسكون منه إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها . وإنما شرف النفس وزكاؤها ، وطهارتها وعلوها

---

(١) جمع أمنية . وهى ماتتمناه النفس ، ولا تصل إليه لعجزها عنه أو لعدم قدرتها على السبيل اليه (٢) القيعة والقاع . المستوى من الارض

بأن ينفى عنها كل خطرة لاحقيقة لها، ولا يرضى أن يخطرها بباله و يأنف لنفسه منها

ثم الخطرات بعدُ أقسام تدور على أربعة أصول : خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه ، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته ،وخطرات يستدفع بها مضار آخرته . فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه فى هذه الأقسام الأربعة . فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره ، و إذا تزاحمت عليه الخطرات كتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذى يخشى فوته ، وأخر الذى ليس بأهم ولا يخاف فوته .

بقى قسمان آخران . أحدهما : مهم لايفوت ، والثانى : غير مهم ولكنه يفوت ففى كل منهما مايدعو إلى تقديمه . فهنا يقع التردد والحيرة فيه ، فإن قدَّمَ الأهم خشى فوات مادونه ، و إن قدم مادونه فاته الاشتغال به عن المهم .وذلك بأن يعرض له أمران لايمكن الجمع بينهما ، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر . فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة . ومن ههنا ارتفع من ارتفع ، ونجح من نجح ،وخاب من خاب .فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذى لايفوت على المهم الذى يفوت . ولا تجد أحداً يسلم من ذلك. ولكن مستقل ومستكثر .

والتحكيم فى هذا الباب للقاعدة الكبرى التى يكون عليها مدار الشرع والقدر و إليها يرجع الخلق والأمر .وهى إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما. و إن فاتت المصلحة التى هى دونها والدخول فى أدنى المفسدتين لدفع ماهو أكبر منها. فيفوت مصلحة لتحصيل ماهو أكبر منها ، و يرتكب مفسدة لدفع ماهو أعظم منها .

فخطرات العاقل و فِكَره لاتتجاوز ذلك .و بذلك جاءت الشرائع ومصالح الدنيا والآخرة لاتقوم إلا على ذلك . وأعلى الفِكَر وأجلها : ما كان لله والدار الآخرة . فما كان لله فهو أنواع :

الأول : الفكرة فى آياته المنزلة وتعقلها وفهمها ،وفهم مراده منها ، ولذلك أنزلها

الله تعالى لا لمجرد تلاوتها . بل التلاوة وسيلة . قال بعض السلف : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا .

الثانى : الفكرة فى آياته المشهودة والاعتبار بها ، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته ، و إحسانه و بره وجوده . وقد حث الله سبحانه عباده على التفكر فى آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك .

الثالث : الفكرة فى آلائه و إحسانه ، و إنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة مغفرته ورحمته وحلمه .

وهذه الانواع الثلاثة تستوجب للقلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاه ، ودوام الفكرة فى ذلك مع الذكر يصبغ للقلب المعرفة والمحبة صبغة تامة .

الرابع : الفكرة فى عيوب النفس وآفاتها ، وفى عيوب العمل ، وهذه الفكرة عظيمة النفع ، وهذا باب لكل خير ، وتأثيرها فى كسر النفس الأمارة بالسوء ، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت وصار الحكم لها ، فحيى القلب ، ودارت كلمته فى مملكته ، وبث أمراءه وجنوده فى مصالحه .

الخامس : الفكرة فى واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه . فالعارف ابن وقته . فان أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها . فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت ، فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبداً . قال الشافعى رضى الله عنه «صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين ، أحدهما قولهم : الوقت سيف ، فان لم تقطعه قطعك ، وذكر الكلمة الأخرى : ونفسك إن شغلتها بالحق و إلا شغلتك بالباطل » فوقت الانسان هو عمره فى الحقيقة ، وهو مادة حياته الأبدية فى النعيم المقيم ، ومادة المعيشة الضنك فى العذاب الأليم ، وهو يمر أسرع من مر السحاب فما كان من وقته لله و بالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته و إن عاش فيه طويلا ، فهو يعيش عيش البهائم ، فاذا قطع وقته فى الغفلة والشهوة

والأمانى الباطلة وكان خير ما قطعه بالنوم والبطالة ، فموت هذا خير له من حياته ، وإذا كان العبد وهو فى الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عقل منها . فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله ، وما عدا هذه الاقسام من الخطرات والفكر . فاما وساوس شيطانية ، وإما أمانى باطلة ، وخدع كاذبة ، بمنزلة خواطر المصابين فى عقولهم من السكارى والحشاشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول ، عند انكشاف الحقائق :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد لقيت ، فقد ضيعت أيامى
أمنية ظفرت نفسى بها زمنا واليوم أحسبها أضغاث أحلام

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر ، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته ، فالخاطر كالمار على الطريق فان لم تستدعه وتتركه ، مر وانصرف عنك ، وإن استدعيته سحرك بحديثه وخِدَعه وغروره ، وهو أخف شىء على النفس الفارغة الباطلة، وأثقل شىء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة .

وقد ركب الله سبحانه فى الإنسان نفسين : نفساً أمارة ، ونفساً مطمئنة وهما متعاديتان[1] فكل ماخف على هذه ثقل على هذه ، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى ، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها ،

(١) إنما تتعاديان عند الغافلين المنسلخين عن آيات الله ورحمته وحكمته . المبدلين لنعم الله فيهم كفراً . فهم الذين يخلدون إلى أرض البهيمية ويعمون عن علياء الروحانية الكريمة . فتكون نفسهم أبداً أمارة بالسوء والفحشاء . أما العارفون لنعم الله وآياته الشاكرون لها بحسن استعمالها والانتفاع بها فيما جعلها لها العليم الحكيم ، وهم أحياء العقول والقلوب المؤمنون بالله وآياته المحسنون فى نعم الله وآلائه فتكون نفسهم الامارة أبداً أمارة لهم بالحسنى . وهم الذين قال الله فيهم (١٠: ٢٦ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ويكون كل ما آتاهم الله فى أنفسهم وفى الآفاق جنداً لهم وعوناً على الاستجابة لدعوة ربهم إلى دار السلام فى الدنيا والآخرة . جعلنا الله منهم .

وليس لها أنفع منه ، وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله ، وإجابة داعى الهوى . وليس عليها شيء أضر منه . والملك مع هذه عن يمين القلب والشيطان مع تلك عن ميسرة القلب . والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن تستوفى أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والنفس الأمارة ، والحق كله يتحيز مع الملك والنفس المطمئنة ، والحرب دول وسجال والنصر مع الصبر . ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة فى الدنيا والآخرة . وقد حكم الله تعالى حكماً لا يبدل أبداً : أن العاقبة للتقوى . والعاقبة للمتقين . فالقلب لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه ، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع ، وأمانى باطلة ، وسراب لا حقيقة له ؟ فأى حكمة وعلم وهدى ينقش مع هذه النقوش ؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك فى لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع فى محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه . فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم تستقر فيه الخواطر النافعة ، فإنها لا تستقر إلا فى محل فارغ . كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خاليا فتمكنا

ولهذا بنى كثير من أرباب السلوك سلوكهم على حفظ الخواطر ، وأن لا يمكنوا خاطرا يدخل قلوبهم حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها ، وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء . فإنهم أخلو القلوب من أن يطرقها خاطر . فبقيت فارغة لا شيء فيها ، فصادفها الشيطان خالية . فبذر فيها الباطل فى قوالب أوهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها . وعوضهم بها عن الخواطر التى هى مادة العلم والهدى وإذا خلا القلب عن هذه الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خالياً ، فشغله بما يناسب حال صاحبه ، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية . فكيف بالعلوية . فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التى لا صلاح للعبد ، ولا فلاح إلا بأن تكون هى المستولية على قلبه . وهى إرادة مراد الله الدينى الأمرى الذى يحبه ويرضاه ، وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل ، والقيام به وتنفيذه فى الخلق ، والتطرق إلى

ذلك ، والتوصل اليه بالدخول فى الخلق لتنفيذه ، فَبَرْطَلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد فى خواطر الدنيا وأسبابها . وأوهمهم أن كمالهم فى ذلك التجريد والفراغ . وهيهات هيهات . إنما الكمال فى امتلاء القلب والسر من الخواطر والارادات والفكر فى تحصيل مراضى الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر فى طرق ذلك للتوصل اليه فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكرا وإرادات لذلك ، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت . والله المستعان .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر فى مرضاة الرب تعالى، فربما استعملها فى صلاته . فكان يجهز جيشه وهو فى صلاته ،فيكون قد جمع بين الصلاة والجهاد. وهذا من باب تداخل العبادات فى العبادة الواحدة . وهو باب عزيز شريف، لا يدخل منه إلا صادق حاذق القلب ، متضلع من العلم عالى الهمة. بحيث يدخل فى عبادة فيظفر فيها بعبادات شتى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فصل

وأما اللفظات : فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة ، بل لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة فى دينه ، فان أراد أن يتكلم بالكلمة نظر : هل فيها ربح وفائدة أم لا ؟ فان لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر : هل تفوته بها كلمة هى أربح منها ؟ فلا يضيعها بهذه . وإذا أردت أن يستدل على ما فى القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان . فانه يطلعك على ما فى القلب ، شاء صاحبه أم أبى. قال يحيى بن معاذ «القلب كالقدور تغلى بما فيها ، وألسنتها مغارفها» فانظر الرجل حين يتكلم فان لسانه يغترف لك به مما فى قلبه حلواً أو حامضا . وعذباً أو أجاجا وغير ذلك ، و يبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه ، أى كما تطعم بلسانك طعم ما فى القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما فى قلب

الرجل من لسانه ، فتذوق مافى قلبه من لسانه، كما تذوق مافى القدر بلسانك .
وفى حديث أنس المرفوع « لايستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » وسئل النبى ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال « الفم والفرج » قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقد سأل معاذ النبى ﷺ عن العمل الذى يدخله الجنة و يباعده من النار . فأخبره النبى ﷺ « برأسه وعموده و ذِرْوة سنامه ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قال : بلى يارسول الله فأخذ بلسان نفسه ثم قال : كُفَّ عليك هذا ، فقال : و إنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يامعاذ [1] وهل يُكِبُّ الناس فى النار على وجوههم ـ أو قال على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم » قال الترمذى : حديث حسن صحيح.

ومن العجب: أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر ، ومن النظر المحرم وغير ذلك ، و يصعب عليه التحفظ من حركة لسانه ، حتى يُرى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لايلقى لها بالا [2] يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ، ولسانه يَفرى [3] فى أعراض الأحياء والأموات ولا يبالى مايقول

و إذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى مارواه مسلم فى صحيحه من حديث جُنْدُب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله عز وجل : من ذا الذى يتألَّى علىَّ أنى لا أغفر لفلان [4] ؟ قد غفرت له وأحبطت عملك» فهذا العابد الذى قد عبد الله ماشاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله .

---

(١) أى فقدتك . وهو من الألفاظ التى تعودتها العرب لقصد التنبيه لا لقصد الدعاء كقولهم : تربت يداك . وقاتلك الله وغير ذلك (٢) أى لا يفكر فيها ولا يتأمل فى عواقبها (٣) فرى الجلد مزقه (٤) هو من الألية . وهى اليمين

وفى حديث أبي هريرة نحو ذلك ، ثم قال أبو هريرة «تكلم بكلمة أوبقت[١] دنياه وآخرته»

وفى الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقى لها بالاً يهوى بها فى نار جهنم » وعند مسلم « إن العبد ليتكلم بالكلمة مايتبين مافيها يهوى بها فى النار أبعد مما بين المغرب والمشرق »

وعند الترمذى عن النبى ﷺ من حديث بلال بن الحارث المزنى « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله مايظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ مابلغت ، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث .

وفى جامع الترمذى أيضاً من حديث أنس قال « توفى رجل من الصحابة فقال رجل : أبشر بالجنة . فقال رسول الله ﷺ : أولا تدرى ؟ لعله تكلم فيما لايعنيه ، أو بخل بما لاينقصه » قال الترمذى : حديث حسن . وفى لفظ « أن غلاما استشهد يوم أحد ، فوُجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع ، فمسحت أمه التراب عن وجهه ، وقالت : هنيئاً لك الجنة يابني . فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لايعنيه ، ويمنع مالا يضره »

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يرفعه « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » وفى لفظ لمسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فاذا شهد أمرا فليتكلم بخير أو ليسكت »

وذكر الترمذى بإسناد صحيح عنه ﷺ « من حُسن إسلام المرء تركه ما لا

---

(١) أوبقت : أى أهلكت

يعنيه » وعن سفيان بن عبد الله الثقفى قال « قلت: يارسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك .قال: قل آمنت بالله ثم استقم، قال قلت : يارسول الله ، ما أخوف ماتخاف علىّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال:هذا» والحديث صحيح

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبى ﷺ قال « كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلا أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو ذكر الله عز وجل » قال الترمذى : حديث حسن

وفى حديث آخر « إذا أصبح العبد فان الأعضاء كلها تُكفِّر اللسان،تقول: اتق الله فانما نحن بك .فاذا استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا »

وقد كان بعض السلف يحاسب نفسه فى قوله يوم حار ويوم بارد . ولقد رُؤى بعض الأكابر من أهل العلم فى النوم بعد موته فسئل عن حاله فقال : أنا موقوف على كلمة قلتها.قلت:ما أحوج الناس إلى غيث ،فقيل لى:ومايدريك ؟ أنا أعلم بمصلحة عبادى.وقال بعض الصحابة لخادمه يوما : هات لى السُّفرة نعبث بها ، ثم قال : أستغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخْطِمها وأزُمُّها (١) إلا هذه الكلمة خرجت منى بغير خِطام ولا زِمام ؛ أو كما قال.وشر حركات الجوارح حركة اللسان وهى أضرها على العبد .

واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع مايلفظ به أو الخير والشر فقط ؟ على قولين . أظهرهما الأول .

وقال بعض السلف : كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من ذكر الله وما والاه (٢) وكان الصديق رضى الله عنه يُمسك بلسانه ويقول: هذا أوردنى الموارد

---

(١) خطم البعير أن يؤخذ حبل من ليف أو شعر أو كتان فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ، ثم يقلد البعير ثم يثنى على مخطمه وهو أنفه . وأما الحبل الذى يجعل فى الانف دقيقا فهو الزمام

(٢) أى وما تبع ذكر الله . وقد تقدم قريبا أنه حديث من رواية أم حبيبة

والكلام أسيرك. فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره . والله عند لسان كل قائل (١٨:٥٠ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)

وفى اللسان آفتان عظيمتان ، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى آفة الكلام ، وآفة السكوت . وقد تكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى فى وقتها . فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، عاص لله ، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه . والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله . وأكثر الخلق منحرف فى كلامه وسكوته . فهم بين هذين النوعين . وأهل الوسط ـ وهم أهل الصراط المستقيم ـ كفوا ألسنتهم عن الباطل ، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة . فلا يُرى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة ، فضلاً عن أنه تضره فى آخرته . وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ، ويأتى بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله عز وجل وما اتصل به

فصل

وأما الخطوات : فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه عند الله تعالى فإن لم يكن فى خُطاه مزيد ثواب فالقعود عنه خير له ، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قُربة يتقرب بها وينويها لله ، فتقع خطاه قربة ، وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات .

ولما كانت العثرة عثرتين : عثرة الرجل ، وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى فى قوله تعالى (٢٥ : ٦٣ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً [١] وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) فوصفهم بالاستقامة فى لفظاتهم وخطواتهم ، كما جمع بين اللحظات والخطرات فى قوله تعالى (٤٠ : ١٩ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور)

---

(١) الهون : الرفق واللين والتثبت .

فصل

وهـذا كله ذكرناه مقدمة بين يدى تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج وقد قال ﷺ « أكثر ما يدخل الناس النار: الفم والفرج » وفى الصحيحين عنه ﷺ « لايحـل دم امرئ مسلم إلا باحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » وهذا الحديث فى اقتران الزنى بالـكفر وقتل النفس نظير الآية التى فى الفرقان ، ونظير حديث ابن مسعود .

بدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعاً ، ثم بالذى يليه، فالزنى أكثر وقوعاً من قتل النفس ، وقتل النفس أكثر وقوعاً من الردة . نعوذ بالله منها . وأيضاً فانه انتقال من الأكبر إلى ما هو أكبر منه مفسدة . ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم . فان المرأة إذا زنت أدخلت العـار على أهلها وزوجها وأقاربها ، ونكست رؤسهم بين الناس و إن حملت من الزنى ، فان قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل. و إن أبقته حملته على الزوج ، فأدخلت على أهلها وأهله أجنبيا ليس منهم، فورثهم وليس منهم ورآهم وخلابهم وانتسب إليهم وليس منهم . إلى غير ذلك من مفاسد زناها . وأما زنى الرجل . فانه يوجد اختلاط الأنساب أيضاً . و إفساد المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد . ففى هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين ، وان عمرت القبور فى البرزخ والنار فى الآخرة . فـكم فى الزنى من استحلال محرمات، وفوات حقوق ووقوع مظالم ؟ .

ومن خاصيته: أنه يوجب الفقر و يقصر العمر . و يكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس . ومن خاصيته أيضا : أنه يشتت القلب و يمرضه إن لم يمته ، و يجلب الهم والحزن والخوف ، و يباعد صاحبه من الملك و يقربه من الشيطان . فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته . ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها . ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من

أن يبلغه أنها زنت . وقال سعد بن عبادة رضي الله عنه «لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصفَّح[(١)] فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : أتعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير منه . والله أغير مني ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن » متفق عليه . وفي الصحيحين أيضا عنه ﷺ « إن الله يغار . و إن المؤمن يغار . وغيرة الله أن يأتي العبد ماحرم عليه » .

وفي الصحيحين عنه ﷺ « لاأحدَ أغيرُ من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن . ولا أحدَ أحبُّ اليه العذر من الله . من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه »

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال « يا أمة محمد والله إنه لا أحد أغير من الله . أن يزني عبده أو تزني أمته . يا أمة محمد ، و الله لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ثم رفع يديه فقال : اللهم هل بلغت ؟ »

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله وظهور الزنى من أمارات خراب العالم . وهو من أشراط الساعة ، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال «لأحدثنكم حديثا لايحدثكموه أحد بعدي . سمعته من النبي ﷺ سمعته ﷺ يقول : « من أشراط الساعة أن يرفع العلم و يظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنى ، ويقل الرجال ، وتكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد »

وقدجرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه وتعالى و يشتد غضبه ، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة . قال عبدالله بن مسعود «ماظهر الربى والزنى في قرية إلا أذن الله باهلاكها» ورأى بعض أحبار بني اسرائيل ابنا له يغمز امرأة فقال : مهلا يابني ، فصُرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه

---

(١) بضم الميم وفتح الفاء . يقال : أصفحه بالسيف أي ضربه بعرضه دون حده

وأسقطت امرأته وقيل له « هكذا غضبك لى ؟ لايكون فى نسلك خير أبدا »

وخص سبحانه حد الزنى من بين سائر الحدود بثلاث خصائص: أحدها القتل فيه بأشنع القتلات ، وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة .

الثانى : أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة فى دينه ، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم ، فانه سبحانه من رأفته بهم ورحمته شرع هذه العقوبة فهو أرحم بهم منكم بهم ، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة ، فلا يمنعكم أنتم مايقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره .

وهذا — وإن كان عاما فى سائر الحدود — ولكن ذكر فى حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره . فان الناس لا يجدون فى قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزانى مايجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر فقلوبهم ترحم الزانى أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم والوقائع . والواقع شاهد بذلك . فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله عز وجل

وسبب هذه الرحمة : أن هذا ذنب يقع من الاشراف والأوساط والأراذل وفى النفوس أقوى الدواعى إليه والمشارك فيه كثير ، وأكثر أسبابه العشق ، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق ، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة ، وإن كانت الصور المعشوقة محرمة عليه . ولا يستنكر هذا الأمر ، فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الأنعام . ولقد حكى لنا من ذلك شيء كثير ، أكثره عن ناقصى العقول والأديان ، كالخدم والنساء .

وأيضاً فان هذا ذنب قل أن يقع إلا مع التراضى من الجانبين ، فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ماتنفر النفوس منه وفيه شهوة غالبة ، فتصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد . وهذا كله من ضعف الإيمان . وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود ، فيكون موافقاً لربه ورحمته

الثالث : أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين ، فلا يكون فى خلوة حيث لايراهما أحد ، وذلك أبلغ فى مصلحة الحد وحكمة الزجر . وحد الزانى المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة . وذلك لاشتراك الزنى واللواط فى الفحش ، وفى كل منهما فساد يناقض حكمة الله فى خلقه وأمره فان فى اللواط من المفاسد مايفوت الحصر والتعداد ، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى . فإنه يفسد فساداً لايرجى له بعده صلاح أبداً . ويذهب خيره كله . وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه . فلا يستحى بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه ، وتعمل فى قلبه وروحه نطفة الفاعل مايعمل السم فى البدن .

وقد اختلف الناس : هل يدخل الجنة مفعول به ؟ على قولين . سمعت شيخ الاسلام رحمه الله يحكيهما(١) .

والذين قالوا لايدخل الجنة احتجوا بأمور : منها أن النبى ﷺ قال «لايدخل الجنة ولد زنى» فاذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لاذنب له فى ذلك ، ولكنه مظنة كل شر وخبث ، ، وهو جدير أن لايجىء منه خير أبداً . لأنه مخلوق من نطفة خبيثة ، وإذا كان الجسد الذى تربى على الحرام ، النار أولى به ، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام ؟(٢)

قالوا والمفعول به شر من ولد الزنى ، وأخزى وأخبث ، وأوسخ وهو جدير أن لايوفق لخير، وأن يحال بينه و بينه. وكلما عمل خيراً قيض الله له مايفسده عقوبة له .

---

(١) هذا الخلاف لامحل له. فان الجنة لايدخلها إلا الانسان الكريم الذى شكر نعمة الانسانية وغيرها فسما بها حتى كان مع الأبرار . والمفعول به نزل إلى أسفل سافلين حتى كان أسفل من الحشرات القذرة وهل هناك خلاف فى دخول الحشرات الجنة؟

(٢) الحديث فى ولد الزنى : واه لا تقوم به حجة . وقياس ولد الزنى على آكل الحرام قياس مع الفارق البعيد. فان آكل الحرام قصد إلى الجناية وكسبها بفسقه. وولد الزنى لم يقصد إلى جناية ولم يكسب بزنى أبويه سيئة. وما ربك بظلام للعبيد

وقلّ أن ترى من كان كذلك فى صغره إلا وهو فى كبره شر ممـا كان ، ولا يوفق لعمل صالح ، ولا لعلم نافع ، ولا لتوبة نصوح .

والتحقيق فى هذه المسألة أن يقال : إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب ورزق توبة نصوحا وعملا صالحا ، وكان فى كبره خيراً منه فى صغره ، و بدل سيئاته بحسنات ، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات ؛ وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات ، وصدق الله فى معاملته . فهذا مغفور له ، وهو من أهل الجنة . فان الله يغفر الذنوب جميعاً . و إذا كانت التوبة تمحو كل ذنب ، حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه ، والسحر والكفر وغير ذلك فلا تقصر عن محو هذا الذنب وقد استقرت حكمة الله عدلا وفضلا أن « التائب من الذنب كمن لاذنب له » وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى وآمن وعمل صالحا أنه يبدل سيئاته حسنات ، وهذا حكم عام لـكل تائب من ذنب . وقد قال تعالى (٣٩ : ٥٣ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ولـكن هذا فى حق التائبين خاصة . وأما مفعول به كان فى كبره شراً مما كان فى صغره لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح ،ولا استدرك مافات ، ولا أحيا مامات ولا بدل السيئات بالحسنات . فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بهـا الجنة ،عقوبة له على عمله. فان الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخرى وتتضاعف عقوبة السيئات بعضهـا ببعض ، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى فتتضاعف الحسنات .

و إذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم و بين حسن الخاتمة عقوبة لهم على أعمالهم السيئة .

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلى رحمه الله

« واعلم أن لسوء الخاتمة – أعاذنا الله منها – أسباباً ولها طرقاً وأبواباً ، أعظمها الانكباب على الدنيا وطلبها والحرص عليها ، والاعراض عن الأخرى والاقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل . وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية ، وجانب من الإعراض ، ونصيب من الجرأة والاقدام ، فملك قلبه وسبي عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه . فلم تنفع فيه تذكرة ولا تنجع فيه موعظة فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين له المراد ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعي وأعاد قال : ويروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت فجعل ابنه يقول له قل لا إله إلا الله فقال : الناصر مولاي ، فأعاد عليه القول. فقال مثل ذلك. ثم أصابته غشية، فلما أفاق قال : الناصر مولاي. وكان هذا دأبه، كلما قيل له قل لا إله إلا الله ، قال: الناصر مولاي . ثم قال لابنه: يافلان الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل . ثم مات على ذلك ، قال عبد الحق رحمه الله : وقيل لآخر – ممن أعرفه – قل لا إله إلا الله فجعل يقول : الدار الفلانية اصلحوا فيها كذا ، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا

قال وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أحدث به عنه أن رجلا نزل به الموت فقيل له : قل لا إله إلا الله . فجعل يقول بالفارسية ده يازده ، تفسيره : عشرة بإحدى عشرة . وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول :

أين الطريق إلى حمام منجاب ؟

قال : وهذا الكلام له قصة . وذلك أن رجلا كان واقفاً بإزاء داره ، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام ، فمرت به جارية لها منظر ، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ فقال : هذا حمام منجاب . فدخلت الدار ودخل وراءها . فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه . وقالت – خدعة منها له وتحيلا ، لتتخلص مما أوقعها فيه ، وخوفاً من فعل الفاحشة – : يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقرَّ به عيوننا . فقال لها : الساعة آتيك بكل

ما تريدين وتشتهين . وخرج وتركها فى الدار . ولم يغلقها . فأخذ مايصلح ورجع ، فوجدها قد خرجت وذهبت ، ولم تخنه فى شىء . فهام الرجل وأ كثر الذكر لها ، وجعل يمشى فى الطريق والأزقة ويقول :

يا رب قائلة يوماً ، وقد تعبت أين الطريق إلى حمام منجاب ؟

فبينا هو يقول ذلك وإذا بجاريته أجابته من طاق يا : قرنان :

هل لاجعلت سريعاً إذ ظفرت بها * حرزاً على الدار أو قفلا على الباب؟

فازداد هيمانه واشتد هيجانه ولم يزل كذلك ، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا .

قال: و يروى أن رجلا عشق شخصاً فاشتد كلفه به، وتمكن حبه من قلبه،حتى وقع ألماً به ولزم الفراش بسببه . وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه . فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده أن يعوده ؛ فأخبره الساعى بذلك ففرح واشتد سروره وانجلى غمه ، وجعل ينتظر الميعاد الذى ضرب له ، فبينا هو كذلك إذجاءه الساعى بينهما، فقال : إنه وصل معى إلى بعض الطريق ورجع، فرغبت إليه وكلمته، فقال : إنه ذكرنى و برح بى ، ولا أدخل مداخل الريب،ولا أعرض نفسى لمواقع التهم . فعاودته فأبى وانصرف . فلما سمع البائس ذلك سُقط فى يده وعاد إلى أشد مما كان به ، و بدت عليه علائم الموت ، فجعل يقول فى تلك الحال :

اسلم ياراحة العليل ويا شفاء المدنف النحيل

رضاك أشهى إلى فؤادى من رحمة الخالق الجليل

فقلت له : يافلان اتق الله . قال : قد كان . فقمت عنه . فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت . فعياذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة .

ولقد بكى سفيان الثورى ليلة إلى الصباح . فلما أصبح قيل له : أكل هذا

خوفا من الذنوب ؟ فأخذ تبنة من الأرض وقال : الذنوب أهون من هذه ، و إنما أبكى خوفاً من سوء الخاتمة .

وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخدعه ذنوبه عندالموت فتحول بينه و بين الخاتمة الحسنى .

وقد ذكر الامام أحمد عن أبى الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق و يقرأ (٦:١١٠ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة و نَذَرُهم فى طغيانهم يعمهون) فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجابا بينهم و بين الخاتمة الحسنى .

قال : واعلم أن سوء الخاتمة _ أعاذنا الله تعالى منها _ لاتكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ، ماسمع بهذا ولا علم به ولله الحمد . و إنما تكون لمن له فساد فى العقيدة أو إصرار على الكبيرة ، و إقدام على العظائم. فربما غلب ذلك عليه حتى نزل به الموت قبل التوبة ، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويُصطَلَم[1] قبل الانابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عنه تلك الدهشة. والعياذ بالله .

قال : و يروى أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلاة فيه ، وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة . فرقَى يوماً المنارة على عادته للأذان ، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها ، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان ،ونزل إليها ودخل الدار عليها، فقالت له : ماشأنك ، وما تريد ؟ قال أريدك . قالت: لماذا ؟ قال . قد سلبت لبى ، وأخذت بمجامع قلبى . قالت : لا أجيبك إلى ريبة أبداً . قال : أتزوجك . قالت : أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لا يزوجنى منك . قال : أتنصر . قالت : إن فعلت أفعل . فتنصر الرجل ليتزوجها ، وأقام معهم فى الدار . فلما كان فى أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه . فمات . فلم يظفر بها وفاته دينه

(١) الاصطلام الاستئصال

فصل

ولما كانت مفسدة اللواط[1] من أعظم المفاسد كانت عقوبته فى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات .

وقد اختلف الناس : هل هو أغلظ عقوبة من الزنى أو الزنى أغلظ عقوبة منه ، أو عقوبتهما سواء ؟ على ثلاثة أقوال :

فذهب أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وخالد بن زيد وعبد الله بن معمر ، والزهرى وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، ومالك واسحق بن راهويه ، والامام أحمد ـ فى أصح الروايتين عنه ـ والشافعى فى أحد قوليه ـ إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى ، وعقوبته القتل على كل حال ، محصناً كان أو غير محصن .

وذهب عطاء بن أبى رباح والحسن البصرى وسعيد بن المسيب وابراهيم النخعى ، وقتادة والأوزاعى ، والشافعى ـ فى ظاهر مذهبه ـ والامام أحمد ـ فى الرواية الثانية عنه ـ وأبو يوسف ومحمد ـ إلى أن عقوبته وعقوبة الزنى سواء .

وذهب الحاكم والامام أبو حنيفة إلى أن عقوبته دون عقوبة الزانى وهى التعزير .

قالوا : لأنه معصية من المعاصى لم يقدّر الله ولا رسوله ﷺ فيها حداً مقدراً . فكان فيه التعزير كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : ولأنه وطء فى محل لاتشتهيه الطبائع ، بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم ، فلم يكن فيه حد كوطء الأتان وغيرها .

قالوا : ولأنه لايسمى زانياً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً . فلا يدخل فى النصوص الدالة على حد الزانيين .

---

(١) الأولى أن يقول « فعل قوم لوط »

قالوا : ولانا رأينا من قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع عنها طبعياً اكتفى بذلك الوازع عن الحد. وإذا كانت الطبائع تقتضيها جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطبائع لها . ولهذا جعل الحد فى الزنى والسرقه وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير

قالوا : وطرد هذا. أنه لاحد فى وطء البهيمة ولا الميتة ، وقد جبل الله تعالى الطبائع على النفرة من وطء الرجل الرجل أشدنفرة ، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف الزنى . فان الداعى فيه من الجانبين .

قالوا : ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد ، كما لو تساحقت المرأتان ، واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى

قال أصحاب القول الأول ـ وهم جمهور الأمة ، وحكاه غير واحد إجماعا للصحابة : ليس فى المعاصى مفسدة أعظم من مفسدة اللواط ، وهى تلى مفسدة الكفر ، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى

قالوا: ولم يبتل الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين. وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم ، وجمع عليهم أنواعا من العقوبات من الاهلاك ، وقلب ديارهم عليهم، وخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء ، وطمس أعينهم . وعذبهم وجعل عذابهم مستمراً . فنكل بهم نكالا لم ينكله بأمة سواهم . وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض تميد (١) من جوانبها إذا عملت عليها ، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها ،خشية نزول العذاب على أهلها ، فيصيبهم معهم ، وتعجُّ الأرض (٢) إلى ربها تبارك وتعالى . وتكاد الجبال تزول عن أماكنها ، وقتل المفعول به خير له من وطئه ، فانه إذا وطئه الرجل

---

(١) ماد يميد إذا مال وتحرك
(٢) أى ترفع صوتها بالشكوى

قتله قتلا لا يرجى له معه حياة ، بخلاف قتله . فانه مظلوم شهيد ، وربما ينتفع به في آخرته

قالوا : والدليل على هذا : أن الله سبحانه جعل حدَّ القاتل إلى خيرة الولى ، إن شاء قتل وإن شاء عفا ، وحتَّم قتل اللوطى حداً ، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التى لا معارض لها ، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين رضى الله عنهم أجمعين . وقد ثبت عن خالد بن الوليد « أنه وجد فى بعض نواحى العرب رجلا يُنكح ، كما تنكح المرأة . فكتب فيه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضى الله عنهم . فكان على بن أبى طالب أشدهم قولا فيه ، فقال : ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة . وقد علمتم ما فعل الله بها ، أرى أن يُحرق بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه »

وقال عبد الله بن عباس « ينظر أعلى ما فى القرية فيرمى اللوطى منها منكسا ، ثم يتبع بالحجارة » وأخذ ابن عباس هذا الحد من عقوبة الله لقوم لوط ، وابن عباس هو الذى روى عن النبى ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أهل السنن ، وصححه ابن حبان وغيره ، واحتج الامام أحمد بهذا الحديث . وإسناده على شرط البخارى .

قالوا : وثبت عنه ﷺ أنه قال « لعن الله من عمل عمل قوم لوط . لعن الله من عمل عمل قوم لوط . لعن الله من عمل عمل قوم لوط » ولم يجىء عنه ﷺ لعنة الزانى ثلاث مرات فى حديث واحد . وقد لعن جماعةً من أهل الكبائر ، فلم يتجاوز بهم فى اللعن مرة واحدة ، وكرر لعن اللوطية ، فأكده ثلاث مرات ، وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله ، لم يختلف منهم فيه رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم فى صفة قتله . فظن بعض الناس أن ذلك اختلافا منهم فى قتله ، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة ، وهى بينهم مسألة إجماع

قالوا : ومن تأمل قوله سبحانه (١٧ : ٣٢ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وقوله في اللواط (٧ : ٨٠ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين؟) تبين له تفاوت ما بينهما ، فانه سبحانه نكَّر الفاحشة فى الزنى ، أى هو فاحشة من الفواحش ، وعرَّفها فى اللوط ، وذلك يفيد أنه جامع لمعانى اسم الفاحشة ، كما تقول : زيد الرجل ، ونعم الرجل زيد . أى أتأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد ، فهى لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها . بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها . وهذا نظير قول فرعون لموسى (٢٦ : ١٩ وفعلت فَعلتك التى فعلت) أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد .

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم فقال ما سبقكم بها من أحد من العالمين) ثم زاد فى التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الاسماع . وتنفر منه أشد النفور . وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى فقال (٧: ٨١ إنكم لتأتون الرجال) ثم نبه على استغنائهم عن ذلك ، وأن الحامل لهم عليه ليس مجرد الشهوة ولا الحاجة التى لأجلها مال الذكر إلى الأنثى ، من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع ، وحصول المودة والرحمة التى تنسى المرأة لها أبويها وتذكر بعلها . وحصول النسل الذى حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة وقضاء الوطر ، وحصول علاقة المصاهرة التى هى أخت النسب ، وقيام الرجال على النساء ، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ، ومكاثرة النبى ﷺ الأنبياء بأمته ، إلى غير ذلك من مصالح النكاح . والمفسدة التى فى اللواط تقاوم ذلك كله ، وتربو عليه بما لا يمكن حصره وفساده ، ولا يعلم تفصيله إلا الله عز وجل

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التى فطر الله عليها الرجال ، وقلبوا الطبيعة التى ركبها الله فى الذكور . وهى شهوة النساء دون الذكور ، فقلبوا

الأمر ، وعكسوا الفطرة والطبيعة . فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها . وكذلك قلبهم، ونكسوا فى العذاب على رءوسهم ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالاسراف وهو مجاوزة الحد، فقال (٧ :٨١ بل أنتم قوم مسرفون) فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه فى الزنى وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله (٢١ :٧٤ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين فى غاية القبح فقال (٢١: ٧٤ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) وسماهم مفسدين فى قول نبيهم إذقال (٢٩ :٣٠ رب انصرنى على القوم المفسدين) وسماهم ظالمين فى قول الملائكة لابراهيم عليه السلام (٢٩: ٣١ إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين) فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات . ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه باهلاكهم قيل له (١١: ٧٦ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) .

وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطا لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف، هم من أحسن البشر صورة . فأقبل اللوطية إليه يهرعون ، فلما رآهم قال لهم (١١: ٧٨ ياقوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهن ، خوفا على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد. فقال (ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد؟) فردوا عليه ، ولكن رد جبار عنيد (١١: ٧٩ لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد) فنفث نبى الله نفثة مصدور، خرجت من قلب مكروب، فقال (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد؟) فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال وأعلموه أنهم ممن ليس يوصل إليهم ولا إليه بسبب ، فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم ، وهون عليك. فقالوا (يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) وبشروه بما جاءوا به من الوعد له ومن الوعيد

المصيب لقومه فقالوا (١١ : ٨١ فأسر بأهلك بقِطْع من الليل [١] ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك . إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب؟) فاستبطأ نبي الله عليه السلام موعد هلاكهم وقال : أريد أعجل من هذا . فقالت الملائكة (أليس الصبح بقريب؟) فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السَّحَر وطلوع الفجر ، و إذا بديارهم قد اقتُلعت من أصولها ، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير ، فبرز المرسوم الذى لا يُرَدُّ من عند الرب الجليل على يدى عبده ورسوله جبرائيل ؛ بأن يقلبها عليهم كما أخبر به فى محكم التنزيل ، فقال عز من قائل (١١ : ٨٢ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل [٢]) فجعلهم آية للعالمين ، وموعظة للمتقين ، ونكالاً وسلفاً لمن شاركهم فى أعمالهم من المجرمين ، وجعل ديارهم بطريق السالكين (١٥ : ٧٥ـ٧٧ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين و إنها لبسبيل مقيم . إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أخذهم على غِرَّة وهم نائمون ؛ وجاءهم بأسه وهم فى سكرتهم يعمهون ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . تقلبوا على تلك اللذات طويلا ، فأصبحوا بها يعذبون .

مآرب كانت فى الحياة لأهلها عذابا ، فصارت فى الممات عذابا

ذهبت اللذات ، وأعقبت الحسرات . وانقضت الشهوات ، وأورثت الشِّقوات تمتعوا قليلا ، وعذبوا طويلا . رتعوا مرتعا وخيما ، فأعقبهم عذابا أليما . أسكرتهم خمرة تلك الشهوات ، فما استفاقوا منها إلا فى ديار المعذبين . وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم فى منازل الهالكين . فندموا والله أشد الندامة حين

---

(١) القطع بكسر القاف وسكون الطاء ظلمة آخر الليل . (٢) هو طين محمى فى نار جهنم

لاينفع الندم . و بكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم . فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة ، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم ، و يقال لهم وهم على وجوههم يسحبون : ذوقوا ما كنتم تكسبون (١٦:٥٢ اصلوها فاصبروا أولا تصبروا وسواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) ولقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة و بين إخوانهم فى العمل ، فقال مخوفاً لهم بأعظم الوعيد (١١:٨٣ وما هى من الظالمين ببعيد)

فيانا كحى الذكران تهنيكم البشرى ... فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كلوا واشربوا،وازنوا ولوطوا، وأكثروا ... فان لكم زفًا إلى ناره الكبرى
فإخوانكم ، قد مهدوا الدار قبلكم ... وقالوا إلينا ، عجلوا ، لكم البشرى
وهانحن أسلاف لكم فى انتظاركم ... سيجمعنا الجبار فى ناره الكبرى
ولا تحسبوا أن الذين نكحتموا ... يغيبون عنكم ، بل ترونهم جهرا
ويلعن كل منهم لخليله ... و يشقى به المحزون فى الكرّة الأخرى
يعذب كل منهم بشريكه ... كما اشتركا فى لذة توجب الوزرا

فصل

﴿ فى الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنى ﴾

أما قولهم : إنها معصية لم يجعل الله فيها حدًا معيناً ، فجوابه من وجوه

أحدهما : أن المبلغ عن الله جعل حدّ صاحبها القتل حتما ، وما شرعه رسوله ﷺ فانما شرعه عن الله . فان أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل . و إن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم ذلك من انتفاء حكمه لثبوته بالسنة .

والثانى : أن هذا ينتقض عليكم بالرجم ، فانه إنما ثبت بالسنة .

فان قلتم : بل ثبت بقرآن نسخ لفظه و بقى حكمه .

قلنا : فينتقض عليكم بحدِّ شارب الخمر .

والثالث : أن نفى دليل معين لايلزم منه نفى مطلق الدليل ولانفى المدلول . فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذى نفيتموه غير منتف ؟

وأما قولكم : إنه وطء لاتشتهيه الطباع ، بل ركب الله الطباع على النُّفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة . فجوابه من وجوه :

أحدها : أنه قياس فاسد الاعتبار مردود بسنة رسول الله ﷺ و إجماع الصحابة ، كما تقدم بيانه .

والثانى : أن قياس وطء الأمرد الجميل الذى تربو فتنته على كل فتنة على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس . وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة ، أو يسبى ذلك عقل عاشق، أو يأسر قلبه ، أو يستولى على فكره ونفسه ؟ فليس فى القياس أفسد من هذا .

الثالث: أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت . فان النفرة الطبيعية عنه كاملة، مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود ــ فى أحد القولين ــ وهو القتل بكل حال محصناً كان أو غير محصن ، وهذه إحدى الروايتين عن الإمام أحمد ، وهو قول إسحاق بن راهويه وجماعة من أهل الحديث ، وقد روى أبو داود والترمذى من حديث البراء بن عازب قال « لقيت عمى ومعه الراية ، فقلت له: إلى أين تريد ؟ قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده : أن أضرب عنقه وآخذ ماله » قال الترمذى : هذا حديث حسن. قال الجوزجانى : عَمُّ البراء: اسمه الحارث بن عمرو

وفى سنن أبى داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من وقع على ذات محرم فاقتلوه » ورُفع إلى الحجاج رجل اغتصب أخته

على نفسها، فقال: احبسوه واسألوا مَنْ هاهنا من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوا عبد الله بن مُطرِّف فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «مَنْ تخطَّى حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف» وفيه دليل على القتل بالتوسيط. وهذا دليل مستقل في المسألة. وهو أن من لا يباح وطؤه بحال فحد واطئه القتل. دليله: من وقع على أمه أو ابنته. وكذلك يقال في وطء ذوات المحارم. من وطىء من لا يباح وطؤه بحال كان حده القتل كاللوطي.

والتحقيق: أنه يستدل على المسألتين بالنص. والقياس يشهد لصحة كل منهما. وقد اتفق المسلمون على أن من زنى بذات محرم فعليه الحد، وإنما اختلفوا في صفة الحد، هل هو القتل بكل حال، أو حد الزني؟ على قولين:

فذهب الشافعي ومالك وأحمد — في إحدى روايته — أن حده حد الزاني، وذهب أحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال

وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالماً بالتحريم أنه يحد، إلا أبا حنيفة وحده، فانه رأى ذلك شبهة مسقطة للحد.

والمنازعون يقولون: إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة، فانه ارتكب محذورين عظيمين: محذور العقد، ومحذور الوطء، فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد إلى محذور الزنى؟

وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره:

أحدهما أنه يجب به الحد، وهو قول الأوزاعي، فان فعله أعظم جرما وأكثر ذنباً لأنه انضم إلى أنه فاحشة هتك حرمة الميتة

فصل

وأما وطء البهيمة فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال .

أحدها: أنه يؤدب ولا حد عليه ، وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي فى أحد قوليه ، وهو قول إسحاق .

والقول الثانى : أن حكمه حكم الزانى ، يجلد إن كان بكراً ويرجم إن كان محصنا وهذا قول الحسن .

والقول الثالث : أن حكمه حكم اللوطى ، نص عليه أحمد . ويخرج على الروايتين فى حده ، هل هو القتل حتما أو هو كالزانى ؟

والذين قالوا حده القتل: احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ « من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه »

قالوا : ولانه وطء لايباح بحال ، فكان فيه القتل حداً للوطء .

ومن لم ير عليه الحد قالوا : لم يصح فيه الحديث ، ولو صح لقلنا به ، ولم يحل لنا مخالفته . قال إسمعيل بن سعيد الشالنجى : سألت أحمد عن الذى يأتى البهيمة ؟ فوقف عندها ، ولم يُثبت حديث عمرو بن أبي عمرو فى ذلك وقال الطحاوى : الحديث ضعيف . وأيضاً فهو من رواية ابن عباس ، وقد أفتى بأنه لا حد عليه ، قال أبو داود : وهذا يضعف الحديث .

ولا ريب أن الزاجر الطبعى عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعى عن التلوط. وليس الأمر أن طباع الناس سواء فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس

فصل

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على سحاق المرأتين ، فمن أفسد القياس ، إذ لا إيلاج هناك وإنما إلحاق نظير مباشرة الرجل من غير إيلاج ، على أنه قد جاء فى بعض الأحاديث المرفوعة «إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان» ولكن لا يجب الحد بذلك لعدم الايلاج، وإن أطلق عليهما اسم الزنى العام ، كزنى العين واليد والرجل والفم

وإذا ثبت هذا فقد أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ، ومن ظن أن تلوط الانسان مع مملوكه جائز، واحتج على ذلك بقوله تعالى (٢٢: ٤ إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين) وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر ، يستتاب كما يستتاب المرتد ، فان تاب و إلا قتل وضرب عنقه . وتلوط الانسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره فى الإثم والحكم

فصل

فان قيل : مع هذا كله ، فهل من دواء لهذا الداء العضال ؟ ورُقية لهذا السحر القتال ؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخبال ؟ وهل من طريق قاصد إلى التوفيق ؟ وهل يمكن السكران بخمرة الهوى أن يفيق ؟ وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل إلى سويدائه ؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة فى برئه من سويدائه ؟ وهو إن لامه لائم التذّ بملامه لذكره لمحبوبه ، وإن عذله عاذل أغراه عذله وسار به فى طريق مطلوبه ، ينادى عليه شاهد حاله بلسان مقاله :

وقف الهوى بى حيث أنت ، فليس لى ... متأخَّر عنه ولا متقدَّم
وأهنتنى ، فأهنت نفسى جاهدا ... ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائى ، فصرتُ أحبهم ... إذ كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هواك لذيذة ... حبّاً لذكرك ، فليلُمنى اللُّوَّم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذى وقع عليه الاستفتاء . والداء الذى طلب له الدواء .

قيل : نعم ، الجواب من أصله وما أنزل الله سبحانه من داء إلا وأنزل له دواء ، علمه من علمه وجهله من جهله .

والكلام فى دواء هذا الداء من طريقين : أحدهما : حسم مادته قبل حصولها ،

والثانى : قلعها بعد نزولها ، وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ، ومتعذر على من لم يعنه الله ، فان أزمّة الأمور بيديه .

وأما الطريق المانع من حصول هذا الداء . فأمران : أحدهما : غض البصر كما تقدم ، فان النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته . وفى غض البصر عدة منافع :

أحدها : أنه امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه ومعاده ، وليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى ، وما سعد من سعد فى الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره ، وماشقى من شقى فى الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره

الثانى : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذى لعل فيه هلاكه إلى قلبه .

الثالث : أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعية على الله، فان إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ، ويبعده من الله ، وليس على العبد شىء أضر من إطلاق البصر فانه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابع : أنه يقوى القلب ويفرحه ، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه

الخامس : أنه يكسب القلب نوراً ، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر ، فقال (٢٤ : ٣٠ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم و يحفظوا فروجهم) ثم قال إثر ذلك (٢٤: ٣٥ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) أى مثل نوره فى قلب عبده المؤمن الذى امتثل أوامره واجتنب نواهيه . و إذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب ، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان ، فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى ، واجتناب هدى ، و إعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب الشقاوة ، فان ذلك إنما يكشفه له النور

الذى فى القلب ، فاذا فقد ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام .

السادس : أنه يورث الفراسة الصادقة التى يميز بها بين المحق والمبطل ، والصادق والكاذب . وكان شاه بن شجاع الكرمانى يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة و باطنه بدوام المراقبة . وغض بصره عن المحارم . وكف نفسه عن الشهوات واعتاد أ كل الحلال. لم تخطئ له فراسة . وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة .

والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله . ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه . فاذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصره لله . و يفتح له باب العلم والايمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التى إنما تنال ببصيرة القلب . وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العَمَه الذى هو ضد البصيرة فقال تعالى (١٥ : ٧٢ لَعَمْرُكَ إنهم لفى سكرتهم يعمهون) فوصفهم بالسَّكرة التى هى فساد العقل . والعمه الذى هو فساد البصر فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل ، وعَمَهُ البصيرة يسكر القلب . كما قال القائل:

سكران:سكر هوى ،وسكرمدامة ومتى إفاقة مَنْ به سكران ؟

وقال آخر :

قالوا:جننت بمن تهوى. فقلت لهم: العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبه و إنما يُصرع المجنون فى الحين

السابع : أنه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة . ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة . كما فى الأثر « الذى يخالف هواه يفرَقُ الشيطان من ظله » وضد هذا تجده فى المتبع هواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها ، وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه ، كما قال الحسن « إنهم و إن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ، فان ذل المعصية لا يفارق رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه » وقد جعل الله سبحانه العزَّ قرين طاعته

والذل قرين معصيته . فقال تعالى (٦٣ : ٨ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وقال تعالى (٣ : ١٣٩ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن . وقال تعالى(٣٥ : ١٠ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) أى من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح . وفى دعاء القنوت « إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت » ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، وله من العز بحسب طاعته . ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته

الثامن : أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب ، فانه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء فى المكان الخالى ، فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها ، ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ، ثم يَعِدُه ويمنّيه ويُوقِد على القلب نار الشهوة ، ويلقى عليه حطب المعاصى التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة ، فيصير القلب فى اللهب . فمن ذلك اللهب تلك الانفاس التى يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات . فان القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب . فهو وسطها كالشاة فى وسط التنور . ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة: أن جعل لهم فى البرزخ تنورا من نار ، وأودعت أرواحهم فيه إلى حشر أجسادهم ، كما أراها الله نبيه ﷺ فى المنام فى الحديث المتفق على صحته

التاسع : أنه يفرغ القلب للتفكر فى مصالحه والاشتغال بها . وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول بينه وبينها . فتنفرط عليه أموره، ويقع فى اتباع هواه وفى الغفلة عن ذكر ربه ، قال تعالى (١٨ : ٢٨ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشر : أن بين العين والقلب منفذاً أو طريقا يوجب اشتغال أحدهما بما يشتغل به الآخر ، يصلح بصلاحه، و يفسد بفساده . فاذا فسد القلب فسد النظر. و إذا فسد النظر فسد القلب . وكذلك فى جانب الصلاح . فاذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد ، وصار كالمزبلة التى هى محل النجاسات والقاذورات والأوساخ ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والانابة اليه، والأنس به، والسرور بقربه فيه ، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك .

فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ماوراءها

فصل

الثانى[1] : اشتغال القلب بما يصده عن ذلك ويحول بينه و بين الوقوع فيه : وهو إما خوف مُقلق أو حُبٌ مزعج ، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب ، أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب ، أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب ، أو خوف ما فواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب : لم يجد بداً من عشق الصور

وشرح هذا : أن النفس لاتترك محبوبا إلا لمحبوب أعلى منه، أو خشية مكروه، حصولُه أضر عليها من فوات هذا المحبوب ، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدا أو أحدهما لم ينتفع بنفسه .

أحدهما : بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه ، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما ، و يحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما ، وهذه خاصة العقل ، ولا يعد عاقلا من كان بضد ذلك ، بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه .

---

(١) هو قلع داء المعصية بعد نزوله

الثانى : قوة عزم وصبر يتمكن بهما من هذا الفعل والترك، فكثيراً ما يعرف الرجل قدر التفاوت، ولكن يأبى له ضعف نفسه وهمته وعزيمته إيثار الأنفع، من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته. ومثل هذا لا ينتفع بنفسه ولا ينتفع به غيره. وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلا من أهل الصبر واليقين، فقال تعالى. وبقوله يهتدى المهتدون منهم(٣٢ : ٢٤ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وهذا هو الذى ينتفع بعلمه، وينتفع به غيره من الناس. وضد ذلك لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع به غيره. ومن الناس من ينتفع بعلمه فى نفسه ولا ينتفع به غيره. فالأول يمشى فى نوره ويمشى الناس معه فى نوره. والثانى قد طفىء نوره، فهو يمشى فى الظلمات ومن تبعه. والثالث يمشى فى نوره وحده.

فصل

إذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع فى القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبداً، بل هما ضدان لا يجتمعان، بل لا بد أن يخرج أحدهما صاحبه. فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذى محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله، أو لكونه وسيلة له إلى محبته، أو قاطعاً له عما يضاد محبته وينقصها. والمحبة الصادقة تقتضى توحيد المحبوب وأن لا يشرك بينه وبين غيره فى محبته. وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبه غيره، ويمقته لذلك، ويبعده ولا يحظيه بقربه، ويعده كاذباً فى دعوى محبته ؛ مع أنه ليس أهلا لصرف كل قوة المحبة إليه، فكيف بالحبيب الأعلى الذى لا تنبغى المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهى عذاب على صاحبها ووبال ؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

فمحبة الصور تفوّت محبة ما هو أنفع للعبد منها، بل تفوت محبة ما ليس له

صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده . فليختر العبد إحدى المحبتين ، فانهما لا يجتمعان فى القلب ولا يرتفعان منه ، بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه الله بمحبة غيره ، فيعذب بها فى الدنيا وفى البرزخ وفى الآخرة ، إما أن يعذبه بمحبة الأوثان أو بمحبة الصلبان ، أو بمحبة النيران ، أو بمحبة المردان ، أو بمحبة النسوان ، أو بمحبة الأثمان[1] ، أو بمحبة العشراء والخلان ، أو بمحبة ما هو دون ذلك مما هو فى غاية الحقارة والهوان . فالإنسان عبد محبوبه كائناً ما كان ، كما قيل :

أنت القتيل بكل من أحببته ... فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه كان إلهه هواه ، قال تعالى (٤٥ : ٢٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟)

فصل

وخاصية التعبد : الحب مع الخضوع ، والذل للمحبوب ، فمن أحب شيئاً وخضع له فقد تعبد قلبه له . بل التعبد آخر مراتب الحب . ويقال له : التتيم أيضاً . فان أول مراتبه العلاقة ، وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، قال الشاعر :

وعلقت ليلى وهى ذات تمائم[2] ... لم يبد للاتراب من ثديها ضخم

وقال الآخر :

أعلاقة أمَّ الوليد بعيد ما ... أفنانُ رأسِك كالثَّغام الأبيض[3]

---

(١) أى البيع والشراء بالتجارة (٢) جمع تميمة وهى مايعلق على الأطفال لمنع الحسد والجن وغيرهما . ومن ذلك ما يسمى عند العامة اليوم بالحجب التى يكتب فيها الدجالون بعض تعاويذ . وكان ذلك من عادة أهل الجاهلية لو ثنيتهم فان التمائم ملازمة للوثنية وفساد العقول بالأوهام وقد جاء الاسلام بازالة ذلك فى الحديث « التمائم والتولة شرك » (٣) الأفنان : جمع فن وهو الفرع والثغام : نبت أبيض الزهر والثمر ، يشبه به الشيب .

ثم بعدها الصبابة ، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب . قال الشاعر :

يشكى المحبون الصبابة ، ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدى
فكانت لقلبى لذة الحب كلها فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

ثم الغرام . وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه ، ومنه سمى الغريم غريماً لملازمته صاحبه ، ومنه قوله تعالى (٢٥ : ٦٥ إن عذابها كان غراماً) وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ فى الحب ، وقل أن تجده فى أشعار العرب . ثم العشق وهو إفراط المحبة . ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق فى حقه . ثم الشوق وهو سفر القلب إلى المحبوب أحثّ السفر ، وقد جاء إطلاقها فى حق الرب تعالى كما فى مسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر « أنه صلى صلاة فأوجز فيها . فقيل له فى ذلك . فقال : أما إنى دعوت فيها بدعوات كان النبى ﷺ يدعو بهن : اللهم إني أسألك بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى . اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الرضى والغضب ، وأسألك القصد فى الفقر والغني ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وأسألك قُرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضى بعد القضاء . وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضَرّاء مُضِرّة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الايمان . واجعلنا هداة مهديين » وفى أثر آخر « طال شوق الأبرار إلى وجهك . وأنا إلى لقائك أشد شوقا » وهذا فى المعنى الذى عبر عنه ﷺ بقوله « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » وقال بعض أهل البصائر فى قوله تعالى (٢٩ : ٥ من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت) .

لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه وأن قلوبهم لا تهدأ دون لقائه ضرب لهم أجلا : موعداً للقائه ، تسكن نفوسهم به ، وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المشتاقين المستأنسين ، فحياتهم هى الحياة الطيبة فى الحقيقة . ولا

حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها ، فهى الحياة الطيبة المذكورة فى قوله تعالى(١٦ : ٩٧ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) .

وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار من طيب المأكل والمشرب والمنكح ، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه فى ذلك أضعافا مضاعفة . وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة فهو صادق الوعد الذى لا يخلف وعده . وأى حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها ، وصارت همًّا واحد فى مرضاة الله ولم يتشعب قلبه ، بل أقبل على الله ، واجتمعت إرادته وأفكاره التى كانت منقسمة ، بكل واد منها شعبة ، على الله . فصار ذكره محبوبه الأعلى ، وحبه والشوق إلى لقائه والانس بقربه هو المتولى عليه ، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره ، بل وخطرات قلبه . فان سكت سكت بالله ، وإن نطق نطق بالله ، وإن سمع فبه يسمع ، وإن أبصر فبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشى ، وبه يتحرك ، وبه يسكن وبه يحيى ، وبه يموت ، وبه يبعث ، كما فى صحيح البخارى عنه ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال «ماتقرب الى عبدى بمثل أداء ماافترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فاذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها . فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش وبى يمشى ، ولئن سألنى لاعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وماترددت فى شىء أنا فاعله ترددى عن قبض روح عبدى المؤمن . يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهى الذى فَهْمُ معناه حرام على غليظ الطبع كثيف القلب .

والمراد به حصر أسباب محبته فى أمرين : أداء فرائضه ، والتقرب اليه

بالنوافل ، وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما تقرب به إليه المتقربون ، ثم بعدها النوافل ، وأن المحب لايزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله . فاذا صار محبوبالله أوجبت محبة الله محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى ، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه ، وملكت عليه روحه ، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة ، فصار ذكر محبوبة وحبه ومثله الأعلى مالكا لزمام قلبه مستوليا على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق فى محبته التى قد اجتمعت قوى حبه كلها له

ولاريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه وإن أبصر أبصر به وإن بطش بطش به و إن مشى مشى به . فهو فى قلبه ومعه ومؤنسه وصاحبه . فالباء ههنا باء المصاحبة ، وهى مصاحبة لا نظير لها ، ولا تدرك بمجرد الاخبار عنها والعلم بها ، فالمسألة خيالية لاعلمية محضة .

واذا كان المخلوق يجد هذا فى محبة المخلوق التى لم يخلق لها ولم يفطر عليها ، كما قال بعض المحبين :

خيالك فى عينى ، وذكرك فى فمى   ومثواك فى قلبى . فأين تغيب ؟

وقال الآخر :

وتطلبهم عينى ، وهم فى سوادها   و يشتاقهم قلبى ، وهم بين أضلعى
ومن عجب أنى أحن إليهم   فأسأل عنهم من لقيت ، وهم معى

وهذا ألطف من قول الآخر :

إن قلت : غبت ، فقلبى لا يصدقنى * إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أوقلت : ماغبت ، قال الطرف : ذا كذب * فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شىء أدنى من المحب لمحبوبه ، وربما تمكنت المحبة حتى يصير محبوبه أدنى إليه من نفسه ، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه ، كما قيل :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما   تمثل لى ليلى بكل سبيل

وقال آخر :

يُراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

وخص فى الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر. فان هذه الآيات آلات الادراك وآلات الفعل، والسمع والبصر يوردان على القلب الارادة والكراهة ويجلبان إليه الحب والبغض، فتستعمل اليد والرجل، فاذا كان سمع العبد بالله وبصره به كان محفوظاً فى آلات إدراكه، فكان محفوظاً فى حبه و بغضه، فحفظ فى بطشه ومشيه.

وتأمل، كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان، فانه اذا كان ادراك السمع الذى يحصل باختياره تارة و بغير اختياره تارة، وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة. وكذلك حركة اليد والرجل التى لابد للعبد منها. فكيف بحركة اللسان التى لاتقع إلا بقصد واختيار؟ وقد يستغنى العبد عنها إلا حيث أمر بها.

وأيضا فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح. فانه ترجمانه ورسوله.

وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به عند سمعه و بصره الذى يبصر به و بطشه ومشيه بقوله «كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به و يده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها» تحقيقاً لكونه مع عبده وكون عبده فى ادراكاته بسمعه و بصره وحركته بيده ورجله.

وتأمل كيف قال «فبي يسمع و بى يبصر و بى يبطش» ولم يقل: لى يسمع ولى يبطش، ور بما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع، إذ هى أدل على الغاية ووقوع هذه الأمور لله وذلك أخص من وقوعها به، وهذا من الوهم والغلط إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة. فان حركات الأبرار والفجار و إدراكاتهم إنما هى بمعونة الله لهم، وأن الباء ههنا للمصاحبة. فالمعنى إنما يسمع و يبصر و يبطش و يمشى وأنا صاحبه ومعه. كقوله فى الحديث الآخر «أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه» وهذه المعية هى المعية الخاصة المذكورة فى قوله تعالى (٩: ٤٠ إن الله معنا) وقول

النبى ﷺ «ماظنك باثنين الله ثالثهما» وقوله تعالى (٢٩ : ٦٩ و إن الله لمع المحسنين) وقوله (١٦ : ١٢٨ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقوله (٨ : ٤٦ واصبروا إن الله مع الصابرين) وقوله (٢٦ : ٦٢ كلا ، إن معى ربى سيهدين) وقوله تعالى لموسى وهارون (٢٠ : ٤٦ إننى معكما أسمع وأرى)

فهذه الباء مفيدة معنى المعية دون اللام ، ولا يأتى للعبد الاخلاص والصبر والتوكل ونزوله فى منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية .

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت المخاوف فى حقه أمانا ، فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير ، ويقرب كل بعيد ، وبالله تزول الأحزان والهموم والغموم ، فلاهم مع الله ، ولا غم مع الله ، ولا حزن مع الله ، وحيث يفوت العبد معني هذه الباء يصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب و ينقلب حتى يعود اليه .

ولما حصلت هذه الموافقة مع العبد لربه تعالى فى محابه حصلت موافقة الرب لعبده فى حوائجه ومطالبه فقال «ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه» أى كما وافقنى فى مرادى بامتثال أوامرى والتقرب إلى بمحابى، فأنا أوافقه فى رغبته ورهبته فيما يسألنى أن أفعل به و يستعيذنى أن يناله مكروه . وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه فى إماتة عبده ، لأنه يكره الموت والرب تعالى يكره مايكرهه عبده و يكره مساءته ، فمن هذه الجهة يقتضى أنه لا يميته ولكن مصلحته فى إماتته ، فانه ما أماته إلا ليحييه ، وما أمرضه إلا ليصحه ، وما أفقره إلا ليغنيه ، وما منعه إلا ليعطيه ، ولم يخرج من الجنة فى صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن الأحوال ، ولم يقل لأبيه (اخرج منها) إلا ليعيده اليها فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه ، بل لو كان فى كل منبت شعرة من العبد محبة تامة لله لكان بعض مايستحقه على عبده .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى؟ وحنينه أبداً لأول منزل

فصل

ثم التتيم . وهو آخر مراتب الحب ، وهو تعبد المحب لمحبوبه ، يقال: تيمه الحب إذا عبّده ، ومنه : تيم الله ، أى عبدالله . وحقيقة التعبد : الذل والخضوع للمحبوب ومنه قولهم : طريق معبد ، أى مذلل ، قد ذللته الأقدام ، فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحبوبه ، ولهذا كان أشرف أحوال العبد مقاماته فى العبودية ، فلا منزل له أشرف منها . وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم اليه ، وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية فى أشرف مقاماته ، وهى مقام الدعوة اليه ، ومقام التحدّى بالنبوة ، ومقام الاسراء فقال سبحانه (١٩:٧٢ وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبداً[1]) وقال (٢٣:٢ و إن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وقال (١:١٧ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) وفى حديث الشفاعة «اذهبوا إلى محمد ﷺ عبدٍ غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر» فنال مقام الشفاعة بكمال عبوديته ، وكمال مغفرة الله له . والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لاشريك له ، التى هى أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل . وهذا هو حقيقة الاسلام وملة إبراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه قال تعالى (١٣٠:٢ ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ـ الآية) ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك . والله لايغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء .

---

(١) يقول كادوا يكونون عليه جماعات فى حرد وشراسة ، متكأكئين عليه بعضها فوق بعض كلبدة الأسد ، شعره المتكاثف المحيط برأسه وعنقه

وأصل الشرك بالله : الإشراك مع الله فى المحبة ، كما قال تعالى (٢:١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به مَن دونه ، فيتخذ الأنداد من دونه . يحبهم كحب الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم .

وقيل : بل المعنى أنهم أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لله ؛ فانهم و إن أحبوا الله ، لـكن لما أشركوا بينه و بين أندادهم فى المحبة ضعفت محبتهم لله ، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك . والعدل برب العالمين والتسوية بينه و بين الأنداد إنما يكون بالتسوية فى هذه المحبة .

ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه ولياً أو شفيعاً غاية الانكار ، وجمع ذلك تارة ، وأفرد أحدهما عن الآخر تارة بالإنكار ، فقال تعالى (١٠ : ٣ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يُدَبِّرَ الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه) وقال تعالى (٣٢ : ٤ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالـكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ؟) وقال تعالى (٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون) وقال فى الافراد (٣٩ : ٤٣، ٤٤ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أولوا كانوا لا يملـكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً) وقال تعالى (٤٥ : ١٠ من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ، ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ، ولهم عذاب عظيم) .

فاذا والى العبد ربه وحده واتخذه ولياً من دون أن يتخذ أولئك الذين يسمون عند المشركين شفعاء ، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه فى الله

بخلاف من اتخذ المخلوقين أولياء من دون الله فهذا لون وذاك لون والشفاعة الشركية الباطلة لون ، والشفاعة الحق الثابتة التى إنما تنال بالتوحيد لون . وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

والمقصود : أن حقيقة العبودية وموجباتها لاتخلص مع الاشراك بالله فى المحبة بخلاف المحبة لله ، فانها من لوازم العبودية وموجباتها . فان محبة رسول الله ﷺ بل تقديمه فى الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء لا يتم الايمان إلا بها . إذ محبته من محبة الله . وكذلك كل حب فى الله ولله ، كما فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال « ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ـ وفى لفظ فى الصحيحين : لايجد عبد طعم الإيمان إلا من كان فى قلبه ثلاث خصال ـ : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما . وأن يحب المرء لايحبه إلا لله . وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » وفى الحديث الذى فى السنن « من أحبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله . فقد استكمل الإيمان » وفى حديث آخر « ما تحابَّ رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه »

فان هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها ، وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك

فصل

وههنا أربعة أنواع من الحب ، يجب التفريق بينها . وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها

أحدها : محبة الله . ولاتكفى وحدها فى النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه فان المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله [1] .

---

(١) الواقع أن اليهود والنصارى والصوفية فى كل وقت إنما يدعون حب الله دعوى فقط . لذلك قال الله تعالى (٣ : ٣١ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم =

الثانى : محبة ما يحبه الله . وهذه هى التى تدخله فى الاسلام وتخرجه من الكفر . وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث : الحب لله وفيه ، وهى من لوازم محبة ما يحبه الله . ولا يستقيم محبة ما يحبه الله إلا بالحب فيه وله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهى المحبة الشركية ، وكل من أحب شيئاً مع الله ، لا لله ، ولا من أجله ولا فيه . فقد اتخذه نداً من دون الله ، وهذه محبة المشركين

وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه . وهى المحبة الطبيعية . وهى ميل الانسان إلى ما يلائم طبعه ، كمحبة العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم والزوجة والولد ، فتلك لا تذم إلا إن ألهت عن ذكر الله ، وشغلته عن محبته ، كما قال تعالى (٦٣ : ٩ ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) وقال تعالى (٢٤ : ٣٧ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)

فصل

ثم الخُلّة [1] وهى تتضمن كمال المحبة ، ونهايتها ، بحيث لايبقى فى القلب سعة لغير محبوبه ، وهى مَنصب لايقبل المشاركة بوجه ، وهذا المنصب خاصة للخليلين

= الله ويغفر لكم ذنوبكم) فحبة الله الحقيقية ، وهى المحبة عن العلم به و بأسمائه و صفاته والتقدير والشكر لآلائه ، والتدبر والتفكر فى آياته الكونية والقرآنية — تنجى بلا شك من شقاء الدنيا والآخرة ، ولكن ليس المعول على قول اللسان والدعوى بالتقليد والغرور ، وإنما المعول على ما طلب الله من البرهان ، وهو تحرى اتباع الرسول ﷺ ولا يكون ذلك إلا بهذا العلم الصحيح الذى يخرجك من حظيرة المقلدين .

(١) الخلة بضم الخاء المحبة التى تخللت أجزاء القلب.

صلوات الله وسلامه عليهما : ابراهيم ومحمد ، كما قال ﷺ « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبرهيم خليلا » وفى الصحيح عنه ﷺ « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا . ولكن صاحبكم خليل الله » وفى حديث آخر « إنى أبرأ الى كل خليل من خلته » ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه ، فتعلق حبه بقلبه ، فأخذ منه شُعبة غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره ، فأمره بذبحه . وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانا ، ولم يكن المقصود ذبح الولد ، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب . فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال ، وقدم محبة الله على محبة ولده حصل المقصود ، فرفع الذبح ، وفدى الولد بذبح عظيم ، فان الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً ، بل لابد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء ، وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة(1) وكما أبقى الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها . وقال «لا يبدل القول لدى ، هى خمس فى الفعل وهى خمسون فى الأجر »

فصل

وأما مايظنه بعض الظانين : أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن ابراهيم خليل الله ومحمد ﷺ حبيب الله فمن جهله أتى ، فان المحبة عامة والخلة خاصة والخلة نهاية المحبة . وقد أخبر النبى ﷺ أن الله اتخذه خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر ابن الخطاب وغيرهم .

وأيضاً فان الله سبحانه (٢:٢٢٢ يحب التوابين ويحب المتطهرين) و(٣:١٦١ ويحب الصابرين) و(٣:١٤٨،٣٤ يحب المحسنين) و(٣:٧٦ يحب المتقين) و(٥:٤٥

(1) التى كان مأموراً بها فى قوله تعالى فى سورة المجادلة (٥٨:١٢ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة — الخ)

يحب المقسطين) وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام . والشاب التائب حبيب الله . وانما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ

فصل

وقد تقدم أن العبد لايترك ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه . ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواها محبة . كما أنه يفعل مايكره لحصول مامحبته أقوى عنده من كراهة مايفعله . وللخلاص من مكروه كراهته عنده أقوى من كراهة مايفعله .

وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما ، وأيسر المكروهين على أقواهما . وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض .

ولا يتم له هذا إلا بأمرين : قوة الادراك ، وشجاعة القلب . فان التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الادراك ، بحيث إنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ماهو عليه ، وإما لضعف فى النفس أو عجز فى القلب ، بحيث لايطاوعه على إيثار الأصلح له ، مع علمه بأنه الأصلح . فاذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع القلب على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى . فقد وافق أسباب السعادة ،

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه ، فيقهر الغالب الضعيف . ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته . وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره ، فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ويقدم شهوته على عقله ، وتسميه الأطباء : عديم المروة [1] فهكذا أكثر مرضى القلب يؤثرون مايزيد مرضهم لقوة شهوته له .

---

(١) المروة بدون همز الواو أى عديم قوة الارادة

فأصل الشر من ضعف الادراك وضعف النفس ودناءتها . وأصل الخير من كمال الادراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها .

فالحب والارادة أصل كل فعل ومبدؤه ، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه . وهاتان القوتان فى القلب أصل سعادته وشقاوته ، ووجود الفعل الاختيارى لايكون إلا بوجود سببه من الحب والارادة .

وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضاه وسببه ، وتارة يكون بوجود البغض والكراهة المانعة منه ، وهذا متعلق الأمر والنهى ، وهو يسمى الكف ، وهو متعلق الثواب والعقاب . وبهذا يزول الاشتباه فى مسألة الترك ، هل هو أمر وجودى أو عدمى ؟ والتحقيق أنهما قسمان . فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضى : عدمى ، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل : وجودى

فصل

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين فانما يؤثره الحى لما فيه من حصول المنفعة التى يلتذ بحصولها ، أو زوال الألم الذى يحصل له الشفاء بزواله ، ولهذا يقال: شفاء صدره ، وشفاء قلبه ، قال :

هى الشفاء لداء لو ظفرت بها * وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل ، حتى الحيوان البهيم . ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحا ، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم ، فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها . ويشفى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض ، وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب ، وخاصة العقل النظر فى العواقب ، فأعقل الناس من آثر لذة نفسه وراحتها فى الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة ، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة

العظمى التي لاتنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف، وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء . قال بعض العلماء «فكرت في سعي العقلاء فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد ، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله ، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم ، فهذا بالأكل والشرب ، وهذا بالتجارة والكسب ، وهذا بالنكاح ، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة. وهذا باللهو واللعب. فقلت : هذا المطلوب مطلوب العقلاء ، ولكن الطرق كلها غير موصلة اليه ، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده ، وإن كان أكثرها إنما هو بقصد الاقبال على الله وحده ومعاملته وحده ، وإيثار مرضاته على كل شيء ، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقاً موصلا إليه [إلا طريقاً واحدا منها. وهو طريق الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله لهداية الناس إلى طريقه المستقيم (١)] فان سالك هذا الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه ، وإن حصل له كل شيء ، وان فاته فاته كل شيء ، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه ، فليس للعبد أنفع من هذا الطريق ولا أوصل منه إلى لذته وبهجته وسعادته . وبالله التوفيق

فصل

المحبوب قسمان : محبوب لنفسه . ومحبوب لغيره ، ولا بد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه، دفعاً للتسلسل المحال . وكل ماسوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره وليس شيء يحب لنفسه إلا الله وحده ، وكل ماسواه مما يحب فانما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه ، فانها تبع لمحبة الله سبحانه وهي من لوازم محبته . فان محبة المحبوب توجب محبة مايحبه . وهذا موضع يجب

---

(١) مابين المربعين ليس في الأصل وكمل بما يقتضيه المقام . فان الكلام كان ناقصاً ومشوشاً

الاعتناء به فانه محل فرقان بين المحبة النافعة والمحبة التى لا تنفع بل قد تضر .

واعلم أنه لا يُحب لذاته إلا مَنْ كاله من لوازم ذاته ، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته ، وما سواه فانه يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها . وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها . فما كان أشد منافاة لمحابه ، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها . فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته . فاذا رأينا شخصاً يحب مايكرهه الرب تعالى ويكره مايحبه ، علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك ، وإذا رأينا الشخص يحب مايحبه الرب ويكره مايكرهه ، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده ، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه ، علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك .

فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك فى نفسك وفى غيرك ، فالولاية عبارة عن موافقة الولى الحميد فى محابه ومساخطه ، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة

والمحبوب لغيره قسمان أيضاً : أحدهما مايلتذ المحب بادراكه وحصوله ، والثانى مايتألم به ولكن يحتمله لافضائه إلى المحبوب ، كشرب الدواء . قال تعالى (٢ : ٢١٦ كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون) فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم لافضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه ، والنفوس تحب الراحة والفراغ والرفاهية ، وذلك شر لها لافضائه إلى فوات هذا المحبوب . فالعاقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجلة فيؤثرها ، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه . فان ذلك قد يكون شراً له ، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة ، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها ، وإن كانت منقطعة .

فالأمور أربعة : مكروه يوصل إلى مكروه ، ومكروه يوصل إلى محبوب . ومحبوب

يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى مكروه . فالمحبوب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعى الفعل من وجهين ، والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعى الترك من وجهين .

بقى القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها ، وهو العاجل . والعقل والايمان يؤثران أنفعهما وأبقاهما ، والقلب بين الداعيين وهو إلى هذا مرة ، وإلى هذا مرة وههنا محل الابتلاء شرعا وقدراً ، فداعى العقل والايمان ينادى فى كل وقت : حى على الفلاح عند الصباح يحمد القوم السُّرى[1] . وفى الممات يحمد العبد التقى . فان اشتدظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والارادة يقول : يانفس اصبرى ، فماهى إلا ساعة ثم تنقضى ، ويذهب هذا كله ويزول

فصل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة فانها تمنع كمال التصديق ، فهى معارضة لأصل الايمان أو مضعفة له . فان قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفراً أو شركاً أكبر . وإن لم تعارضه قدحت فى كماله ، وأثرت فيه ضعفاً وفتوراً فى العزيمة والطلب ، وهى تحجب الواصل وتقطع الطالب ، وتُنكِّى الراغب . فلا تصلح الموالاة إلا بالمعاداة ، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه (٢٦ : ٧٧ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فانهم عدو لى إلا رب العالمين) فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة . فان ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه (٦٠ : ٤ قد كان

(١) السرى : هو السير ليلا . وهذا مثل يضرب للمجد الذى لا يسمع لداعى الفتور

لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا بُرآء منكم ومما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم و بدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبدا ، حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال تعالى (٤٣ : ٢٦ ـ ٢٨ و إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) أى جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية فى عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهى كلمة : لا إله إلا الله ، وهى التى وَرَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة ، وهى الكلمة التى قامت بها الأرض والسموات ، وفطر الله عليها جميع المخلوقات ، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهى محض حق الله على جميع العباد ، وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية فى هذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهى المنشور الذى لا يدخل أحد الجنة إلا به ، والحبل الذى لا يصل إلى الله الا من يتعلق بسببه ، وهى كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام ، وبها انقسم الناس إلى شقى وسعيد ومقبول وطريد ، و بها انفصلت دار الكفر من دار الاسلام ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان ، وهى العمود الحامل للفرض والسنة « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة »

وروح هذه الكلمة وسرها : إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه ، وتعالى جده ، ولا إله غيره : بالمحبة والاجلال والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذلك : من التوكل والانابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، بل كل ما كان يحب فاعا هو تبعُ لمحبته ، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ولا يرجى سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه . ولا يطاع إلا أمره . ولا يحتسب إلا به . ولا يستعان فى الشدائد إلا به . ولا يلتجأ إلا إليه . ولا يسجد إلا له . ولا يذبح إلا له و باسمه . و يجتمع ذلك فى حرف واحد وهو : أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو . فهذا هو تحقيق شهادة

أن لا إله إلا الله . ولهذا حرم الله على النار أن تأكل من يشهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة . ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها . كما قال تعالى (٧٠ : ٣٣ والذين هم بشهاداتهم قائمون) فيكون قائماً بشهادته فى باطنه وظاهره وفى قلبه وقالبه ، فان من الناس من تكون شهادته ميتة ، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت . ومنهم من تكون مضطجعة . ومنهم من تكون إلى القيام أقرب . وهى فى القلب بمنزلة الروح فى البدن . فروح ميتة ، وروح مريضة إلى الموت أقرب . وروح إلى الحياة أقرب . وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن . وفى الحديث الصحيح عنه ﷺ « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحا » فحياة هذا الروح بهذه الكلمة . فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو فى الجنة يتقلب فيها فكذلك من عاش على تحقيقها والقيام بها روحه تتقلب فى جنة المأوى وعيشها أطيب عيش . قال تعالى (٧٩ : ٤٠ ، ٤١ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجَنَّةَ هى المأوَى) فالجنة مأواه يوم اللقاء ، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى عنه و به مأوى روحه فى هذه الدار . فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم الميعاد ، ومن حرم هذه الجنة فهو من تلك الجنة أشد حرماناً . والأبرار فى نعيم و إن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا والفجار فى جحيم وان اتسعت عليهم الدنيا ، قال تعالى (١٦ : ٩٧ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) وطيب الحياة جنة الدنيا ، قال تعالى (٦ : ١٢٥ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يُضِلَّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً) فأي نعيم أطيب من شرح الصدر ، وأى عذاب أشد من ضيق الصدر ، وقال تعالى (١٠ : ٦٢ – ٦٤ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله . ذلك هو الفوز العظيم) فالمؤمن

المخلص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم بالا وأشرحهم صدراً . وأسرهم قلباً وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة . قال النبي ﷺ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر » ومن هذا قوله ﷺ « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » ومن هذا قوله ـ وقد سألوه عن وصاله[1] فى الصوم ـ « إني لست كهيئتكم ، إنى أظلُّ عند ربى يطعمنى و يسقينى » فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسى ، وأن ما يحصل له من ذلك أمر مختص به لا يشركه فيه غيره ، فاذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه و ينوب منابه ، و يغنى عنه كما قيل :

لها أحاديث من ذكراكَ تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لهـا بوجهكَ نور تستضىء به ... ومن حديثك فى أعقابها حادى
إذا اشتكت من كلال السير زعجها ... روح اللقاء ، فتحيي عند ميعاد

وكلما كان وجود الشىء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد ، وكلما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد ، ولا شىء على الاطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله . واشتغاله بذكره . وتنعمه بحبه . و إيثاره لمرضاته . بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك . فعدمه آلم شىء له وأشد عذاباً عليه . و إنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره ، واستغراقها فى ذلك الغير ، فتغيب به عن شهود ما هى فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شىء اليها وأنفعه لها . وهذا بمنزلة السكران المستغرق فى سكره الذى احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده ، وهو لاستغراقه فى السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته . حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ . وهكذا الحال سـواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والاشراف على مفارقة

---

(١) الوصال : هو أن يصوم أياما من غير أن يتناول شيئاً من الطعام أو الشراب لافطوراً ولا سحورا . وهو منهى عنه .

الدنيا . والانتقال منها إلى الله . بل الالم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك . فان المصاب فى الدنيا يرجو جبر مصيبته فى الدنيا بالعوض . ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له . فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه ولا بدل منه . ولا نسبة بينه و بين الدنيا جميعا فلو قضى الله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرات والألم لكان العبد جديراً به ، و إن الموت ليعد أكبر أمنيته وأكبر حسراته . هذا لو كان الألم على مجرد الفوات كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية مما لايقدر قدره ؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لاتحملهما الجبال الرواسي .

فاعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك فى الدنيا ، بحيث لاتطيب لك الحياة إلا معه فأصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك و بينه أحوج ما كنت اليه كيف يكون حالك ؟ هذا ومنه كل عوض . فكيف بمن لاعوض عنه ؟ كما قيل :

من كل شيء إذا ضيعته عوض   وما من الله إن ضيعته عوض

وفى الأثر الالهى « ابن آدم ؟ خلقتك لعبادتي فلا تلعب . وتكفلت برزقك فلا تتعب . ابن آدم ، اطلبنى تجدنى فإن وجدتنى وجدت كل شيء . وإن فتُّك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء » .

فصل

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة فى القدر والوصف ، كان أغلب مايذكر فيها فى حق الله تعالى مايختص به ويليق به من أنواعها ، وما لايصلح إلا له وحده ، مثل العبادة والإنابة ونحوهما ، فان العبادة لاتصلح إلا له وحده ، وكذا الإنابة . وقد ذكر الله المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى (٥ : ٥٤ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى (٢ : ١٦٩ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً

يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله)

وأعظم أنواع المحبة المذمومة : المحبة مع الله التى سوّى فيها المحب بين محبة الله ومحبته للند الذى اتخذه من دون الله .

وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده ، وهذه المحبة هى أصل السعادة ورأسها التى لاينجو أحد من العذاب إلا بها . والمحبة المذمومة الشركية هى أصل الشقاوة ورأسها التى لا يبقى فى العذاب إلا أهلها . فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لاشريك له لايدخلون النار . ومن دخلها منهم بذنو به فانه لا يبقى فيها منهم أحد.

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها والنهى عن المحبة الأخرى ولوازمها وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين ،وذكر قصص النوعين وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منهما و إخباره عن فعله فى النوعين وعن حال النوعين فى الدور الثلاثة : دار الدنيا .ودار البرزخ .ودار القرار .والقرآن جاء فى شأن النوعين

وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلي آخرهم : إنما هى عبادة الله وحده لاشريك له المتضمنة لكمال حبه وكمال الخضوع والذل له ، والاجلال والتعظيم ولوازم ذلك : من الطاعة ، والتقوى . وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أنس عن النبى ﷺ أنه قال « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » وفى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال «يارسول الله والله لأنت أحبُّ إلى من كل شىء إلا من نفسى . فقال: لا ياعمر حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك . فقال : والذى بعثك بالحق لأنت أحبُّ الىَّ من نفسى . فقال :الآن ياعمر » فاذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ ووجوب تقديمها علي محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين ، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ، ووجوب تقديمها على محبة ماسواه ؟

ومحبة الرب تعالى تختص عن محبة غيره فى قدرها وصفتها و إفراده سبحانه بها . فان الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده ، بل ومن سمعه و بصره ونفسه التى هى بين جنبيه . فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله . والشيء قد يُحَبُّ من وجه دون وجه . وقد يحب لغيره . وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده . ولا تصلح الإلهية إلا له . و(٢١:٢٢ لو كان فيهما آلهه إلا الله لفسدتا) والتأليه : هو المحبة والطاعة والخضوع

فصل

وكل حركة فى العالم العلوى والسفلى فأصلها المحبة. فهى عليها الفاعلية والغائية

وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع . حركة اختيارية و إرادية . وحركة طبيعية وحركة قسرية .

فالحركة الطبيعية أصلها السكون . و إنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعى . فهو يتحرك للعود اليه . وخروجه عن مركزه ومستقره انما يتحرك بتحريك القاسر المحرك له . فله حركة قسرية تكون بتحريك محركه وقاسره . وحركة طبيعية بذاتها يطلب بها العود إلى مركزه وكلا حركتيه تابع للمحرك القاسر . فهو أصل الحركتين . والحركة الاختيارية الارادية هى أصل الحركتين الآخرتين وهى تابعة للارادة والمحبة . فصارت الحركات الثلاث تابعة للمحبة والارادة . والدليل على انحصار الحركات فى هذه الثلاث : أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهى الارادية . و إن لم يكن له شعور بها ، فاما أن يكون على وفق طبيعته الأولى . فالأولى هى الطبيعية ، والثانية هى القسرية . إذا فهمت هذا فما فى السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة فى بطون أمهاتها فانما هى بواسطة

الملائكة المدبرات أمراً والمقسمات أمراً . كما دل على ذلك نصوص القرآن والسنة في غير موضع . والايمان بذلك من تمام الايمان بالملائكة فان الله وكل بالرحم ملائكة . وبالمطر ملائكة . وبالنبات ملائكة . وبالرياح ملائكة . وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة : كاتبين على يمينه وعلى شماله ، وحافظين من بين يديه ومن خلفه . ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرهامن الجنة أو النار . ووكل ملائكة بمسألته وامتحانه فى قبره وعذابه هناك أو نعيمه . وملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره . وملائكة بتعذيبه فى النار أو نعيمه فى الجنة . ووكل بالجبال ملائكة وبالسحاب ملائكة تسوقه حيث أمرت به . وملائكة بالقطر تنزله بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ، ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلاتها وفرشها وثيابها والقيام عليها . وملائكة بالنار كذلك . فأعظم جند الله الملائكة . ولفظ «الملك» يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره : فليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله . وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بإذن الله وأمره ، قال تعالى إخبارا عنهم (١٩ : ٦٤ ومانتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وماخلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) وقال تعالى (٥٣ : ٢٦ وكم من ملك فى السموات لا يغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لأمره فى الخليقة كما قال تعالى (٣٧ : ١ ـ ٣ والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً) وقال (٧٧ : ١ ـ ٦ والمرسلات عُرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشرا . فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً ، عذرا أو نذرا) وقال تعالى (٧٩ : ١ ـ ٥ والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً) وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الاقسام به فى كتاب (التبيان فى أقسام القرآن)

إذا عرفت ذلك فجميع تلك المحبات والحركات والارادات والأفعال هى عباداتهم لرب الأرض والسموات ، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها، فلولا الحب مادارت الأفلاك . ولا تحركت الكواكب النيرات . ولا هبت الرياح المسخرات . ولا مرت السحاب الحاملات . ولا تحركت الأجنة فى بطون الأمهات ولا انصدع عن الحبِّ أنواع النباتات . ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات . ولا تحركت المدبرات والمقسمات . ولا سبَّحت بحمد فاطرها الأرض والسموات ، وما فيها من أنواع المخلوقات . فسبحان من (١٧ : ٤٤ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً)

فصل

إذا عرفت ذلك فكل حَيٍّ له إرادة ومحبة وعمل يحسنه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة · ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده ، كما لا وجود لها إلا بابداعه وحده . ولهذا قال تعالى (٢١ : ٢٢ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) ولم يقل سبحانه : لما وجدنا ولكانتا معدومتين ، ولا قال : لعدمتا . إذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد ، لكن لا يمكن أن تكون على وجه الصلاح والإستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما ، فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد ، فإن كل إله يطلب مغالبة الآخر والعلو عليه ، وتفرده دونه بالإلهية . إذ الشرك نقص فى كمال الإلهية ، والإله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهاً ناقصا . فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإله وحده والمقهور ليس بإله ؛ وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ، ولم يكن تام الإلهية ، فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما

وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر ، وفى ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما ، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيها ملكان متكافئان ، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان والشُّوَّل [1] إذا كان فيه فحلان .

وأصل فساد العالم إنما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء ، ولهذا لم تطمع أعداء الاسلام فيهم فى زمن من الأزمنة إلا فى زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم ، وانفراد كل واحد منهم ببلاد ، وطلب بعضهم العلو على بعض . فصلاح السموات والأرض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، وأن كل معبود من لَدُن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى . قال الله تعالى (٢٣: ٩١ ، ٩٢ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) وقال تعالى (٢١: ٢١–٢٣ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنْشِرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) وقال تعالى (١٧: ٥٤ لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) قيل المعنى لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض . ويدل عليه قوله فى الآية الأخرى (ولعلا بعضهم على بعض)

قال شيخنا رضى الله عنه : والصحيح أن المعنى : لابتغوا إليه سبيلا بالتقرب إليه وطاعته . فكيف تعبدونهم من دونه ؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له . قال : ويدل على هذا وجوه :

---

(١) على وزن ركع . جمع شائل . وهى الناقة ترفع ذنبها وتشول به . طالبة اللقاح

منها : قوله تعالى (١٧: ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) أى هؤلاء الذين تعبدونهم من دونى هم عبادى كما أنتم عبادى ويرجون رحمتى ويخافون عذابى . فلماذا تعبدونهم من دونى ؟

الثانى : أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا ، بل قال (لابتغوا إليه سبيلا) وهذا اللفظ إنما يستعمل فى التقرب ، كقوله تعالى (٥: ٣٥ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) وأما فى المغالبة فانما يستعمل بعلى كقوله (٤: ٣٤ فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا)

الثالث : أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه ، وهو سبحانه قال (قل لوكان معه آلهة كما يقولون) وهم إنما كانوا يقولون : إن آلهتهم تبتغى التقرب إليه وتقربهم زلفى اليه . يقول : لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدا له ، فلماذا تعبدون عبيده من دونه ؟

فصل

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام ، سواء كانت محمودة أومذمومة ، نافعة أو ضارة : من الوجد . والذوق . والحلاوة . والشوق . والأنس . والاتصال بالمحبوب والقرب منه . والانفصال عنه والبعد منه . والصد والهجران . والفرح والسرور . والبهاء والحزن . وغير ذلك من أحكامها ولوازمها .

والمحبة المحمودة هى المحبة النافعة التى تجلب لصاحبها ما ينفعه فى دنياه وآخرته ، وهذه المحبة هى عنوان السعادة . وضدها هى التى تجلب لصاحبها ما يضره فى دنياه وآخرته ، وهى عنوان الشقاوة .

ومعلوم أن الحى العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه ، وإنما يصدر ذلك عن جهله وظلمه ، فان النفس قد تهوى ما يضرها ولاينفعها ، وذلك ظلم من الإنسان لنفسه ، إما أن تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشىء وتحبه غير

عالمة بما فى محبته من المضرة ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم ، وإما أن تكون عالمة بما فى محبته من الضرر لكن تؤثر هواها على علمها . وقد تتركب محبتها من أمرين : من اعتقاد فاسد ، وهوى مذموم . وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس ، فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد وهوى غالب . أو ماتركب من ذلك فأعان بعضه بعضا فتنفق[1] شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب ، وشهوة تدعو إلى وصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان ، والغلبة لأقواهما .

إذا عرفت هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه ، فالمحبة النافعة المحمودة التى هى عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له ، حكمها حكم متبوعها ، فان بكى نفعه ، و إن حزن نفعه ، و إن فرح نفعه ، و إن انبسط نفعه ، و إن انقبض نفعه ، فهو يتقلب فى منازل المحبة وأحكامها فى مزيد وربح وقوة . والمحبة المضرة المذمومة وتوابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له عن ربه ، كيفما تقلب فى آثارها ونزل فى منازلها فهو فى خسارة و بعد . وهذا شأن كل فعل وتولد عن طاعة أو معصية ، فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقرب . وكل ماتولد من المعصية فهو خسران لصاحبه و بعد . قال تعالى (٩ : ١٢٠ ، ١٢١ ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظَمأٌ ولا نَصَب ولا مَخْمَصَة[2] فى سبيل الله ولا يطئون مَوْطِئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كُتِب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) فأخبر سبحانه فى الآية الاولى : أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح ، وأخبر فى الثانية : أن أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسها .

---

(١) نفقت السلعة اى راجت

(٢) النصب : التعب والعناء . والمخمصة شدة الجوع

الفرق بينهما : أن الاول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه ، فكتب لهم به عمل صالح ، والثانى : نفس أفعالهم ، فكتب لهم .

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ماله وما عليه .

سيعلم يوم العَرض أىَّ بضاعة أضاع ، وعند الوزن ما كان حَصَّلا

فصل

وكما أن المحبة والارادة أصل كل فعل كما تقدم ، فهى أصل كل دين سواء أكان حقا أم باطلا ، فان الدين هو من الاعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والارادة أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخُلُق . فهو الطاعة اللازمة الدائمة التى صارت خُلقا وعادة . ولهذا فسر الخلق بالدين فى قوله تعالى (٦٨ : ٤ وإنك لعلى خُلق عظيم) قال الامام أحمد عن ابن عيينة قال ابن عباس «لعلى دين عظيم» وسئلت عائشة عن خُلق النبى ﷺ فقالت « كان خُلقه القرآن » والدين فيه معنى الاذلال والقهر . وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة ، فلذلك يكون من الأعلى للأسفل ، كما يقال : دنته فدان أى قهرته فذل ، قال الشاعر :

هو دان الزمان إذ كرهوا الد ين فأصبحوا بِعِزَّة وصيان

ويكون من الأدنى إلى الأعلى ، كما يقال : دِنت الله ودنت لله ، وفلان لايدين الله ديناً ، ولا يدين الله بدين . فدان الله ، أى أطاع الله وأحبه وخافه . ودان لله أى خشع له وخضع وذل وانقاد .

والدين الباطن لابد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء ، بخلاف الدين الظاهر . فانه لايستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل فى الظاهر

وسمى الله تعالى يوم القيامة (يوم الدين) لأنه اليوم الذى يدين فيه الناس بأعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم . فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب وقال تعالى (٥٦ : ٨٦ ، ٨٧ فلولا إن كنتم غير

مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) أى هلاّ تردون الروح إلى مكانها من الجسم إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين وهذه الآية تحتاج إلى تفسير . فانها سيقت للاحتجاج عليهم فى إنكارهم البعث والحساب . ولا بد أن يكون الدليل مستلزما لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول ، لما بينهما من التلازم ، فيكون الملزوم دليلا على لازمه ، ولا يجب العكس

ووجه الاستدلال : أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته ، فاما أن يقروا بأن لهم ربا قاهراً متصرفا فيهم ، يميتهم إذا شاء ، ويحييهم إذا شاء ، ويأمرهم وينهاهم . ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم وإما أن لا يقروا برب هذا شأنه . فان أقروا آمنوا بالبعث والنشور ، والدين الأمرى والجزائى ، وإن أنكروا وكفروا به ، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد ، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم . وهذا خطاب للحاضرين ، وهم عند المحتضر ، وهم يعاينون موته . أى فلا يردون الروح إلى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف وليسوا بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر ، يمضى عليهم أحكامه ، وينفذ فيهم أوامره ، وهـذه غاية التعجيز لهم ، إذ تبين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ، ولو اجتمع على ذلك الثقلان ، فيالها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه ، وتصرفه فى عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم

والدين دينان : دين شرعى أمرى ، ودين حسابى جزائى . وكلاهما لله وحده ، فالدين كله أمراً وجزاء لله . والمحبة أصل كل واحد من الدينين . فأن ماشرعه الله وأمر به فانه يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه فانه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه فهو يحب ضده . فعاد دينه الأمرى كله إلى محبته ورضاه

ودين العبد لله به إنما يقبـل إذا كان عن محبة ورضى ، كما قال النبى ﷺ

« ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا » وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ، ولأجلها شُرع . وعليها أسس . وكذلك دينه الجزائى فانه يتضمن مجازاة المحسن باحسانه والمسىء باساءته . وكل من الأمرين محبوب للرب ، فانهما عدله وفضله ، وكلاهما من صفات كماله ، وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه ، ويحب من يحبها . وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليه . فهو سبحانه على صراط مستقيم فى أمره ونهيه وثوابه وعقابه . كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه السلام إذ قال لقومه (١١ : ٥٤ ، ٥٥ إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتُنظِرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، مامن دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم)

ولما علم نبى الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم فى خلقه وأمره وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه ، لايخرج فى ذلك عن موجب كماله المقدس الذى تقتضيه أسماؤه وصفاته ، من العدل والحكمة والرحمة ، والاحسان والفضل ، ووضع الثواب فى مواضعه والعقوبة فى مواضعها اللائقة بها ، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والاضلال كل ذلك فى أماكنه ومحاله اللائقة به ، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء — أوجب له ذلك العلم والعرفان إذ نادى على رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله (إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه — الآية)

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه وذل كل شىء لعظمته فقال (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) فكيف أخاف مَنْ ناصيته بيد غيره ، وهو فى قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه ، وهل هذا الأمر إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم ؟

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم ، فكل مايقضيه ويقدره فلايخاف العبد جوره ولا ظلمه ، فلا أخاف ما دونه فان ناصيته بيده ، ولا أخاف جوره

وظلمه فانه على صراط مستقيم . وهو سبحانه ماض حكمه فى عبده عدل فيه قضاؤه له الملك وله الحمد ، لايخرج فى تصرفه فى عباده عن العدل والفضل ، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته ، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته . وهو على صراط مستقيم فى هذا وهذا . وفى الحديث الصحيح « ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك . ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضائك . أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك ، أواستأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدرى ، وجلاء همى وحزنى ، وذهاب همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله فرجا مكانه » وهذا يتناول حكم الرب الكونى والأمرى والقضاء الذى يكون باختيار العبد وبغير اختياره ، وكلا الحكمين ماض فى عبده ، وكلا القضائين عدل فيه . فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما أقرب نسب . وبالله التوفيق

فصل

ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف مايذكره ذاكر ، فانه يفسد القلب بالذات . وإذا فسد فسدت الارادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد كما تقدم . وسنقرره أيضاً إن شاء الله تعالى .

والله سبحانه وتعالي إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من النـاس . وهم قوم لوط والنساء ، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به ؛ وأخبر عن الحال التى صار اليها يوسف بصبره وعفته وتقواه . مع أن الذى ابتلى به أمر لايصبر عليه إلا من صبره الله عليه ، فان موافقة الفعل بحسب قوة الداعى وزوال المانع ، وكان الداعى هاهنا فى غاية القوة ، وذلك لوجوه :

أحدها : ماركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة ، كما يميل العطشان الى الماء والجائع الى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء ، وهذا لا يذم إذا صادف حلالا ، بل يحمد كما فى كتاب الزهد للامام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البنانى عن أنس عن النبى ﷺ « حبب إلىَّ من دنياكم الطيب والنساء ، أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن »

الثانى : أن يوسف عليه السلام كان شابا وشهوة الشاب وحدَّته أقوى

الثالث : أنه كان عَزَبا ، لا زوجة له ولا سرية ، تكسر حدة الشهوة

الرابع : أنه كان فى بلاد غربة لا يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما يتأتى لغيره فى وطنه وأهله ومعارفه

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال ، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو الى موافقتها

السادس : أنها غير آبية ولا ممتنعة . فان كثيراً من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها ، لما يجد فى نفسه من ذل النفس والخضوع والسؤال لها . وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع حبا ورغبة ، كما قال الشاعر:

وزادنى كلفا فى الحب أن منعت * أحبُّ شىء إلى الانسان ما منعا

فطباع الناس مختلفة فى ذلك فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة نفسها ورغبتها وتضمحل عند إبائها وامتناعها، وأخبرنى بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناعِ زوجته أو سريته و إبائها ، بحيث لا يعاودها . ومنهم من يتضاعف حبه و إرادته بالمنع ، و يشتد شوقه بكل ما منع ، و يحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره ، واللذة بادراك المسئلة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها

السابع . أنها طلبت وأرادت و بذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة اليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه

الثامن : أنه فى دارها وتحت سلطانها وقهرها ؛ بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له ، فاجتمع داعى الرغبة والرهبة

التاسع : أنه لايخشى أن تنِمَّ عليه هى ، ولا أحد من جهتها . فانها هى الطالبة والراغبة . وقد غلَّقت الأبواب وغيبت الرقباء

العاشر : أنه كان مملوكا لها فى الدار ، بحيث يدخل و يخرج و يحضر معها ، ولا ينكَر عليه . وكان الأمن سابقاً على الطلب . وهو من أقوى الدواعى ، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب : ماحملك على الزنا ؟ قالت : قرب الوساد وطول السواد . تعنى قرب وساد الرجل من وسادتى ، وطول السواد بيننا

الحادى عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن وشكت حالها اليهن لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن فقال (١٢ : ٣٣ و إلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين)

الثانى عشر : أنها توعدته بالسجن والصغار . وهذا نوع إكراه . إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعى الشهوة وداعى حب السلامة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما و يبعد كلاً منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف (أعرض عن هذا) وللمرأة (استغفرى لذنبك . إنك كنت من الخاطئين) وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع . وهنا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعى كلها فقد آثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى فقال (١٢ : ٣٣ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه وأن ربه تعالى إن لم يعصمه و يصرف

عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه . وكان من الجاهلين . وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه .

وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم مايزيد على ألف فائدة . لعلنا إن وفقنا الله أن نفردها فى مصنف مستقل

فصل

والطائفة الثانية ، الذين حكى الله عنهم العشق : هم اللوطية . كما قال تعالى (١٥ : ٦٧ - ٧٢ وجاء أهل المدينة يستبشرون . قال : إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا : أولم ننهك عن العالمين ؟ قال : هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين . لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) فهذا من العشق .

فحكاه سبحانه عن طائفتين ، عشق كل منهما ماحرم عليه من الصور ، ولم يبال بما فى عشقه من الضرر .

وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه ، وعز عليهم شفاؤه ، وهو والله الداء العضال ، والسم القتال الذى ما علق بقلب إلا وعز على الورى استنقاذه من إساره ، ولااشتعلت ناره فى مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره . وهو أقسام .

تارة يكون كفرا ، كمن اتخذ معشوقه ندا ، يحبه كما يحب الله . فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله فى قلبه ؟ فهذا عشق لا يغفره الله لصاحبه . فانه من أعظم الشرك . والله لا يغفر أن يشرك به ، وإنما يغفر بالتوبة الماحية مادون ذلك[1] . وعلامة هذا العشق الشركى الكفرى : أن يقدم العاشق رضاه معشوقه على رضاء ربه . وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحق ربه ، وطاعة ربه وطاعته قدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاه على رضاه ، وبذل لمعشوقه أنفس ما يقدر عليه ، وبذل لربه - إن بذل - أردأ ما عنده ، واستفرغ وسعه فى مرضاة معشوقه

---

(١) بل يغفر بالتوبة النصوح الماحية كل شىء حتى الشرك . كما نص القرآن

وطاعته والتقرب إليه ، وجعل لربه - إن أطاعه - الفضلة التى تفضل عن معشوقه من ساعاته .

فتأمل حال أكثر عشاق الصور . هل تجدها إلا مطابقة لذلك ؟ ثم ضع حالهم فى كِفَّة ، وتوحيدهم فى كفة وإيمانهم فى كفة ، ثم زِنْ وزنا يرضى الله ورسوله ويطابق العدل . وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه ، كما قال العاشق الخبيث :

يترشَّفنَ من فمى رشفات هنَّ أحلى فيه من توحيد

وكما صرح الخبيث الآخر بأن وصل معشوقه أشهى إليه من رحمة ربه فعياذا بك اللهم من هذا الخذلان ، ومن هذا الحال قال الشاعر :

وصلك أشهى إلى فؤادى * من رحمة الخالق الجليل

ولاريب أن هذا العشق من أعظم الشرك ، وكثير من العشاق يصرح بأنه لم يبق فى قلبه موضع لغير معشوقه ألبتة ، بل قد ملك معشوقه عليه قلبه كله ، فصار عبداً مخلصاً من كل وجه لمعشوقه . فقد رضى هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبوديته لمخلوق مثله ، فان العبودية هى كمال الحب والخضوع ، وهذا قد استغرق قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه . فقد أعطاه حقيقة العبودية .

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة ، فان تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله ، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك . وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول : لأن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحبُّ إلىَّ من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله

فصل

ودواء هذا الداء القتال : أن يعرف أن ما ابتلى به من هذا الداء المضاد للتوحيد إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله ، فعليه أن يعرف توحيد ربه من

سننه وآياته أولا ، ثم يأتى من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه ، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه فى صرف ذلك عنه وأن يرجع بقلبه إليه . وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله . وهو الدواء الذى ذكره الله فى كتابه حيث قال (١٢ : ٢٤ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فأخبر سبحانه أنه صرف عن يوسف السوء من العشق والفحشاء من الفعل باخلاصه ، فإن القلب إذ أخلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور . فانه إنما يتمكن من القلب الفارغ ، كما قال :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع قد يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها ، و إعدام المفاسد وتقليلها . فاذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة . وجب عليه أمران . أمر علمى ، وأمر عملى . فالعلمى طلب معرفة الراجح من طرفى المصلحة والمفسدة ، فاذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الأصلح له .

ومن المعلوم : أنه ليس فى عشق الصور مصلحة دينية ولادنيوية ، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف مايقدر فيه من المصلحة ، وذلك من وجوه .

أحدها : الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره ، فلا يجتمع فى القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما صاحبه ، ويكون السلطان والغلبة له

الثانى عذاب قلبه بمعشوقه . فان من أحب شيئاً غير الله عذب به ولابد ، كما قيل

فما فى الأرض أشقى من محب * وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا فى كل حين * مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى إن نأوا شوقاً اليهم * ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند الفراق * وتسخن عينه عند التلاق

والعشق ، وان استلذ به صاحبه ، فهو من أعظم عذاب القلب

الثالث : أن العاشق قلبه أسير فى قبضة معشوقه يسومه الهوان ، ولكنه لسكرة العشق لايشعر بمصابه ، فقلبه كالعصفور فى كف الطفل يورده حياض الردى والطفل يلهو ويلعب ، فيعيش العاشق عيش الأسير الموثق ، ويعيش الخلى عيش المسيب المطلق ، والعاشق كما قيل :

طليق برأى العين وهو أسير   عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يُرى فى صورة الحىّ غاديا   وليس له حتى النشور نشور
أخو غَمرات ضاع فيهن قلبه   فليس له حتى الممات حضور

الرابع : أنه يشتغل عن مصالح دينه ودنياه . فليس شىء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور . أما مصالح الدين فانها مَنُوطة بِلَمِّ شَعَثِ القلب وإقباله على الله ، وعشق الصور أعظم شىء تشعيباً وتشتيتاً له . وأما مصالح الدنيا فهى تابعة فى الحقيقة لمصالح الدين . فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه . فمصالح دنياه أضيع وأضيع

الخامس : أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار فى يابس الحطب ، وسبب ذلك : أن القلب كلما قرب من العشق وقوى اتصاله به بعد من الله ، فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور . وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات من كل ناحية . فان الشيطان يتولاه ، ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يألُه وبالا (١) ولم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله ، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه ، وأحرص الخلق على غيه وفساده وبعده من وليه ، ومن وليه ، ومن لاسعادة له ولا فلاح ولا سرور إلا بقلبه وولايته ؟

السادس : أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوساوس ، وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم . فلا ينتفعون

---

(١) أى لم يقصر فى إيصال أنواع الهلاك اليه.

بها . وأخبار العشاق فى ذلك موجودة فى مواضعها ، بل بعضها يشاهد بالعيان ، وأشرف ما فى الانسان عقله ، و به يتميز عن سائر الحيوانات . فاذا عدم عقله التحق بالبهائم ، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله ، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا العشق ؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره ، كما قيل :

قالوا : جننت بمن تهوى . فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يُصرع المجنون بالحين

السابع : أنه ربما أفسد الحواس أو أنقصها ، إما إفساداً معنويا أو صوريا ، أما الفساد المعنوى فهو تابع لفساد القلب . فان القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان . فيرى القبيح حسن منه ومن معشوقه كما فى المسند مرفوعا « حبك الشىء يُعمى ويُصم » فهو يعمى عين القلب عن رؤية مساوى المحبوب وعيوبه فلا ترى العين ذلك ، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه . فلا تسمع الاذن ذلك والرغبات تستر العيوب ، فان الراغب فى شىء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه . فشدة الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشىء على ما هو عليه ، كما قيل :

هويتك إذ عينى عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

والداخل فى الشىء لا يرى عيوبه ، والخارج منه الذى لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه . ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا فى الاسلام بعد الكفر خيرا من الذين ولدوا فى الاسلام . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « إنما تُنقض عرى الاسلام عروة عروة إذا ولد فى الاسلام من لا يعرف الجاهلية »

وأما إفساده للحواس ظاهراً فانه يمرض البدن وينهكه ، وربما أدى إلى تلفه كما هو المعروف فى اخبار من قتله العشق .

وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد نحل حتى عاد جلداً على عظم . فقال :

ما شأن هذا ؟ قالوا به العشق ، فجعل ابن عباس يتعوذ بالله من العشق عامه يومه .

الثامن : أن العشق كما تقدم هو الافراط فى المحبة ، بحيث يستولى المعشوق على القلب من العاشق ، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والتفكر فيه ، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه ، فعند ذلك تشتغل النفس بالخواطر النفسانية فتتعطل تلك القوى ، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعسر دواؤه ويتعذر ، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده ، ويختل جميع ذلك فيعجز البشر عن صلاحه ، كما قيل :

الحب أول ما يكون لجاجة ... يأتى بها وتسوقه الأقدار
حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى ... جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة حلوة ، وأوسطه همٌّ وشغل قلب وسقم ، وآخره عطب وقتل ، إن لم تتداركه عناية من الله ، كما قيل :

وعش خالياً فالحب أوله عَنًى ... وأوسطه سقم ، وآخره قتل

وقال آخر :

تولَّع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق
رأى لُجَّة ظنها موجة ... فلما تمكن منها غرق

والذنب منه ، فهو الجانى على نفسه ، وقد قعد تحت المثل السائر « يداك أوكتا وفوك نفخ » (١)

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات : مقام ابتداء ، ومقام توسط ، ومقام انتهاء

---

(١) هذا مثل . وأصله أن رجلا كان فى جزيرة من جزائر البحر فأراد أن يعبر على زق قد نفخه ، فلم يحسن إحكامه حتى إذا توسط البحر خرجت منه الريح فغرق . فلما غشيه الموت استغاث برجل فقال له « يداك أوكتا وفوك نفخ » يضرب لمن يجنى على نفسه . وأوكى القربة أى ربطها

فأما مقام ابتدائه ، فالواجب عليه مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذرا قدراً وشرعاً . فان عجز من ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه ، وهذا مقام التوسط والانتهاء - فعليه كتمان ذلك وأن لا يفشه إلى الخلق ، ولا يشمت بمحبوبه ولا يهتكه بين الناس ، فيجمع بين الظلم والشرك . فان الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم . وربما كان أعظم ضرراً على المعشوق وأهله من ظلمه فى ماله ، فانه يعرض المعشوق بهتكه فى عشقه الى وقوع الناس فيه وانقسامهم الى مصدق ومكذب . وأكثر الناس يصدق فى هذا الباب بأدنى شبهة واذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون . وخبر العاشق المتهتك عن غير المتهتك عند الناس فى هذا الباب يفيد القطع واليقين ، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذباً وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزماً لا يحتمل النقيض . بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقا جزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما ، وجزمهم فى هذا الباب على الظنون والتخييل والشبهة والأوهام والأخبار الكاذبة ، كجزمهم بالحسيات المشاهدة . وبذلك وقع أهل الإفك فى الطيبة المطيبة ، حبيبة رسول الله ﷺ ، المبرأة من فوق سبع سموات ، بشبهة مجيء صفوان بن المعطّل بها وحده خلف العسكر ، حتى هلك من هلك . ولولا أن تولى الله سبحانه براءتها والذبّ عنها وتكذيب قاذفها لكان أمراً آخر .

والمقصود : أن فى إظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله ، وتعريض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه . فان استعان عليه بمن يستميله إليه ، إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر ، وصار ذلك الواسطة ديوثاً ظالماً ، وإذا كان النبى ﷺ قد لعن الرائش - وهو الواسطة بين الراشى والمرتشى لإيصال الرشوة - فما الظن بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق فى الوصلة المحرمة ؟ فيساعد العاشق على ظلم المعشوق مع غيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه فى نفس أو مال أو عرض . فان كثيراً ما يتوقف

حصول غرضه المطلوب على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه . وكم قتيل طَلّ دمه[١] بهذا السبب من زوج وسيد وقريب، وكم خُبِّبت[٢] امرأة على بعلها وجارية وعبد على سيدهما . وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك وتبرأ منه . وهو من أكبر الكبائر، وإذا كان النبي ﷺ قد نهى أن يخطب الرجل على خِطبة أخيه ، وأن يسوم على سومه ، فكيف بمن يسعى بالتفريق بينه وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما ؟ وعشاق الصور ومساعدوهم من الدَّيَثة[٣] لايرون ذلك ذنباً ، فان فى طلب العاشق وصل معشوقه مشاركة الزوج والسيد . ففى ذلك من إثم ظلم الغير مالعله لايقصر عن إثم الفاحشة ، إن لم يَرْبُ عليها . ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة ، فان التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة . فإن من ظلم الوالد بافساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه ، وظلم الزوج بافساد حبيبته والجناية على فراشه — أعظم ممن ظلمه بأخذ ماله كله . ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله . ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه . فياله من ظلم أعظم إثماً من فعل الفاحشة . فان كان ذلك حقاً لغاز فى سبيل الله أُوقف له الجانى الفاعل يوم القيامة . وقيل له « خذ من حسناته ما شئت » كما أخبر بذلك النبي ﷺ ثم قال ﷺ « فما ظنكم ؟ » أى فما تظنون يبقى له من حسناته ؟ فان انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جاراً ، أو ذا رحم محرم ، تعدد الظلم وصار ظلماً مؤكداً لقطيعة الرحم وأذى الجار . ولا يدخل الجنة قاطع رحم ولا من لا يأمن جاره بوائقه[٤] .

---

(١) طل دمه أى أهدر ، فلم يقتص به ولم تؤخذ له دية (٢) خبب المرأة على زوجها مازال يخدعها ويغويها حتى أفسدها عليه (٣) الديثة — بفتح الدال والياء — جمع ديوث (٤) أى غوائله وشروره جمع بائقة وهى الداهية .

فان استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين الجن ، إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر . فان لم يفعله هو ورضى به كان راضياً بالكفر غير كاره له لحصول مقصوده . وهذا ليس ببعيد من الكفر .

والمقصود : أن التعاون فى هذا الباب تعاون على الاثم والعدوان

وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدى ضرره . فأمر لايخفى ، فانه إذا حصل له مقصوده من المعشوق فللمعشوق أمور أخرى يريد من العاشق إعانته عليها . فلا يجد من إعانته بدًّا . فيبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان . فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من اتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه ، والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفاً على ظلمه . فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التى يكون فيها ظلم الناس ، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما فى القبح لتعاونهما بذلك على الظلم ، وكما جرت به العادة بين العاشق والمعشوق ، من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبغى ، حتى ربما يسعى له فى منصب لايليق به ولا يصلح لمثله وفى تحصيل مال من غير حله ، وفى استطالته على غيره . فاذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا فى جانب المعشوق ظالماً كان أو مظلوماً . هذا إلى ماينضم إلى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم ، والتوصل بها الى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانة أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك . وربما أدى ذلك الى قتل النفس التى حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به الى معشوقه .

فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ عن عشق الصور ، وربما حمله على الكفر الصريح . وقد تنصر جماعة ممن نشئوا فى الاسلام بسبب العشق ، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر — وهو على سطح مسجد — امرأة جميلة ، ففتن بها ونزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت : هى نصرانية . فان دخلت فى دينى تزوجت بك

لفعل ، فرقى فى ذلك اليوم على درجة عندهم ، فسقط منها ، فمات . ذكر هذا عبد الحق فى كتاب العاقبة له

واذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه فى نفسها ، حتى اذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها ان دخل فى دينها . فهنالك (يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء) .

وفى العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه لمعاونته له على الفاحشة وظلمه لنفسه ما فيه . فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه ، وظلمهما متعد الى الغير كما تقدم ، وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك . فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها . والمعشوق اذا لم يتق الله فانه يعرض العاشق للتلف ، وذلك ظلم منه ، بأن يطمعه فى نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه ، لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه ، فهو يسومه سوء العذاب . والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفى نفسه منه ، ولا سيما اذا جاد بالوصال لغيره . وكم للعشق من قتيل من الجانبين . وكم قد أزال من نعمة ، وأفقر من غنى ، وأسقط من مرتبة ، وشتت من شمل ، وكم أفسد من أهل للرجل وولده ، فان المرأة اذا رأت بعلها عاشقاً لغيرها اتخذت هى معشوقا لنفسها ، فيصير الرجل متردداً بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة ، فمن الناس من يؤثر هذا ، ومنهم من يؤثر هذا

فعلى العاقل أن يحكم على نفسه سد باب عشق الصور لئلا يؤذيه ويؤديه ذلك إلى الهلاك والى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها . فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه والمغرور بها ، فاذا هلكت فهو الذى أهلكها . فلولا تكراره النظر الى وجه معشوقه وطمعه فى وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه . فان أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع . فان لم يقارنه طمع فى الوصال وقارنه الاياس من ذلك لم يحدث له العشق . فان اقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشغل قلبه به لم يحدث له

ذلك . فان أطاع مع ذلك الفكر فى محاسن المعشوق وقارنه خوف ماهو أكبر عنده من لذة وصاله ، اما خوف دينى ، كخوف النار وغضب الجبار واجتناب الاوزار ، وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له العشق . فان فاته هذا الخوف وقارنه خوف دنيوى كخوف اتلاف نفسه وماله، وذهاب جاهه وسقوط مرتبه عند الناس ، وسقوطه من عين من يعز عليه، وغلب هذا الخوف على داعى العشق دفعه وكذلك اذا خاف من فوات محبوب هو أحب اليه وأنفع له من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة المعشوق اندفع عنه العشق . فاذا انتفى ذلك كله أو غلبت محبة المعشوق لذلك انجذب اليه القلب بالكلية ، ومالت اليه النفس كل الميل

فان قيل: قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده ، فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التى من جملتها : رقة الطبع وترويح النفس وخفتها ، وزوال تلفها ورياضتها، وحملها على مكارم الأخلاق، من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ، ولطف الجانب وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازى : ان ابنك قد عشق فلانة . فقال الحمد لله الذى صيره إلى الطبع الآدمى . وقال بعضهم : العشق داء أفئدة الكرام .

وقال غيره : العشق لا يصلح إلا لذى مروءة ظاهرة وخليقة ظاهرة ، أو لذى لسان فاضل وإحسان كامل ، أو لذى أدب بارع وحسب ناصع .

وقال آخر :العشق يثبت الجبان ، ويصفى ذهن الغبى ، ويسخى كف البخيل ويذل عزة الملوك ، ويسكن نوافر الأخلاق ، وهو أنيس من لا أنيس له ، وجليس من لا جليس له .

وقال آخر : العشق يزيل الأثقال ، ويلطف الروح ، ويصفى كدر القلب ، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام ، كما قيل :

سيهلك فى الدنيا شفيق عليكم   اذا غاله من حادث الحب غائله
كريم يميت السر ، حتى كأنه   إذا استفهموه عن حديثك جاهله

يود بأن يمسى سقيما لعلها إذا سمعت عنه بشكوى تراسله

و يهتز للمعروف فى طلب العلا لتحمد يوما عند ليلى شمائله

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق

وقال بعض الحكماء: العشق يروض النفس ، ويهذب الأخلاق ، إظهاره طبعى. واضماره تكلفى .

وقال الآخر : من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجى والوجه البهى فهو فاسد المزاح ، يحتاج إلى علاج . وأنشد فى ذلك المعنى :

اذا أنت لم تعشق ، ولم تدر ما الهوى فما لك فى طيب الحياة نصيب

وقال آخر:

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فقم واعْتَلِفْ تبناً ، فأنت حمار

وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

وقال بعض العشاق أولى العفة والصيانة: العشاق إذا عفوا تشرفوا ، و إذا عشقوا تظرفوا .

وقيل لبعض العشاق : ماكنت تصنع بمن تهوى لو ظفرت به ؟ فقال: كنت أمتع طرفى بوجهه ، وأروح قلبى بذكره وحديثه ، وأستر منه ما لا أحب كشفه ، ولا أصير بقبيح الفعل إلى ماينقض عهده . ثم أنشد :

أخلو به ، فأعِفُّ عنه تكرما خوف الديانة ، لست من عشاقه

كالماء فى يد صائم يتلذه ظمأ ، فيصبر عن لذيذ مذاقه

وقال أبو اسحاق بن ابراهيم : أرواح العشاق عطرة لطيفة ، وأبدانهم رقيقة

خفيفة ، نزهتهم المؤانسة ، وكلامهم يحيي موات القلوب ، ويزيد فى العقول. ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا.

وقال آخر : العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان ، إن تركته ضرك . وإن أكثرت منه قتلك . وفى ذلك قيل :

خليلى ، إن الحب فيه لذاذة ... وفيه شقاء دائم وكروب
على ذاك ماعيش يطيب بغيره ... ولا عيش إلا بالحبيب يطيب
ولا خير فى الدنيا بغير صبابة ... ولا فى نعيم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطى عن أبى غسان قال : مر أبو بكر الصديق رضى الله عنه بجارية وهى تقول :

وهويته من قبل قطع تمائمى ... متمايلا مثل القضيب الناعم

فسألها : أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت : بل مملوكة . فقال: أتهوين؟ فتلكأت فأقسم عليها . فقالت :

وأنا التى لعب الهوى بفؤادها ... قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب[1] فقال : هؤلاء والله فتن الرجال . وكم والله قد مات بهن كريم ، وعطب بهن سليم.

وجاءت جارية إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه تستعدى على رجل من الأنصار، فقال لها عثمان : ماقصتك ؟ قالت : كلفت ياأمير المؤمنين بابن أخيه ، فما أنفك أداعبه . فقال له عثمان : إما أن تهبها إلى ابن أخيك ، أو أعطيك ثمنها من مالى . فقال : أشهدك ياأمير المؤمنين أنها له .

ونحن لاننكر فساد العشق الذى يتعلق به فعل الفاحشة بالمعشوق،وإنما الكلام فى العشق العفيف . من الرجل الظريف ، الذى يأبى له إيمانه ودينه وعفته ومروءته

---

(١) وهل يعقل أن يدرك محمد بن القاسم أبابكر ؟ لابد أن يكون ابو بكر آخر . والخرائطي ليس ممن يوثق بنقله .

أن يفسد ما بينه و بين الله ، وما بينه و بين معشوقه بالحرام . وهـذا عشق السلف الكرام والأئمة الأعـلام . فهذا عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره ، ولم ينكر عليه ، وعُدَّ ظالماً من لامه . ومن شعره:

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم ... ولامك أقوام ، ولومهم ظلم

فنمّ[1] عليك الكاشحون وقبلهم ... عليك الهوى قد نم ، ماينفع الكتم

فأصبحت كالنمرى إذ مات حسرة ... على إثر هند أو كمن شفّه[2] سقم

تجنبت إتيان الحبيب تأثما ... ألا إن هجران الحبيب هو الاثم

فذق هجرها ، قد كنت تزعم أنه ... رشاد ، ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه لجارية امرأته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وقصته مشهورة ، وكانت جارية بارعة الجمال ، وكان معجباً بها ، وكان يطلبها من امرأته و يحرص على أن تهبها له فتأبى . ولم تزل الجارية فى نفس عمر . فلما استُخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت ، وكانت مثلا فى حسنها وجمالها . ثم دخلت على عمر ، وقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت معجباً بجاريتى فلانة ، فسألتنى أن أهبها لك ، فأبيتُ عليك ، والآن فقد طابت نفسى لك بها . فلما قالت له ذلك استبان الفرح فى وجهه ، وقال : عجلى بها على . فلما دخلت بها عليه ازداد بهـا عجبا . وقال : لهـا ألقى ثيابك ، ففعلت . ثم قال لها : على رِسْلك ، أخبرينى لمن كنت ؟ ومن أين صرت لفاطمة ؟ فقالت : أغرَم الحجاج عاملا له بالكوفة مالاً ، وكنت فى رقيقه ذلك . قالت : فأخذنى و بعث بى إلى عبد الملك فوهبنى لفاطمة . قال : ومافعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك . قال : وهل ترك ولداً ؟ قالت: نعم . قال : فما حالهم ؟ قالت : سيئة . قال : شُدِّى عليك ثيابك ، واذهبى إلى مكانك . ثم كتب إلى عامله على العراق : أن ابعث إلىّ فلان بن فلان على البريد فلما قدم قال له : ارفع إلى جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك ، فلم يرفع إليه شيئاً إلا

(١) نم الحديث أفشاه (٢) شفه أى هزله حتى صار نحيلا .

دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعت إليـه ، ثم قال له : إياك و إياها . فلعل أباك قد وقع بها ، فقال الغلام : هى لك يا أمير المؤمنين ، قال : لا حاجة لى بها . قال فابتعها منى ، قال : لست إذاً ممن نهى نفسه عن الهوى ، فلما عزم الفتى على الانصراف قالت : أين وَجْدُك بى يا أمير المؤمنين؟ قال : على حاله، ولقد زادني ولم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات رحمه الله .

وهذا أبو بكر محمد بن داود الظاهرى العالم المشهور فى فنون العلم من الفقه والحديث والتفسير والأدب ، وله قول فى الفقه وهو من أكابر العلماء ، وعشقه مشهور

قال نِفطَوَيه : دخلت عليه فى مرضه الذى مات فيه فقلت : كيف تجدك ؟ قال : حب من تعلم أورثنى ما ترى . فقلت : وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : الاستمتاع على وجهين :

أحدهما النظر المباح ، والآخر اللذة المحظورة . فأما النظر المباح فهو الذى أورثنى ماترى . وأما اللذة المحظورة فيمنعنى منها ماحدثنى أبى حدثنا سويد بن سعيد حـدثنا على بن مُسْهِر عن أبى يحيى القَتَّات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه « مَنْ عَشِقَ وكتم وعَفَّ وصبر غفر الله له وأدخله الجنة » ثم أنشد :

انظر إلى السـحر يجرى من لواحظه … وانظر إلى دَعَجٍ فى طرفه الساجى [1]
وانظر إلى شعرات فوق عارضه … كأنهـن نِمالٌ دَبَّ فى عاج

ثم أنشد :

مالهم أنـكروا سواداً بخـديه … ولا ينكرون ورد الغصون ؟
إن يك عيب خده بدوُّ لشعر … فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له : نفيت القياس فى الفقه وأثبته فى الشَّعر ؟ فقال : غلبة الوجدوملكة

(١) الدعج سواد العينين مع سعتها . وطرف ساج أى ساكن

الوجه النفس [1] دعت اليه ، ثم مات من ليلته . و بسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة ومن كلامه فيه : « من يئس ممن يهواه ولم يمت من وقته سلاه . وذلك أن أول روعات النفس تأتى القلب وهو غير مستعد لها فأما الثانية فانهـا تأتى القلب وقد وطأت لها الروعة

والتقى هو وأبو العباس بن سُرَيج فى مجلس أبى الحسن على بن عيسى الوزير فتناظرا فى مسألة من الايلاء ، فقـال له ابن سُرَيج : أنت بأن تقول : من دامت لحظاته كثرت حسراته ـ أحذق منك بالـكلام على الفقه . فقال : كان ذاك ، أما الآن فانى أقول :

أنزه فى روض المحاسن مقلتى　　وأمنع نفسى أن تنال محرما
وأحمل من ثقـل الهوى مالو أنه　　يصب على الصخر الأصم تهدما
وينطق طرفى عن مترجم خاطرى　　فلولا اختـلاس وده لتـكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم　　فلست أرى وُدًّا صحيحاً مسلماً

فقال له أبو العباس بن سريج تفخر على ؟ ولو شئت لقلت :

مطاعمه كالشـهد فى نغماته　　قد بِتُّ أمنعه لذيذ سناته [2]
بصبـابة وبحسـنه وحديثـه　　وأنزه اللحـظات عن وجنـاته
حتى إذا ماالصبحُ لاح عموده　　ولىَّ بخـاتم ربه وبراته [3]

فقال أبو بكر : يحفظ عليه الوزير ماأقر به حتى يقيم شاهدين على أنه ولى بخاتم ربه و براءته . فقال ابن سريج : يلزمنى فى هذا مايلزمك فى قولك :

أنزه فى روض المحاسن مقلتى　　وأمنع نفسى أن تنـال محرما

فضحك الوزير ، وقال : لقد جمعهما لطفاً وظرفا . ذكر ذلك أبو بكر الخطيب

---

(١) أى تأثره من ذلك الوجه الحسن الذى ملكه (٢) جمع سنة وهى النوم
(٣) أى كما برأه لم يمس بسوء .أو ببراته

فى تاريخه (١) . وجاءته يوما فُتيا (٢) مضمونها :

يا ابن داود ، يافقيه العراق أفتنا فى فواتر الأحداق
هل عليها بما أتت من جناح أم حلال لها دم العشاق ؟

فكتب تحت البيتين بخطه :

عندى جواب سائل العشاق فاسمعه من قَرِح الحشا (٣) مشتاق
لما سألت عن الهوى هيجتنى وأرقت دمعاً لم يكن مهراق
إن كان معشوقا يعذب عاشقا كان المعذب أنعم العشاق

قال صاحب كتاب منازل الأحباب ، شهاب الدين محمود بن سليمان بن مهدى صاحب كتاب الانشاء : وقلت فى جواب البيتين على قافيتهما مجيباً للسائل

قل لمن جاء سائلا عن لحاظ هن يلعبن فى دم العشاق
ماعلى السيف فى العدا من جناح إن ثنى الحد عن دم مهراق
وسيوف اللحاظ أولى بأن تصفح عما جنت على العشاق
إنما كل من قتل شهيد ولهذا يفنى فنا وهو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبى الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذانى شيخ الحنابلة فى وقته رحمه الله :

قل للامام أبي الخطاب مسألة جاءت إليك وما أخال سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة فمذ لاحت لخاطرِهِ ذاتُ الجمال لها (٤)

فأجابه تحت سؤاله :

قل للأديب الذى وافى بمسألة سرت فؤادى لماأن أصختُ لها
إن التى فتنته عن عبادة ربه فريدة ذات حسن فانثنى ولها

---

(١) جزء ٥ ص ٢٥٦ (٢) بضم الفاء، سكون التاء (٣) قرح بفتح القاف وكسر الراء على وزن كتف أى جريح الحشا (٤) من اللهو اى شغل عن الصلاة

إن تاب ثم قضا عنـه عبادته   فرحمة الله تغشى من عصى ولها

وقال عبد الله بن معمر القيسى : حججت سنة ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيارة النبى ﷺ ، فبينما أنا جالس بين القبر والمنبر إذ سمعت أنينا فأصغيت إليه ، فاذا هو يقول :

أشجاك نوح حمائم السِّدْر[1]   فأهجن منك بلابل الصدر
أم عَزَّ نومك ذكر غانية   أهدت إليك وساوس الفكر
يا ليلة طالت على دَنِف[2]   يشكو السهاد وقلة الصبر
أسلمت من تهوى لحر جوًى   متوقـد كتوقد الجمر
فالبـدر يشهد أننى كلف   مغرم بحب شبيهة البـدر
ما كنت أحسبنى أهيم بحبها   حتى بليت ، وكنت لا أدرى

ثم انقطع الصوت ، فلم أدر من أين جاء ، وإذا به قد عاد البكاء والأنين ثم أنشد يقول :

أشجاك من ريا خيـال زائر   والليل مسود الذوائب عاكر
واعتاد مهجتك الهوى برشيشه   واهتاج مقلتك الخيال الزائر
ناديت ريا والظلام كأنه   يمّ[3] تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسرى فى السماء كأنه   ملك ترجل والنجوم عساكر
وترى به الجوزاء ترقص فى الدجى   رقص الحبيب علاه سكر طاهر
ياليل ، طُلت على محب ماله   إلا الصباح مساعد ومؤازر
فأجابني : مت حتف أنفك واعلمن   أن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال : وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم ينتبه إلا وأنا عنده ، فرأيت شابا مقتبلاً شبابه قد خرق الدمع فى خده خرقين ، فسلمت عليه فقال : اجلس

(١) شجر النبق (٢) الدنف هو الذى اضناه الهوى واسقمه الغرام (٣) اليم. البحر

من أنت ؟ فقلت : عبد الله بن القيسى . قال : ألك حاجة ؟ قلت : نعم . كنت جالسا فى الروضة فما راعنى إلا صوتك ، فبنفسى أفديك ، فما الذى تجده ؟ فقال : أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى ، غدوت يوما إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه ، ثم اعتزلت غير بعيد ، فاذا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا ، وإذا فى وسطهن جارية بديعة الجمال ، كاملة الملاحة ، فوقفت على وقالت: ياعتبة ، ما تقول فى وصل من يطلب وصلك ؟ ثم تركتنى وذهبت فلم أسمع لها خبراً ، ولم أقف لها على أثر . فأنا حيران انتقل من مكان إلى آخر ، ثم انصرع وأكب مغشيا عليه ، ثم أفاق كأنما صبغت وجنتاه بورس (١) ثم أنشد يقول :

أراكم بقلبي من بلاد بعيـــدة فيا هل تروني بالفؤاد على بعدى؟
فؤادى وطرفي يأسفان عليكم وعندكم روحي وذكركم عندى
ولست ألذ العيش حتى أراكم ولو كنت فى الفردوس من جنة الخلد

فقلت : يابن أخى تب إلى ربك واستغفره من ذنبك . فبين يديك هول المطلع فقال : ما أنا بسالٍ حتى يذوب العارضان . فلم أزل معه حتى طلع الصباح . فقلت قم بنا إلى مسجد الأحزاب ، فلعل الله أن يكشف كربتك . فقال : أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طاعتك . فذهبنا حتى أتينا مسجد الأحزاب فسمعته يقول :

يا للرجال ليوم الاربعاء ، أما ينفك يحدث لى بعد النهى (٢) طربا
ما إن يزال غزال يقلقنى يأتى إلى مسجد الأحزاب منتقبا
يخبر النـاس أن الأجر همته وما أتى طالبا للأجر محتسبـا
لو كان يبغى ثوابا ماأتى صلفا (٣) مضمخا بفتيت المسك مختضبا

ثم جلسنا حتى صلينا الظهر فاذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن . فوقفن عليه وقلن له : ياعتبة ماظنك بطالبة وصلك وكاسفة بالك ؟ قال : ومابالها قلن : أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة (٤) فسألتهن عن الجارية فقلن

---

(١) نبت اصفر يعرف الآن بالكركم (٢) النهى العقل (٣) الصلف — بوزن كتف — هو من يدعي اللطف والظرف فى تكبر (٤) بادية بين الكوفة والشام

هى ريا بنت الغطريف السلمى . فرفع عتبة إليهن رأسه وقال :

خليلى ، ريا قد أجدّ بُكورها   وسارت إلى أرض السماوة عيرها

خليلى. إنى قدعشيت[1] من البكا   فهل عند غيرى مقلة أستميرها ؟

فقلت له : إنى قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر ، ووالله لابذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضى. فقربنا إلى مسجد الأنصار فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأمنهم ، فسلمت فأحسنوا الرد ، فقلت : أيها الملأ ماتقولون فى عتبة وأبيه ؟ قالوا : من سادات العرب قلت : فانه قد رمى بداهية من الهوى ، وما أريد منكم إلا المساعدة إلى السماوة فقالوا : سمعاً وطاعة ، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بنى سليم ، فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادراً فاستقبلنا وقال : حييتم با كرام ، فقلنا : وأنت فحياك الله ، إنا لك أضياف . فقال : نزلتم أكرم منزل.فنادى : يامعشر العبيد أنزلوا القوم ، ففرشت الانطاع والنمارق وذبحت الذبائح ، فقلنا : لسنا بذائقى طعامك حتى تقضى حاجتنا ، فقال : وما حاجتكم ؟ قلنا : نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر . فقال : إن التى تخطبونها أمرها إلى نفسها ، وأنا أدخل أخبرها ، ثم دخل مغضبا على ابنته ، فقالت : ياأبت مالى أرى الغضب فى وجهك ؟ فقال قد ورد الأنصار يخطبونك مني ، فقالت : سادات كرام ، استغفر لهم الرسول ﷺ ، فلمن الخطبة منهم ؟ قال : لعتبة . قالت : والله لقد سمعت عن عتبة هـذا : أنه يفى بما وعد ، ويدرك إذا قصد . فقال : أقسمت لا أزوجك إياه أبداً ، ولقد نمى إلىّ بعض حديثك معه . فقـالت : ما كان ذلك ، ولكن إذ أقسمت فان الأنصار لايردون رداً قبيحاً . فأحسن لهم الرد . فقال : بأى شىء ؟ قالت : أغلظ عليهم المهر ، فانهم قوم يرجعون ولا يجيبون فقال : ما أحسن

---

(١) العشى : ضعف البصر

ماقلت ، فخرج مبادراً عليهم ، فقال : إن فتاة الحي قد أجابت ، ولكني أريد لها مهر مثلها ، فمن القائم به ؟ فقال عبد الله بن معمر : أنا . فقل ما شئت ، فقال : ألف مثال من الذهب ومائة ثوب من الأبراد وخمسة أكرسة من عنبر[1] فقال عبد الله : لك ذلك كله . فهل أجبت ؟ قال : نعم . قال عبدالله فأنفذت نفراً من الأنصار إلى المدينة فأتوا بجميع ماطلب، ثم صنعت الوليمة فأقمنا على ذلك أياما ، ثم قال : خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين . ثم حملها فى هودج وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف، فودعناه وسرنا ، حتى إذا بقى بيننا و بين المدينة مرحلة واحدة خرج علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم ، فحمل عليها عُتبة ، فقتل منهم رجالاً ، وجندل منهم آخرين ، ثم رجع و به طعنة تفور دما . فسقط إلى الأرض . وأتانا نجدة فطردت الخيل عنا، وقد قَضَى عتبة نَحْبَه ، فقلنا :واعتبتاه فسمعتنا الجارية ، فألقت نفسها عن البعير ، وجعلت تصيح بحرقة وأنشدت :

تصبَّرت لا أنى صبرت ، وإنما أعلل نفسى أنهـا بك لاحقة

فلو أنصفت روحى لكانت إلى الردَى

أمامك من دون البرية سـابقة

فما أحـد بعدى و بعدك منصف

خليـلا ، ولا نفس لنفس موافقة

ثم شهقت وقضت نحبها . فاحتفرنا لهما قبرا واحدا ودفناهما فيه ، ثم رجعت إلى المدينه فأقمت سبع سنين ، ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة ، فقلت : والله لآتين قبر عتبة أزوره . فأتيت القبر . فاذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصفر . فقلت لأرباب المنزل : ما يقال لهذه الشجرة ؟ قالوا : شجرة العروسين

ولو لم يكن فى العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد ، وهو حديث سويد بن سعيد عن على بن مُسهر عن أبى يحيي

(١) كذا . ولعله أكياس من عنبر

القتاب عن مجاهد عن ابن عباس يرفعه « من عشق وعف وكتم فمات فهو شهيد » ورواه سويد أيضاً عن ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا . ورواه الخطيب عن الازهرى عن المعافى بن زكريا عن عطية عن ابن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه . ورواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز بن الماجشون عن عبدالعزيز بن أبى حاتم عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس

وهذا سيد الاولين والآخرين ورسول رب العالمين ﷺ نظر إلى زينب جحش رضى الله عنها فقال « سبحانه مقلب القلوب [1] وكانت تحت زيد بن حارثة

---

(١) إن الشيخ ابن القيم — غفر الله لنا وله — يتساهل تساهلا مفرطاً فى سياقته لهذه الروايات الواهيات . وما كان ذلك الظن به . واعتقد أنه وقد غلبته طريقة التأليف التى كانت نهج زمانه وسبيل أشياخه وأقرانه ، وهى أنهم إنما يعنون ويحفلون بحشد الأدلة على مايدللون عليه من كل صوب وحدب . وإنك لواجد لذلك فى هذا الكتاب أحاديث كثيرة واهية ، وآثاراً إسرائيلية . تجد الشيخ ابن القيم نفسه فى غير هذا الكتاب ينقد من يستدل بأمثالها . وفى هذا الموضوع الخطير موضوع شخصية الرسول الكريم محمد ﷺ الذى هو أنقى وأصفى مثل للانسانية الصابرة الشاكرة المؤمنة بالله وآياته ونعمه أصدق الايمان . ينساق الشيخ ابن القيم فى موضوع العشق والحب ، فيجرى الشيخ فى غير حذر ولا يقظة حتى يقع فى رواية صنعها أعداء الرسول ﷺ . وراجت على الأغفال من السابقين واللاحقين ، زعموا فيها أن الرسول ﷺ دخل على زينب وهى فى زينتها فوقعت من نفسه بالموقع الذى لم يتمالك معه أن يقول « سبحان مقلب القلوب » ولو فطن ابن القيم غفر الله له لسابق كلامه عن الحب وما يصيب القلب من أدوائه لعرف أنه بهذه الرواية الكاذبة الخطيرة يجعل رسوله الله ﷺ أضعف الناس قلباً . وأكثرهم تعلقاً بملاذ الجسد ومتع الدنيا ، وكذلك حينما قص عن أم سلمة أنه ﷺ حين كان يرى عائشة ما كان يصبر عليها ، وحين قص أنه ﷺ ما كان يطيق عن النساء صبراً ، ولا أشك أن الشيخ ابن القيم غفر الله لنا وله — كان من اشد الناس توقيراً لرسول الله . ولكنها زلة دفعه إليها عدم التحرر التام من التقليد =

مولاه فلما همَّ بطلاقها قال له « اتق الله وأمسك عليك زوجك » فلما طلقها زوجها الله سبحانه من رسوله ﷺ من فوق سبع سموات . فكان هو وليها وولى تزويجها من رسول الله ﷺ ، وعقد عقد نكاحهما من فوق عرشه . وأنزل على رسوله ﷺ (٣٣ : ٣٧ وإذا تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه أمسِك عليك زوجك واتق الله ، وتُخفى فى نفسك ما الله مُبْديه ، وتخشى الناسَ ، والله أحقُّ أن تخشاه)

وهذا داود نبى الله عليه السلام كان تحته تسعه وتسعون امرأة ثم أحب تلك المرأة وتزوجها وأكمل بها المائة

= فى تمحيص القول ولا فى طريقة التأليف ، وتنقيح الأدلة ، وغربلة الموضوع ، والتسامح فيما يسمونه الترغيب والترهيب والوعظ وتصفية النفوس . ومن هذه السبيل ارتكس اكثر النفوس متأثرة بالغث وغير منتفعة بالثمين .

واسوق لك كلمة حكيمة تقضى على كل هذه الروايات السخيفة فى هذا الموضوع الخطير . قال الشيخ القاضى ابو بكر بن العربى المالكى فى تفسير احكام القرآن (ج ٢ ص ١٦٨) قال :

وهذه الروايات كلها ساقطة الأسانيد ، إنما الصحيح منها ما قالت عائشة « لو كان رسول الله ﷺ كاتماً من الوحى شيئاً لكتم هذه الآية (وإذ تقول للذى انعم الله عليه) يعنى بالاسلام (وانعمت عليه) يعنى بالعتق (امسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه — إلى قوله — وكان امر الله مفعولا) وان رسول الله ﷺ لما تزوجها قالوا : تزوج حليلة ابنه فأنزل الله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين النبيين) وكان رسول الله قد تبنى زيداً وهو صغير . فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد . فأنزل الله تعالى (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) فلان مولى فلان ، وفلان أخو فلان (هو أقسط عند الله) يعنى انه اعدل عند الله . قال القاضى : وما وراء هذه الرواية فغير معتبر . فأما قولهم : إن النبى ﷺ رآها فوقعت فى قلبه . فباطل . فانه كان معها فى كل وقت وموضع — وهى ابنة عمته — ولم يكن حينئذ حجاب . فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويراها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته =

قال الزهرى : أول حب كان فى الاسلام حب النبى ﷺ لعائشة رضى الله عنها ، وكان مسروق يسميها : حبيبة رسول رب العالمين ﷺ .

وقال أبو القيس مولى عبد الله ابن عمرو « أرسلني عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة أسألها : أكان رسول الله ﷺ يُقبِّل أهله وهو صائم ؟ فقالت :لا. فقال: إن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ يقبلها وهو صائم ، فقالت أم سلمة رضى الله عنها : إن النبى ﷺ كان اذا رأى عائشة لم يتمالك نفسه عنها » .

= نفسها ، وكرهت غيره ، فلم تخطر بباله . فكيف يتجدد له هوى لم يكن ؟! حاشا لهذا القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة . وقد قال الله تعالى (ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) والنساء أفتن الزهرات وانشر الرياحين ، فيخالف هذا فى المطلقات؟ فكيف فى المنكوحات المحبوسات؟! اه

وكذلك قوله عن داود عليه الصلاة والسلام . إنه كان تحته تسعة وتسعون امرأة ثم احب تلك المراة وتزوجها واكمل بها المائة — فانه يشير إلى قصة زوجة اوريا التى افتعلها اليهود وأفكوها يطعنون بها على داود عليه السلام وراجت وانتشرت على ألسنة واقلام كثير من المعظمين عند المسلمين . وهذه زلة ايضاً دفعه إليها مادفعه إلى الأولى ولو انا تدبرنا القرآن حق التدبر لوجدنا ان معناه ابعد شىء وأنزهه عن هذه الاسرائيليات السخيفة. فلقد وصف الله داود بأنه (ذا الأيد) اى القوة فى علمه شأنه ودينه (إنه اواب) اى دائم الأوبة والرجوع إلى ربه فى كل شأنه (وشددنا ملكه) بضروب السياسات الرشيدة ، التى كان يأخذ بها كل أمر يناسبه من الحزم والشدة . وهذا هو قوله (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وهذه الصفات ذكرت فى القرآن وامثالها فى غير موضع ، فهل يعقل من هذا النبى المتصف بهذه الصفات ان يعشق امراة جندى فى عسكره ، غاب فى غزو بعثه فيه ؟ ثم يحتال داود حتى يطلقها منه فلا يفلح ، فيعمل على قتله والتخلص منه ؟ امثل هذا يكون رجلا كريما . فضلا عن ان يكون نبيا من اولى العزم ؟ سبحان الله سبحان الله وحاشا رسل الله إنما جاء ذلك السخف ، بل هذا الزور المنكر الشنيع من تقليدهم للسابقين من غير تمحيص . فاضطروا مع هذا إلى تحريف كلام الله عن موضعه ، وحرفوا كلمة « النعجة » من معناها العربى إلى معنى ابتدعوه ، لتصح لهم هذه الرواية المجرمة وأغفلهم ذلك عن =

وذكر سعيد بن ابراهيم عن عامر بن سعيد عن أبيه ، قال : كان ابراهيم خليل الله يزوره جبرائيل فى كل يوم من الشام على البراق من شغفه به ، وقلة صبره عنه .

وذكر الخرائطى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما اشترى جارية رومية . فكان يحبها حبا شديدا ، فوقعت ذات يوم عن بغلة له ، فجعل يمسح التراب عن

= سياق القرآن، وأن الله سبحانه إنما فتن داود وامتحنه بهذين المتخاصمين لأنه احتبس نفسه فى المحراب يتعبد ، ويترك الناس فى هذا اليوم يتخاصمون حتى يخرج إليهم فى اليوم الآخر . ووقت الحكام والملوك ليس لأشخاصهم بل هو للرعية والشعب. فعبادتهم التى يحبها ربهم إنما هى فى قيامهم بين الرعية والشعب يفصلون الخصومات ويوجهونهم بسياستهم الرشيدة إلى مافيه خيرهم ورقيهم، وتأمل قول الله (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) يتبين لك ذلك إذا جردت عقلك وهيأته لفهم القول العربى المبين على وجهه مستقلا ولقد كانت هذه الخلوة محببة إلى نفس داود يهدأ فيها ويستريح ، فكان له فيها هوى ، نهاه الله تعالى عنه بقوله (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وفى هذه القصة معانى عظيمة وعظات حكيمة لمن هيأ الله لهم فى المجتمع من أسباب الحكم والرياسة مالو تدبروها لانتفعوا بها وانتفع الناس. وكان الخير العظيم .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسير الآيات من سورة ص : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات . ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه اه

وقال الامام أبو محمد بن حزم — بعد أن ساق الآيات — وهذا قول صادق صحيح لايدل على شىء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود ، وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بنى آدم بلا شك ، مختصمين فى نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم ، بغى أحدهما على الآخر ، على نص الآية. ومن قال : إنهم ملائكة معرضين بأمر النساء فقد كذب على الله ، وقال على الله مالم يقل. وزاد فى القرآن ماليس فيه . وأقر على نفسه الخبيثة أنه كذب الله والملائكة . لأن الله تعالى يقول (وهل أتاك نبأ الخصم) فقال هو : لم يكونوا قط خصمين ، ولا بغى بعضهما على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة . ولا كان للآخر نعجة واحدة . ولا قال (أكفلنيها) فاعجبوا لما يقحم فيه أهل الباطل أنفسهم . ونعوذ بالله من الخذلان اه ونسأل الله أن يسددنا فى القول والعمل وأن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وجهها و يفديها و يقبلها . وكانت تكثر من أن تقول له يابطرون أنت قالون ، تعنى يامولاى أنت جيد . ثم إنها هربت منه ، فوجد عليها وجدا شديدا ، فقال :

قد كنت أحسبنى قالون فانصرفت فاليوم أعلم أنى غير قالون

قال أبو محمد بن حزم : وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين كثير وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها ، فقال : ذلك ما لا يملك

فالجواب و بالله التوفيق :

أن الكلام فى هذا الباب لابد فيه من التمييز بين الواقع والجائز ، والنافع والضار . ولا يستعجل عليه بالذم والانكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة ، و إنما يتبين حكمه و ينكشف أمره بذكر متعلقه ، و إلا فالعشق من حيث هو لايحمد ولا يذم . ونحن نذكر النافع من الحب والضار ، والجائز والحرام :

اعلم أن أنفع المحبة على الاطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته ، وفطرت الخليقة على تألهيه ، وبها قامت الأرض والسموات ، وعليها فطرجميع المخلوقات ، وهى سر شهادة أن لا إله إلا الله ، فان الإله هو الذى تألهه القلوب بالمحبة والاجلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده ،والعبادة لاتصلح إلا له وحده ، والعبادة هى كمال الحب مع كمال الخضوع والذل . والشرك فى هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لايغفره الله . والله سبحانه يُحَبُّ لذاته من سائر الوجوه . وما سواه فانما يحب تبعاً لمحبته . وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ، ودعوة جميع رسله صلى الله عليهم وسلم أجمعين وفطرته التى فطر عليها عباده ، وما ركب فيهم من العقول ، وما أسبغ عليهم من النعم . فان القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها ، فكيف بمن كل الاحسان منه ، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لاشريك له . كما قال تعالى (١٦ : ٣٥ وما بكم من نعمة الله ـ الآية) وما تعرَّف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العليا وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته

والمحبة لها داعيان : الجلال والجمال ، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك ، فانه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له ، والجمال كله منه ، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه ، قال الله تعالى (٣ : ٣١ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال تعالى (٥ : ٥٤ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ـ الآية)

والولاية أصلها الحب ، فلا موالاة إلا بحب كما أن العداوة أصلها البغض . والله ولى الذين آمنوا وهم أولياؤه ، فهم يوالونه بمحبتهم له ، وهو يواليهم بمحبته لهم فالله يوالى عبده المؤمن بحسب محبته له . ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء ، بخلاف من والى أولياءه فانه لم يتخذهم من دونه ، بل موالاته لهم من تمام موالاته تعالى . وقد أنكر على من سوى بينه وبين غيره فى المحبة ، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أندادا . قال تعالى (٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) وأخبر عمن سوّى بينه وبين الأنداد فى المحبة أنهم يقولون فى النار لمعبوديهم (٢٦ : ٩٧ ، ٩٨ تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين)

وبهذا التوحيد فى المحبة أرسل الله سبحانه جميع رسله وأنزل جميع كتبه ، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار . فجعل الجنة لأهل هذا التوحيد والنار للمشركين به وفيه . وقد أقسم النبى ﷺ أنه « لا يؤمن عبد حتى يكون الرسول أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » فكيف بمحبة الرب جل جلاله ؟ وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه « لا . حتى أكون أحب إليك من نفسك » أى لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية .

فاذا كان النبى ﷺ أولى بنا من أنفسنا بالمحبة ولوازمها ، أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم ؟

وكل ماوصل منه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته ومحبة مايحبه ، وكراهة مايكرهه فعطاؤه ومنعه . ومعافاته وابتلاؤه ، وقبضه و بسطه ، وعدله وفضله ، و إماتته و إحياؤه ولطفه و بره ورحمته و إحسانه ، وستره وعفوه ، وحلمه وصبره على عبده ، و إجابته لدعائه ، وكشف كربه ، و إغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه ، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه ، كل ذلك داع للقلوب إلى تأليهه ومحبته ، بل تمكينه عبده من معصيته و إعانته عليها وستره حتى يقضي وطره منها وكلاءته وحراسته له .وهو يقضي وطره من معصيته ، وهو يعينه و يستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعي إلى محبته ، فلو أن مخلوقا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته ، فكيف لايحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس ، مع إساءته ؟ فخيره إليه نازل ، وشره إليه صاعد ، يتحبب اليه بنعمه وهو غني عنه ، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه . فلا إحسانه و بره و إنعامه عليه يصدُّه عن معصيته ، ولا معصية العبد ولؤمه يقطعُ إحسان ربه عنه .

فألأم اللؤم تخلُّف القلوب عن محبة من هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه ،

وأيضاً فكل من تحبه من الخلق أو يحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك ، والرب سبحانه وتعالى يريدك لك ، كما في الأثر الالهي « عبدي كلٌّ يريدك لنفسه وأنا أريدك لك » فكيف لايستحي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض عنه مشغول بحب غيره ، وقد استغرق قلبه في محبة ماسواه ؟

وأيضاً فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، ولا بد له من نوع من أنواع الربح والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محواً .

وأيضاً فهو سبحانه خلقك لنفسه وكل شيء خلق لك في الدنيا والآخرة .

فمن أولى منه باستفراغ الوسع فى محبته وبذل الجهد في مرضاته ؟

وأيضا فطالبك ، بل مطالب الخلق كلهم جميعا لديه ، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين . ويعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله . يشكر على القليل من العمل وينميه . ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه . ويسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن . لايشغله سمع عن سمع ولا يغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين ، بل يحب الملحين فى الدعاء ويحب أن يسأل ويغضب اذا لم يسأل . فيستحى من عبده حيث لايستحى العبد منه ، ويستره حيث لايستر نفسه ويرحمه حيث لايرحم نفسه. دعاه بنعمته وإحسانه ، وناداه إلى كرامته ورضوانه فأبى فأرسل رسله صلى الله عليهم وسلم فى طلبه ، وبعث معهم إليه عهده ، ثم نزل سبحانه بنفسه وقال[1] « من يسألنى فأعطيه من يستغفرني فأغفرله » أدعوك للوصل فتأبى أبعث رسلى فى الطلب ، أنزل اليك بنفسى ، ألقاك فى النوم

وكيف لاتحب القلوب من لا يأتي بالحسنات الا هو ، ولا يذهب بالسيئات الا هو ، ولا يجيب الدعوات ويقيل العثرات ، ويغفر الخطيئات ، ويستر العورات ويكشف الكربات ، ويغيث اللهفات : وينيل الطلبات سواه ؟ فهو أحق من ذكر وأحق من شُكر وأحق من حمد وأحق من عبد ، وأنصر من ابتغى . وأرأف من ملك . وأجود من سُئل . وأوسع من أُعطى . وأرحم من استرحم ، وأكرم من قصد وأعزُّ من التجىء اليه . وأكفى من تُوكِّل عليه أرحم بعبده من الوالدة بولدها ، وأشد فرحا بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة اذا يئس من الحياة فوجدها . وهو الملك فلا شريك له . والفرد فلا نِدَّ له . كل شىء هالك الا وجهه لن يطاع الا باذنه . ولن يعصى الا بعلمه يطاع فيشكر . وبتوفيقه ونعمته أطيع ، ويعصى فيغفر ، ويعفو وحقه أضيع . فهو أقرب شهيد وأدنى حفيظ . وأوفى وَفِيِّ بالعهد . وأعدل قائم بالقسط . حال دون النفوس

---

(١) كما فى الصحيحين « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول ـ الحديث »

وأخذ بالنواصي . وكتب الآثار . ونسخ الآجال . فالقلوب له مفضية والسر عنده علانية. والعلانية والغيوب لديه مكشوف. وكل أحد اليه ملهوف ،وعنت الوجوه(١) لنور وجهه وعجزت القلوب عن إدراك كنهه ، ودلت الفطرة والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات ، واستنارت له الأرض والسموات ، وصلحت عليه جميع المخلوقات ، لاينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه(٢) ماانتهى اليه بصره من خلقه

ماعتاض باذل حُبِّه لسواه من   عوض ، ولو ملك الوجود بأسره

فصل

وههنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به . وهو أن كمال اللذة والسرور والفرح ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين :

أحدهما : كمال المحبوب فى نفسه وجماله ، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه .

والأمر الثانى : كمال محبته ، واستفراغ الوسع فى حبه ، و إيثار قربه والوصول إليه على كل شيء . وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوته ومحبته ، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل . فلذة من اشتد ظمؤه بادراك الماء الزلال ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهى أكمل . ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته .

---

(١) خضعت وذلت (٢) سبحات بفتح السين وضم الباء أى لو انكشف شيء من أنوار الله التى تحجب العباد عنه هلك كل ما وقع عليه ذلك النور كما خر موسى صعقا .

فاذا عرفت هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب فى نفسه، بل هو مقصود لكل حى وعاقل، وإذا كانت اللذة مطلوبة فى نفسها فهى تذم إذا أعقبت ألما أعظم منها، أو منعت لذة خيراً منها وأجلَّ. فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات، وفوتت أعظم اللذات والمسرات؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستمرة لاتنغيص فيها ولا نكد بوجه ما، وهى لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها. قال تعالى (٨٧ : ١٦ ، ١٧ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال السحرة لفرعون لما آمنوا (٢٠ : ٧٢ فاقض ما أنت قاض . إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) الآية .

والله سبحانه وتعالى خلق الخلق لينيلهم وينيل من أطاعه هذه اللذة الدائمة فى دار الخلد. وأما الدنيا فمنقطعة ولذاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم. بخلاف الآخرة. فان لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم. وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الاعين مع الخلود أبداً، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قُرة أعين. بل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهذا المعنى الذى قصده الناصح لقومه[1] بقوله (٤٠: ٢٨، ٢٩ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد. ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع. وإن الآخرة هى دار القرار) فأخبرهم أن الدنيا متاع يستمتع بها إلى غيرها، وأن الآخرة هى المستقر

وإذا عرفت أن لذات الدنيا متاع وسبيل إلى لذات الآخرة، ولذلك ماخلقت الدنيا لذاتها. فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت اليها لم يذم تناولها بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة.

إذا عرف هذا فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها: هو النظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والقرب منه. كما ثبت فى الصحيح فى حديث الرؤية « فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » وفى حديث آخر « إنه إذا تجلى لهم ورأوه

(١) هو الذى آمن من آل فرعون

نسوا ماهم فيه من النعيم » وفى النسائى ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضى الله عنه عن النبي ﷺ فى دعائه « وأسألك اللهم لذة النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك »

وفى كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد مرفوعا « كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن . فاذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك »

فاذا عرف هذا فأعظم الأسباب التى تحصل هذه اللذة هى أعظم لذات الدنيا على الاطلاق ، وهى لذة معرفته سبحانه ولذة محبته . فان ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالى ، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة فى بحر . فان الروح والقلب والبدن إنما خلقت لذلك . فأطيب مافى الدنيا معرفته سبحانه ومحبته ، وألذ مافى الجنة رؤيته ومشاهدته ، فمحبته ومعرفته قرة العيون ولذة الأرواح وبهجة القلوب ونعيم الدنيا وسرورها ، واللذة القاطعة عن ذلك تنقلب آلاما وعذابا ، ويبقى صاحبها فى المعيشة الضنك . فليست الحياة الطيبة إلا بالله . وكان بعض المحبين تمر به أوقات ، يقول فيها : إن كان أهل الجنة فى نعيم مثل هذا ، إنهم لفى عيش طيب . وكان غيره يقول : لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التى هي عذاب قلب المحب يقول فى حاله:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى   فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول الآخر :

أف للدنيا متى مالم يكن   صاحب الدنيا محب أو حبيب

ويقول الآخر :

ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها   وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول الآخر :

اسكن إلى سكن تلذ بحبه   وَصَبٌ[1] الزمان وأنت منفرد

---

(١) الوصب الهم والتعب

ويقول الآخر :

يشكى المحبون الصبابة ، ليتنى   تحملت مايقولون من بينهم وحدى
فكانت لقلبى لذة الحب كلها   فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

فكيف بالمحبة التى هي حياة القلوب وغذاء الأرواح ؟ وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة إلا بها ، و إذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، والأنف إذا فقد شمه ، واللسان إذا فقد نطقه . بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه و إلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح . وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فى قلبه حياة وما لجرح بميت إيلام .

والمقصود : أن أعظم لذات الدنيا هى السبب الموصل إلى أعظم لذة فى الآخرة . ولذات الدنيا ثلاثة أنواع :

فأعظمها وأكملها : ما أوصل إلى لذة الآخرة . و يثاب الانسان على هذه اللذة أتم ثواب . ولهذا كان المؤمن يثاب على كل مايقصد به وجه الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه ، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه . فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله ، ومحبته له وشوقه إلى لقائه وطمعه فى رؤية وجهه الكريم فى جنات النعيم ؟

النوع الثانى : لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاما أعظم منها ، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم فى الحياة الدنيا ، يحبونهم كحب الله و يستمتع بعضهم ببعض ، فانهم يقولون فى الآخرة إذا لقوا ربهم (٦ : ١٢٨ ، ١٢٩ ربنا استمتع بعضنا ببعض و بلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ـ الآية إلى قوله ـ يكسبون) ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغى فى الأرض والعلو بغير الحق . وهذه اللذات فى الحقيقة إنما هى استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام و يحرمهم بها أكمل اللذات ، بمنزلة من قدم لغيره طعاما لذيذا مسموما يستدرجه به إلى هلاكه

قال تعالى (٧ : ١٨٢ ، ١٨٣ سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين)

قال بعض السلف فى تفسيرها: كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة (٦: ٤٤، ٤٥ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) قال تعالى لأصحاب هذه اللذة (٢٣ : ٥٥ ، ٤٦ أيحسبون أن ما نُمِدُّهم به من مال و بنين نسارع لهم فى الخيرات ؟ بل لايشعرون) وقال فى حقهم (٩ : ٥٥ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم . إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ـ الآية) وهذه اللذة تنقلب آلاما من أعظم الآلام كما قيل :

يارُبَّ كائنة فى الحيـاة لأهلها عَذْبا . فصارت فى المعاد عذابا

النوع الثالث : لذة لا تعقب لذة فى دار القرار ولا ألما يمنع وصول لذة دار القرار ، وإن منعت كمالها ، وهذه اللذة المباحة التى لايستعان بها على لذة الآخرة. فهذه زمانها يسير ، ليس لتمتع النفس بها قدر ، ولابدأن تشغل العبد عما هو خيرله وأنفع منها .

وهذا القسم هو الذى عناه النبى ﷺ بقوله « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه ، وملاعبته امرأته . فانهن من الحق »فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق ، وما لم يعن عليها فهو باطل

فصل

فهذا الحب لاينكر ولا يُذَمّ ، بل هو أحد أنواع الحب ، وكذلك حب رسول الله ﷺ ، وإنما نعنى المحبة الخاصة . وهى التى تشغل قلب المحب وفكره وذكره لمحبوبه . وإلا فـكل مسلم فى قلبه محبة لرسول الله ﷺ التى لا يدخل الاسلامَ إلا بها . والناس متفاوتون فى درجات هذه المحبة تفاوتا لايحصيه إلا الله، فبين محبة الخليلين صلى الله عليهما وسلم ومحبة غيرهما ما بينهما . فهذه المحبة

هى التى تلطِّف وتخفف أثقال التكاليف، وتسخِّى البخيل وتشجِّع الجبان، وتصفِّى الذهن، وتروض النفس، وتطيب الحياة على الحقيقة، لامحبة الصور المحرمة. وإذا بُليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد، كما قيل:

سيبقى لكم فى مضمر القلب والحشا   سريرة حب يوم تبلى السرائر (١)

وهذه المحبة هى التى تنور الوجه، وتشرح الصدر وتحيي القلب، وكذلك محبة كلام الله، فانها من علامة حب الله. وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهى والغناء المطرب بسماعهم. فانه من المعلوم أن من أحب حبيباً كان كلامه وحديثه أحب شىء إليه، كما قيل:

إن كنت تزعم حبى * فلِمَ هجَرْتَ كتابى ؟

أما تأملت ما فيـ * ـه من لذيذ خطابى

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله» وكيف يشبع المحب من كلام من هو غاية مطلوبه ؟ وقال النبى ﷺ يوما لعبدالله ابن مسعود رضى الله عنه « اقرأ على. فقال: أقرأ عليك، وعليك أنزل ؟ فقال: إنى أحب أن أسمعه من غيرى. فاستفتح فقرأ سورة النســاء، حتى إذا بلغ قوله (٤ : ٤١ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) قال: حسبك الآن. فرفع رأسه فاذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء » وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون: يا أبا موسى اقرأ علينا. فيقرأ، وهم يستمعون. فلمحبى القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبى السماع الشيطانى فاذا رأيت الرجل ذوقه وشدة وجده وطربه وشوقه إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات، وسماع الألحان دون سماع

(١) (تبلى السرائر) بالبناء للمفعول أى تختبر ويظهر الله ويكشف ما كانت تخفيه.

القرآن ، فهو كما قيل : تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر ، و بيت من الشعر ينشد فتميل كالنشوان ، فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه ، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان والمغرور يعتقد أنه على شيء

ففي محبة الله وكلامه ومحبة رسوله ﷺ أضعاف أضعاف ما ذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه ، بل لا يحب على الحقيقة أنفع منه وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يعن عليه و يسوق المحب اليه

فصل

وأما محبة النسوان : فلا لوم على المحب فيها ، بل هي من كماله ، وقد منّ الله سبحانه بها على عباده فقال (٣٠ : ٢١ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها . وجعل بينكم مودة ورحمة) الآية . فجعل المرأة سكنا للرجل يسكن إليها قلبه ، وجعل بينهما خالص الحب ، وهو المودة المقترنة بالرحمة . وقد قال تعالى عقيب ذكر ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن (٤ : ٢٦ يريد الله ليبين لكم و يهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم — الى قوله — وخلق الانسان ضعيفاً) وذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه « أنه ﷺ كان اذا نظر إلى النساء لم يصبر عنهن » وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي ﷺ « أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها وقال : إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان . فاذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته ،فليأت أهله . فان ذلك يرد ما في نفسه » ففي هذا الحديث عدة فوائد

منها : الإرشاد إلى التسلي عن المطلوب بجنسه ، كما يقوم الطعام مكان الطعام والثوب مقام الثوب

ومنها : الأمر بمداواة الاعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية ، وهو

قضاءوطره من أهله ، وذلك ينقص شهوته بها ، وهذا كما أرشد المتحابين إلى النكاح كما فى سنن ابن ماجه مرفوعا «لم ير للمتحابين مثل النكاح » ونكاحه لمشوقه هو دواء العشق الذى جعله الله دواءه شرعا وقدراً ، و به تداوى نبى الله داود ﷺ ولم يرتكب نبى الله محرما ، و إنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها ،وكانت تو بته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ، ولا يليق بنا المزيد على هذا .

وأما قصة زينب بنت جحش : فز يد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه ، وكان يستشير رسول الله ﷺ فى فراقها ، وهو يأمره بامساكها ، فعلم رسول الله ﷺ أنه سيفارقها ولا بد . فأخفى فى نفسه أن يتزوجها إذا فارقها زيد ، وخشى مقالة الناس : أن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه ، فانه كان تبنى زيدا قبل النبوة ، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعا عاما فيه مصالح عباده . فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه ، فجاء زيد واستدبر الباب بظهره وعظمت فى صدره لما ذكر رسول الله ﷺ ، فناداها من وراء الباب « يازينب إن رسول الله ﷺ يخطبك . فقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى ،وقامت إلى محرابها فصلت . فتولى الله عز وجل نكاحها من رسوله ﷺ بنفسه . وعقد النكاح له من فوق عرشه . وجاء الوحى بذلك (٣٣:٥٤ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها ، فكانت تفخر على نساء النبى ﷺ بذلك وتقول : «أنتن زوجكن أهلوكن وزوجنى الله عز وجل من فوق سبع سموات» فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب .

ولا ريب أن النبى ﷺ حبب إليه النساء كما فى الصحيح من حديث أنس ورواه النسائى فى سننه و الطبرانى فى الاوسط عنه ﷺ قال «حبب إلى من دنياكم النساء والطيب . وجعلت قرة عينى فى الصلاة» هذا لفظ الحديث . لا مايرويه بعضهم «حبب إلى من دنياكم ثلاث » زاد الامام أحمد فى كتاب الزهد فى هذا الحديث « أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » وقد حسده أعداء الله

اليهود على ذلك وقالوا : ماهمه إلا النكاح . فرد الله سبحانه عن رسول الله ﷺ ونافح عنه فقال (٤:٥٤ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) الآية [١].

وهذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها.

وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة . وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف فى الليلة على تسعين امرأة. وقد سئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه فقال « عائشة رضى الله عنها » وقال عن خديجة « إنى رزقت حبها »

فمحبة النساء من كمال الإنسان. قال ابن عباس «خير هذه الأمة أكثرهم نساء» وقد ذكر الامام أحمد أن عبد الله بن عمر وقع فى سهمه يوم جَلُولاء [٢] جارية كأن عنقها ابريق فضة . قال عبد الله : «فما صبرت عنها أن قبَّلتها والناس ينظرون إلىَّ» وبهذا احتج الامام احمد على جواز الاستمتاع بالمسبية قبل الاستبراء بغير الوطء ، بخلاف الأمة المشتركة.

والفرق بينهما أنه لا يتوهم انفساخ الملك فى المسبية . بخلاف المشتركة ، فقد ينفسخ فيها الملك ، فيكون مستمتعا بأمة غيره.

وقد شفع النبى ﷺ لعاشق أن يواصله معشوقه بأن يتزوج به فأبت . وذلك فى قصة مُغيث وبَرِيرة ، فانه رآه يمشى خلفها بعد فراقها ودموعه تجرى على خديه ، فقال لها رسول الله ﷺ « لو راجعتيه ؟ فقالت : أتأمرنى ؟ فقال : لا ، إنما أشفع فقالت ، لا حاجة لى به فقال لعمه : يا عباس ألا تعجب من حُبِّ مغيث بريرة

---

(١) سياق الآيات من سورة النساء . ان اليهود حسدوا رسول الله ﷺ على ما آتاه الله من العلم والحكم . فقد قال الله تعالى بعدها (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما)

(٢) جلولاء بلدة فى طريق خراسان من سواد العراق ، كانت بها وقعة مشهورة على الفرس للمسلمين فى سنة ١٦ هـ . فاستباحهم المسلمون.

ومن بغضها له ؟ » ولم ينكر عليه حبها ، وإن كانت قد بانت منه . فان هذا مالا يملكه .

وكان النبي ﷺ يساوى بين نسائه بالقَسم ويقول « اللهم هذا قَسْمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك » يعنى فى الحب وقد قال تعالى (٤: ١٢٩ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) يعنى فى الحب والجماع (فلا تميلوا كل الميل)

ولم يزل الخلفاء الراشدون الرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقيهم الجائز وصلهن ، كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان . وكذلك على رضى الله عنه أتى بغلام من العرب وجد فى دار قوم بالليل . فقال له : ماقصتك ؟ قال لست بسارق ولكنى أصدقك :

تعلقت فى دار الرباحى خريدة ... يذل لها من حسن منظرها البدر
لها فى بنات الروم حسن ومنظر ... اذا افتخرت بالحسن عانقها الفخر
فلما طرقت الدار من حب مهجتى ... أتيت وفيها من توقدها الجمر
تبادر أهل الدار بى ثم صيحوا ... هو اللص محتوم له القتل والأسر

فلما سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه قوله رق له ، وقال للمهلب بن رباح : إسمح له بها . فقال . يا أمير المؤمنين ، سله من هو ؟ فقال : النهاس بن عيينة فقال : خذها فهى لك .

واشترى معاوية جارية فأعجب بها إعجابا شديداً فسمعها يوما تنشد أبياتا منها :

وفارقته كالغصن يهتز فى الثرى ... طريرا وسيما بعد ما طرّ شاربه

فسألها ، فأخبرته أنها تحب سيدها ، فردها إليه ، وفى قلبه منها مافيه . وذكر الزمخشرى فى ربيعه أن زبيدة قرأت فى طريق مكة على حائط :

أما فى عباد الله أو فى إمائه ... كريم يجلى الهم عن ذاهل العقل ؟
له مقلة أما المـآقى فقريحة ... وأما الحشا فالنار منه على رجل

فنذرت أن تحتال لقائلها إن عرفته ، حتى تجمع بينه و بين من يحبه ، فبينما هى فى المزدلفة إذ سمعت من ينشد البيتين ، فطلبته ، فزعم أنه قالها فى ابنة عم

له نذر أهلها أن لا يزوجوها منه ، فوجهت إلى الحى . وما زالت تبذل لهم المال حتى زوجوها منه ، وإذ المرأة أعشق له منه لها . فكانت تعده من أعظم حسناتها فتقول : ما أنا بشىء أسر منى من جمعى بين ذلك الفتى والفتاة . وقال الخرائطى كان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان ، فكتب الغلام لها يوما :

ولقد رأيتك فى المنام كأنما أسقيتنى من ماء فيك البارد
وكأن كفك فى يدى ، وكأننا بتنا جميعاً فى فراش واحد
فطفقت نومى كله متراقداً لأراك فى نومى ، ولست براقد

فأجابته الجارية :

خيراً رأيت ، وكل ما أبصرته ستناله منى برغم الحاسد
إنى لأرجو أن تكون معانقى وتبيت منى فوق ثدى ناهد
وأراك بين خلاخلى ودمالجى وأراك فوق ترائبى ومجاسدى

فبلغ ذلك سليمان فأنكحها الغلام ، وأحسن حالهما على فرط غيرته . وقال جامع بن مرجيه : سألت سعيد بن المسيب مفتى المدينة : هل على من أحب درهما من وزر ؟ فقال سعيد : إنما تلام على ما تستطيع من الأمر . ثم قال سعيد : والله ما سألنى أحد عن هذا ، ولو سألنى ما كنت أجيب إلا به

فعشق النساء ثلاثة أقسام : عشق هو قربة وطاعة وهو عشق الرجل امرأته وجاريته ، وهذا العشق نافع ، فانه أدعى إلى المقاصد التى شرع الله لها النكاح ، وأكف للبصر والقلب عن التطلع إلى غير أهله ، ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس

وعشق هو مقت عند الله و بعد من رحمته ، وهو أضر شىء على العبد فى دينه ودنياه ، وهو عشق المردان . فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله وطرد عن بابه ، وأبعد قلبه عنه ، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله كما قال بعض السلف

« اذا سقط العبد من عين الله ابتلاه بمحبة المردان » وهذه المحبة هى التى جلبت على قوم لوط ماجلبت ، وما أتوا إلا من هذا العشق قال الله تعالى (١٥ :٧٢ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) .

ودواء هذا الداء : الاستغاثة بمقلب القلوب وصدق اللجأ إليه والاشتغال بذكره والتعوض بحبه وقر به والتفكر بالألم الذى يعقبه هذا العشق ، واللذة التى تفوت به ، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب وحصول أعظم مكروه . فاذا أقدمت نفسه على هذا وآثرته فليكبر على نفسه تكبير الجنازة ، وليعلم أن البلاء قد أحاط به

والقسم الثالث من العشق : العشق المباح الذى لا يملك . كعشق من صورت له امرأة جميلة ، أو رآها فجأة من غير قصد ، فأورثه ذلك عشقا لها . ولم يحدث له ذلك العشق معصية . فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه . والأنفع له مدافعته والاشتغال بما هو أنفع له منه ، والواجب على هذا أن يكتم و يعف و يصبر على بلواه ، فيثيبه الله على ذلك و يعوضه على صبره لله وعفته وترك طاعة هواه و إيثار مرضاة الله وما عنده

فصل

والعشاق ثلاثة أقسام : منهم من يعشق الجمال المطلق . ومنهم من يعشق الجمال المقيد ، سواء طمع بوصاله أو لم يطمع . ومنهم من لا يعشق إلا من طمع بوصاله وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت فى القوة والضعف .

فعاشق الجمال المطلق يهيم قلبه فى كل واد وله فى كل صورة جميلة مراد :

فيوما بحزوى و يوما بالعقيق   و بالعذيب يوما و يوما بالخليصاء

وتارة ينتحى بنجد وأودية   شعب العقيق وطوراً قصر تيماء

فهذا عشقه أوسع ، ولكنه غير ثابت كثير التنقل

يهيم بهذا ثم يعشق غيره   و يسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه ، وأدوم محبة له ، ومحبته أقوى من محبة

الاول لاجتماعهما فى واحد ، ولكن يضعفهما عدم الطمع فى الوصال . وعاشق الجمال الذى يطمع فى وصاله أعقل العشاق وأعرفهم وحبه أقوى لان الطمع يمده ويقويه

فصل

وأما حديث « من عشق وعف » فهذا مما يرويه سويد بن سعيد . وقد أنكره حفاظ الاسلام عليه ، قال ابن عدى فى كامله : هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد . وكذلك ذكره البيهقى وابن طاهر فى الذخيرة والتذكرة ، وأبو الفرج ابن الجوزى وعده من الموضوعات . وأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله ، وقال : أنا أتعجب منه .

قلت : والصواب فى الحديث أنه من كلام ابن عباس رضى الله عنهما موقوفاً عليه ، فغلط سويد فى رفعه ، قال أبو محمد بن خلف بن المرزبان : حدثنا أبو بكر بن الازرق عن سويد به فعاتبته على ذلك ، فأسقط ذكر النبى ﷺ . وكان بعد ذلك يسأل عنه ولا يرفعه ، ولا يشبه هذا كلام النبوة

وأما مارواه الخطيب له عن الازهرى[1] حدثنا المعافى بن زكريا حدثنا قطبة ابن الفضل ، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق ، حدثنا سويد بن سعيد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعاً . فمن أبين الخطأ . ولا يحمل مثل هذا

---

(١) وقد روى الخطيب البغدادى فى ترجمة محمد بن داود بن على الأصبهانى صاحب كتاب الزهرات من كتاب تاريخ بغداد (ج ٥ ص٢٦٢) عن ابى الحسن على بن ايوب القمى ــ املاء ــ حدثنا ابو عبيدالله المرزبانى ، وابو عمر بن حيوية ، وابو بكر بن شاذان قالوا : حدثنا ابو عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة النحوى — نفطويه — قال : دخلت على محمد بن داود الأصبهانى فى مرضه الذى مات فيه ــ ثم ساق قصته فى سبب مرضه ، إلى أن قال : ــ فانه منعنى منها ما حدثنى به ابى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا على بن مسهر عن ابى يحيي القتات عن مجاهد عن ابن عباس . ثم ساقه

عن هشام عن أبيه عن عائشة من شَمَّ أدنى رائحة من العلم من الحديث . ونحن نشهد بالله أن عائشة ما تكلمت بهذا عن رسول الله ﷺ قط ، ولا حدث به عنها عروة ، ولا حدث به هشام قط

وأما حديث ابن الماجشون عن عبد الله بن أبى حازم عن ابن أبى نجيح عز مجاهد عن ابن عباس مرفوعا . فكذب على ابن الماجشون ، فانه لم يحدث بهذا . ولم يحدث به عنه الزبير بن بكار ، وإنما هذا من تركيب بعض الوضاعين . ويا سبحان الله كيف يحتمل هذا الاسناد مثل هذا المتن ؟ فقبح الله الوضاعين

وقد ذكره أبو الفرج ابن الجوزى من حديث محمد بن جعفر بن سهل : حدثنا يعقوب بن عيسى عن ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبى نجيح عن مجاهد مرفوعاً . وهذا غلط قبيح . فان محمد بن جعفر هذا هو الخرائطى ، ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة . فمحال أن يدرك شيخه يعقوب بن أبى نجيح . لا سيما وقد رواه فى كتاب الاعتلال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن أبى نجيح ، والخرائطى هذا مشهور بالضعف فى الرواية ذكره أبو الفرج فى كتاب الضعفاء .

وكلام حفاظ الاسلام فى إنكار هذا الحديث هو الميزان ، و إليهم يرجع فى هذا الشأن . وما صححه ، بل ولا حسنه أحد يعول فى علم الحديث عليه ، و يرجع فى التصحيح اليه ، ولا من عادته التساهل والتسامح ، فانه لم يصف نفسه . ويكفى أن ابن طاهر الذى يتساهل فى أحاديث التصوف ، و يروى منها الغث والسمين والمنخنقة والموقوذة ، قد أنكره وحكم ببطلانه .

نعم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنه

وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه: أنه سئل عن الميت عشقا فقال «قتيل الهوى لا عقل له ولا قود[1]» ورفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ. فقال: ماشأنه؟ فقالوا: العشق، فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق

فهذا تفسير من قال «من عشق وعف وكتم ومات فهو شهيد»

ومما يوضح ذلك: أن النبي ﷺ عدّ الشهداء فى الصحيح، فذكر المقتول فى الجهاد، والمبطون والحريق، والنفساء يقتلها ولدها، والغريق؛ وصاحب الهدم، فلم يذكر منهم العاشق يقتله العشق

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس رضى الله عنهما، على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله، ويعف لله؛ ويكتم لله. وهذا لا يكون إلا مع قدرته على معشوقه، وإيثار محبة الله ورضاه، وهذا أحق من دخل تحت قوله تعالى (٧٩: ٤٠ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فان الجنة هى المأوى) وتحت قوله تعالى (٥٥: ٤٦ ولمن خاف مقام ربه جنتان)

فنسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلنا ممن آثر حبه ورضاه على هواه، وابتغى بذلك قربه ورضاه آمين يارب العالمين.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين آمين

وكان الفراغ من طبعه بمطبعة أنصار السنة المحمدية فى العشر الأخير من رمضان المعظم سنة ١٣٦٧ من هجرة خاتم الأنبياء وصفوة المرسلين عبدالله ورسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيراً. والحمد لله أولا وآخراً.

---

(١) اى لا دية سميت بذلك لأن الابل كانت تعقل بفناء دار القتيل والقود: القصاص